رحلة الى القرية

كاميلو خوسيه ثيلا



ترجمة وتقديم : د . محمد ابو العطا

ر

روايـــــــة

رحلة إلى القرية

تأليف

كاميلو خوسيه ثيلا

ترجمة وتقديم

د . محمد أبو العطا

الطبعة الأولى
١٩٩٣

الاشراف الفنى : حلمى التونى

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب كاميلو خوسيه ثيلا

« رحلة إلى القرية »

Camilo Jose Cela : " Viaje a la Alcarria",Madrid,
Espasa-Calpe (Coleccion Austral),1976.

إهـــــداء

عزيزي دون غريغوريو مارانيون *:

إنى مدين لك بالكثير . فثمة العديد من الأشياء التى لايمكن أن تفسر بدون صداقتك الكريمة والمعلمة . وأنا لا أحاول أن أرد الدين بهذه الصفحات التى أقدمها لك اليوم . فليس من بين عيوبى - على حد اعتقادى - عدم القدرة على رؤية الأشياء على حقيقتها ، وخاصة عندما تكون - كما هى فى هذه الحالة - واضحة كضوء المصباح - أرسل اليك هذا الكتاب بغرض أخر . فحينما لا ترد الديون لاستحالة سدادها فإنه من الأفضل عدم الحديث عنها ومواصلة اللعب . وانا أهديك كتابى « رحلة الى القرية » لأننى أعلم أنك هاو لكتب الرحلات .

القرية إقليم جميل وإن لم يستهو الناس الذهاب إليه . لقد تجولت فيه وأعجبنى . ففيما عدا العسل الأبيض (١) الذى يشتريه كله محتكروه من التجار ، نـإن به كل شىء : القمح والبطاطس والنعناع وأشجار الزيتون والطماطم والقنص . ولقد بدا لى أناسه طيبين . فهم ينطقون بإسبانية رائعة وبلكنة طيبة . وعلى الرغم من أنهم ما عرفوا غرض رحلتى إلا انهم أكرمونى وأطعمونى بمودة دائما رغم ندرة الطعام أحيانا . ففى أحدى القرى جعلوا منى ضيف شرف البلدية ودفعوا لى ايجار المسكن ، وفى قرية أخرى - فى المقابل - حبسونى بناء على أمر من العمدة الذى كان أمهق سكيرا متلعثما فى كلامه ، فمكثت يوما بليلته حبيس بدروم كريه الرائحة ، أتغذى على شوربة ثوم وبعض النبيذ الردىء . وكان فى

---

* غريغوريو مارانيون (١٨٨٧ - ١٩٦٠) : طبيب واديب إسبانى وشخصية إسبانية بارزة على مدى نصف قرن .

(١) يشتهر هذا الإقليم فى جميع انحاء إسبانيا بجودة إنتاجه من العسل الأبيض - المترجم .

الزنزانةرجل من الغجر فى مثل سنى تقريبا ، كان قد سرق بغلة ،ولقد اعتقد – ولا أحد يدرى مالسبب – أنى ممثل متجول ، وكان يقضى طوال الوقت فى سؤالى : إذا كنت فنانا فلماذا لا تريد أن تفصح عن ذلك ؟ ولم يكن للرجل أن يتصور أن الأمر لم يكن على ذلك النحو ،وأن كل ما هنالك أنى لم أكن فنانا . ولا أتحدث عن هذه القرية فى الكتاب لأنه ليس بوسعى أن أقول أشياء بهيجة كثيرة عنها .

عندما أطلقوا سراحى واصلت الترحال . وبعد ذلك، عندما نال منى النَّصَب كل منال عدت أدراجى إلى مدريد وكنت أسجل دائما فى دفتر كل ما كنت أراه ، وتلك الملاحظات هى أساس هذا الكتاب . وفى كل الرحلة لم أر أى شىء غريب ، أو فظيع – كجريمة مثلا أوولادة ثلاثة توائم ، أو شخص ركبه عفريت أو أي شئ من هذا القبيل – والآن أسعد لذلك لأنى كنت قد عقدت العزم على أن أحكى كل ما أراه (لأن هذا الكتاب ليس رواية وإنما هو على الأصح عمل جغرافى) ولو كنت عند كتابته أغرقت فى تصوير الفظائع لقالوا إننى أبالغ وما كان لأحد أن يصدقنى . ففى الرواية يصلح كل شىء على أن يروى بمنطق سليم ، ولكن فى الجغرافيا بالطبع لا يصلح أى شىء ، فيجب دائما قول الحق لأنها مسألة علمية .

وبعد ، يا عزيزى دون غريغوريو : هذا كل ما كنت أريد أن أقوله . وهو قليل ، لكن ، على أية حال ، هو أفضل من لا شىء . أرسل اليك أيضا زهرة قطفتها على حافة الطريق وحفظتها طيلة هذا الوقت فى كتاب وهى الآن مصبرة . أعتقد أنها جميلة .

أسألك أن تتقبل هذه الهدية التى يقدمها لك ، بخير نية فى العالم ، المخلص :

كاميلو خوسيه ثيلا

مقدمة

قيل عن كاميلو خوسيه ثيلا - الإسباني الجليقي المولود في عام ١٩١٦ - إنه أعظم روائي في فترة ما بعد الحرب الأهلية وحتى الآن ، وإنه كأديب «يكتب » بينما الغالبية من الروائيين «يحررون» . ثيلا يبحث في أسرار اللغة ويعتبر الكتابة مغامرة للوقوف على كنوز الإسبانية ، وهو كما يعرف نفسه «منقّب عن الكلمات » .

وثيلا - الحائز على جائزةنوبل في الأدب لعام ١٩٨٩ - هو الذي ألف رواية «عائلة باسكوال دوارتي» الرواية التي لها مذاق الأماكن التي مرت بها الحرب الأهلية الإسبانية ، والتي تعكس الحقد الدفين حبيس النفس الإسبانية ، حقد من ناضل من أجل أهدافه السامية ثم هزمه المناخ المحيط به .

وثيلا الآن ، بعد مرور خمسين عاما على ظهور «باسكوال» . ، يتململ قليلا في جلسته حين يلقبه البعض بـ « كاتب عائلة باسكوال دوارتي » ، فأي قارىء لبقية أعماله العظيمة يتفهم في الحال السبب . إن كاميلو خوسيه ثيلا أعظم مجدد روائي في اللغة الإسبانية في القرن العشرين ، وما من رواية صدرت له بعد « باسكوال ... » إلا وقد تأسست على بنية تقنية جديدة .

ففي عام ١٩٤٤ نشر روايته «عنبر الراحة » التي قامت على تقنية الزمن البطىء البروستي (Marcel proust)وقدصدرت بعد «باسكوال» لتحمل شيئا من السكينة إلى النفوس المعذبة التي عمرت روايته الأولى ، ولكنها سكينة مأساوية ، حيث تدور أحداث « عنبر الراحة » في مصح لمرضى الصدر ، وينتهي كل فصل تقريبا بوفاة أحد المرضى .

وفي ١٩٤٨ صدر له كتاب « رحلة إلى القرية » وهو تجربة فريدة

ومحكمة أيضا صيغت كلها فى زمن الفعل المضارع ، وسنعود إلى هذا العمل مرة أخرى كى نتناوله بشىء من التفصيل .

ثم صدرت له فى عام ١٩٥١ رواية « الخلية » التى تعد تواصلا مع أفضل ما فى المدرسة ال" Behaviorist " الأمريكية ، كأعمال جون دوس باسوس(John Dos Passos) وشيروود أندرسون Sherwood (Anderson)وهذه الرواية رفضت الرقابة فى إسبانيا نشرها ، فصدرت فى بوينوس إيرس.

وفى عام ١٩٥٣ صدرت له رواية « مسز كالدويل تتحدث إلى إبنها » لكى تدشن فى إسبانيا وجهة نظر روائية جديدة ، وهى وجهة النظر فى ضمير المخاطب ، وهى أيضاً وجهة نظر سبقت بكثير ما أصبح فيما بعد إكتشافاً عظيماً على يد حركة "Le Nouveau Roman" الفرنسية . و« مسز كالدويل . . . » رواية رسائلية شاعرية مليئة بالتداعيات السيريالية والشرودات غير المقيدة بمعايير ، وتتحدث عن علاقة أم بابنها الذى يموت فى بحر إيجا ، فتستمر فى كتابة رسائل له حتى وفاته .

وتمر الأعوام وإنتاج ثيلا لا ينقطع ، فينشر فى عام ١٩٦٩ رائعة أخرى من روائعه وهى «سان كاميلو ١٩٣٦ » التى تكرس فى إسبانيا تقنية «المناجاة الذاتية » طبقا للتقليد الذى أسس له جيمس چويس(J . Joyce)

ويتجدد إنتاج ثيلا الروائى ويتطور فى اطراد وفى الاتجاه الذى يبعث فى قرائه الدهشة دائما لروعة مفاجآته الجديدة . ففى عام ١٩٨٣ يبدأ حلقة جديدة فى سلسلة إبداعاته المجددة برواية « أغنية لقتيلين » وهى فى موضوعها تعتبر عودة الى الجذور ، إلى « چليقية » (Galicia) الوطن الأصل ، وإلى السرد الأشبه بالسرد الشعبى قديما وحديثا للأساطير وللحوادث الكبرى ،والذى تتحقق فيه المعادلة الصعبة فى اللغة الروائية المتمثلة فى الجمع بين أسلوب ومفردات العامة وأصالة وتراث اللغة الأدبية

ولغة حديثة مستوعبة لآخر وأحدث الظواهر اللغوية .

فى هذه الرواية ، يأخذ تقسيم العمل إلى فصول او أجزاء طريقه إلى التلاشى . ويلغى التتابع الطردى للزمن الروائى . وهذا الزمن لا يبدأ أو ينتهى عند نقطة معينة أو عند نفس النقطة ، بل هو زمن بلا بداية أو نهاية ، وهو زمن أسطورى يرتبط فى الأذهان بالحدث المسرود القائم بذاته .

وجزء كبير من أحداث الرواية يمكن إعادة سرده على صفحات نفس الرواية فى اختصار محسوب بالطبع (بنفس الأسلوب أو التفسير الذى ينقله الناس أو تتداوله العامة وهو التفسير الأخلد أيضاً) وكأنما جميع الأحداث وقعت فى لازمن(Timelessness) أو انها تتوازى زمنياً فى الذاكرة الجمعية ، وهى رواية صنفها النقاد وثيلا نفسه على أنها رواية دائرية .

ثم تأتى أخر رواياته حتى الآن ، « المسيح ضد أريزونا » لتكرس على نحو أعمق تقنية الرواية الدائرية ولتتشابك فيها التقنيات الروائية الحديثة بشكل عبقرى وطريف . فالراوى الذى يحكى الأحداث على مدى ٢٣٨ صفحة يتوقف فى منتصف الرواية عن السرد ليترك مكانه لشخص آخر يستأنف ابتهالات الأول ، ثم نكتشف أن كليهما ليسا سوى شخص واحد غير اسمه ولقبه وجزءاً من حياته .

والرواية فى مجملها هى مناجاة ذاتيه لشخص ليس هو البطل ، ففى هذا المجلد ليس ثمة بطل بالمعنى الشائع (بين ما يقرب من ٤٦٠ شخصاً هم شخوص هذه الرواية) . وفى هذا المجلد تختفى الفصول وجميع علامات الترقيم فيما عدا الفاصلة ، وليس به نقطة واحدة سوى نقطة النهاية . فالسيل الروائى كتلة واحدة لا يتوقف حتى نهاية المجلد .

وكاميلو خوسيه ثيلا كاتب واقعى ، ومصور للظواهر الاجتماعية وللسلوك ، لا للسرائر ، فهو يتبعد عن التحليل النفسى لأبطاله ، ويكتفى بالرصد الدقيق لسلوك البطل والمناخ الذى يتحرك فيه ، وهو ما يعاب عليه دائما ، ويجمع بين الشاعرية الروائية والمحاكاة الواقعية الجديدة . وتتميز لغته بالغلظة والصفاء المميزين للغة الإسبانية ، ولقد بلغت لغته درجة من الكمال لم يبلغها كاتب إسبانى معاصر .

رحلة إلى القرية

يمكن تصنيف الكتاب الذى نقدم له بهذه السطور ضمن أدب الرحلات ولكن فى قالب روائى . فمن يقرأ الفصلين الأول والثانى (اللذين لهما بنية روائية خالصة) يكتشف نية الكاتب منذ البداية والتى تجعل من الرحالة بطلا يتلاحم مع الشخصيات التى يلتقى بها تلاحما حميما . بيد أنه ليس البطل الأوحد ، ليس البطل الأساسى .

وترتبط روائية هذا المجلد بنية القيام بالرحلة أولا ، ثم بضمير الغائب الذى تحكى فيه وقائع الرحلة . فالرحالة لديه حنين ويحدوه الأمل فى معرفة الناس عن قرب : « ويسير الرحالة ممنيا نفسه بخير الآمال : فهو يفكر فى لمس قلوب رجال الطريق والنظر إلى أرواح المسافرين والإطلاع على نظراتهم كمن يطل من حافة بئر » وهذا ما سنراه عندما يلتقى بشخوص رسمت ملامحهم بريشة روائية قديرة ، خاصة الحوارات التى يجريها معهم .

اما الأمر الآخر وهو استخدام ضمير الغائب فقد أراد الكاتب به أن يبتعد قدر الإمكان عن أية مباشرة قد تفسد على القارىء متعة تخيل أبطال هذا المجلد وهم يعيشون فى عالم مجاور لعالم الواقع .

وفى هذا بالضبط تكمن روعة هذا العمل . فالرحلة التى قام بها المؤلف رحلة حقيقية التقى فيها بالشخصيات التى يتحدث عنها ولكنه أتاح لنفسه أن يرسم ملامحها الأخيرة بريشته هو . فثيلا ينتقى من الواقع ما يود، ويدع مالا يريد ، وهو نفسه يصرح بذلك فى مقدمة الكتاب .

وهذا الكتاب الذى قرأته الأجيال فى إسبانيا منذ صدوره وحتى الآن هو محاولة للمصالحة بين الإسبانيتين ، ويتضح هذا بجلاء فى الفصل الثانى من الكتاب . والإسبانيتان نقصد بهما الفريقين اللذين تطاحنا مأساوياً

خلال الحرب الأهلية ، فانتصر أحدهما انتصاراً مخزياً ، وهزم الآخر، فبات ممتهنا فى بلده وبين أخوته .

وفى الفصل الثانى من « رحلة إلى القرية » ثمة إشارة إلى الشاعر الإسبانى الكبير أنطونيو ما تشادو وهو من أنصار إسبانيا التى خسرت الحرب ومات بعيداً عن وطنه ،وفى الفصل الثانى أيضا يعكس ثيلا عاطفته الجياشة وحبه العميق لإسبانيا وللبسطاء والفقراء والمهزومين من بنى وطنه (أناس أعفاء يدخرون شهوراً بأكملها ليشتروا سجادة صغيرة إلى جانب الفراش – بنات كباريه لاس ياماس – الطفل الذى ينقب فى كومة قمامة .. الخ ...)

وينعكس حب الكاتب لإسبانيا والإسبان من خلال الوصف الذى يحتل الجزء الأكبر من الكتاب . وصف الأماكن والمناظر بأسلوب بسيط ، حذر ، يحدوه أمل واهن وتتخلله إيماءات تعبيرية بديعة . يليه وصفه لأشخاص معدمين ، بقايا أحلام ضائعة ، بعضهم أعاقته الطبيعة عن التطور والبعض أدى تغير المجتمع وتتابع الأحداث إلى أن أصبحوا بلا فائدة . ثم وصفه للأطفال الذى لا يربطهم بطبقة ما (فهذا ليس وارداً فى حالة هذا العمل) وإنما كشخوص لها هويتها الخاصة وفرادتها .

ولا شك أن تناول هذه الشخوص على وجه الخصوص إنما هو تعبير عن إرادة الخلاص عند ثيلا ، ومن ثم فـ « رحلة إلى القرية » هى عمل أخلاقى وتعبير عن حب الكاتب لبلده ، ووثيقة شاعرية وإخبارية فى ذات الوقت .

وهو عمل يعرض أيضاً للجدلية بين الريف والحضر ، ويعبر عن إرادة مبكرة للاهتمام بالريف وبأهله البسطاء مقابل سيطرة المدن عليه من ناحية ، وإهمالها لإصلاحه من ناحية أخرى .

والرحالة عندما يدخل القرى ، ينحصر اهتمامه الأول فى البحث عن المسكن والمأكل (وهو اهتمام برجوازى يشوبه ترف واضح لاينكره الكاتب بل ينطلق منه ليشرح أو يفسر الظواهر الأخرى التى تقابله خلال هذا البحث ، وليعكس من خلاله فهمه العميق لطبيعة أبناء بلده) ثم لا يلبث أن يلتقى بنماذج بشرية من الرجال البسطاء ، يعد العرض لهم متعة أدبية كبيرة ، بل ويعثر بكنوز حقيقية أثرية كانت أم تاريخية أم لغوية أم إنسانية وأفكار ومسميات في طريقها للاندثار فيقوم بتسجيلها .

والعجيب فى الأمر أنه ما كان على ثيلا إلا أن يصل إلى ناصية شارعه لكى تتفتح أمامه أبواب عالم كان من قبل يجهله ، ونقصد بذلك أن الرحالة (ثيلا) لم يخرج من إسبانيا ولم يذهب بعيداً جداً عن مدريد كى يتحقق له ذاك الكم الكبير من الاكتشافات ،وكى يحظى بلقاء شخوص خالدين كالذين التقى بهم بل وربما يغبطه على اكتشافهم الكثير من الأدباء والروائيين .

إن ثيلا لا يخفى أن صنعته ومهنته ككاتب قد منحته بعض الترف ، وهو كذواقة متميز للأدب – والطعام والشراب أيضاً – لايفوته أيضاً أن يتذوق متعة لقاء رجل متسول له هيئة فرسان القرون الوسطى ، أو الاستماع إلى بائع ثرثار جميل التصنع فى حديثه أو تناول طعامه على جانب الطريق مع رجل بائس يسمى « الغائط » .

ووصف ثيلا للطبيعة وللأشخاص العاديين من بسطاء الناس وما يضمنه من فلكلور محلى ومن بهجة أهل المنطقة يضفى مذاقا عتيقا على مادته يذكر بالرحالة القدامى وصبغة من الأزلية على الأماكن التى يزورها والناس الذين يلتقى بهم . فالناس فى كتابه يقيسون الزمن بما قبل وما بعد اختراع الطائرات ،وبعضهم يزعم أنه التقى بالجنرال (Wayler) ويلر القائد الإسبانى فى حرب كوبا فى القرن الماضى ، وكل الملصقات والإعلانات ترجع إلى أوائل القرن على أكثر تقدير . هؤلاء الناس يعيشون

فى دعة وسكينة وليسوا بحاجة إلى العودة إلى الحرب الأهلية (التى لم يكن قد مضى على انتهائها سوى عدة سنوات) لتحديد مسيرة تاريخهم. تلك الصبغة الأزلية التى تلون كل شىء يمر به لا تضطره (فليس ثمة حاجة إلى ذلك) للدخول فى محاورات سياسية أو فى سفسطات اجتماعية أو جدليات ايدولوجية لكى يشكل هذه التحفة الرائعة، فالبساطة والتواضع والعفوية هى أساس كل شىء.

وثمة التزام من جانب الكاتب خاص بحرفيات مهنة الكتابة ويتعلق بتحديد المعالم الجغرافية التى يمر بها تحديدا تاريخيا مقدما « النص الرسمى » أولا ثم التفسير التاريخى أو الشعبى والذى غالبا ما يتناقض مع التفسير الحكومى . ويلتزم أيضا بدقة الوصف (وإن أعطى لنفسه حرية اختيار ما يورده فى كتابه) . إن المجلد وثيقة تاريخية من الطراز الأول ، فالإشارة إلى الحرف وأحوال المعيشة والأماكن والمعالم دقيقة وأمينة إلى أبعد حد .

ومما يميز هذا العمل أيضا هو أنه صيغ فى زمن المضارع ، فلا نكاد نجد فعلا ماضيا إلا نادراً ، وينم ذلك عن براعة ومقدرة كاتبه ،وكذا عن تأصل نزعته التجديدية فى الكتابة ، فهو يرى أن العمل الأدبى يكتب من جديد فى كل مرة يقرأ فيها ،وأن أحداثه تولد مع كل قراءة له (من حيث إنها إن لم تقرأ فكأنها لم تحدث) لذا يرى فى صيغة المضارع أنسب الصيغ للكتابة . واستخدام المضارع هنا له دلالة أخرى تختص بنية كتابة هذا المجلد ، فثيلا (الرحالة) يصور إسبانيا الخالدة ، الأزلية كما ذكرنا ، الأصيلة التى مازالت تحتفظ بهويتها والتى تتحدى الزمن .

وأخيرا ، فكأن كاميلو خوسيه ثيلا يقول لنا : « إن إسبانيا هذه التى يزعم الجميع أنهم يعرفونها حق المعرفة ، ها هى ذى أقدمها أنا كما لم يقدمها أحد من قبل ، ها هى ذي تتبدّى لى فى شكل جديد وأصيل وتفصح لى عن أسرار لم يطرقها غيرى حتى الآن » .

ورحلات ثيلا فى ربوع إسبانيا والتى سجلها فى عدة مجلدات تحوى نحواً من أفضل كتابات ثيلا الأدبية، بإجماع نقاده ودارسى أدبه ، وليس ثمة حاجة إلى أن نقول إن « رحلة إلى القرية » كانت خير مفتتح للسفرات التالية لها . وثمة إشارة فى المجلد الذى بين أيدينا إلى تخوف وارتياب الكاتب من نتائج هذه الرحلة الأولى ، لكن النجاح الكبير الذى تحقق له فى النهاية كان حافزه الأساسى لتكرار التجربة.

د . محمد أبو العطا عبد الرءوف

كلية الألسن - القاهرة يناير ١٩٩٠

أعمال كاميلو خوسيه ثيلا

(ا) الروايات .

١ – عائلة باسكوال دوارتى . (La Familia De Pascual Duarte)

مدريد ، ١٩٤٢ .

٢ – عنبر الراحة. (Pabellón De Reposo)

مدريد ، ١٩٤٤ .

٣ – مغامرات ومحن جديدة لـ « لثريو دى تورمس »

(Nuevas Andanzas Y Desventuras De Lazarillo De Tormes)

مدريد ، ١٩٤٤.

٤ – الخلية . (La Colmena)

بوينوس أيرس ، ١٩٥١

٥ – مسز كالدويل تتحدث إلى ابنها .

(Mrs. Caldwell Habla Con Su Hijo)

برشلونه ، ١٩٥٣

٦ – قصص من فنزويلا . الشقراء

(Historias De Venezuela. La Catira.)

برشلونة ، ١٩٥٥ .

٧ – مزلقة الجياع . (Tobogán De Hambrientos)

برشلونة ، ١٩٦٢

٨ - وقفة وعيد وثامن أيام عيد سان كاميلو لعام ١٩٣٦ فى مدريد.

(Visperas,Festividad Y octava De San Camilo Del año1936 en Madrid).

مدريد ، ١٩٦٩.

٩ - طقوس الظلام ٥ (Oficio De Tinieblas 5)

برشلونة ، ١٩٧٥

١٠ - أغنية لقتيلين (Mazurca Para Dos Muertos)

برشلونه ، ١٩٨٣ .

١١ - المسيح ضد أريزونا (Cristo Versus Arizona)

برشلونة ، ١٩٨٨

(٢) القصص القصيرة .

١٢ - تلك السحب التى تمر . (Esas nubes Que Pasan)

مدريد ، ١٩٤٥ .

١٣ - جريمة الرقيب الجميلة وحكايات أخرى .

(EL Bonito Crimen Del Carabinero Yotras Invenciones)

برشلونة ، ١٩٤٧ .

١٤ - الجليقى وفريقه ، وخواطر أخرى إسبانية .

(EL Gallego Ysu Cuadrilla Yotros apuntes Carpetovetónicos)

مدريد ، ١٩٤٩ .

١٥ - البرتقال فاكهة شتوية .

(La Naranja es una Fruta De Invierno)

سانتا ندير ، ١٩٥١ .

١٦ - لوحة أيقونات دون كريستوبيتا الجديدة.

(Nuevo Retablo Don Cristobita)

برشلونة ، ١٩٥٧ .

١٧ - قصص من أسبانيا . (Historias De España)

بالمادى مايوركا ، ١٩٥٧ .

١٨ - الأصدقاء القدامى . (Los Viejos Amigos)

برشلونة ، ٦٠ - ١٩٦١ .

١٩ - باقة قصص بلاحب . (Gavilla De Fábulas Sin Amor)

بالمادى مايوركا . ١٩٦٢.

٢٠ - مصارعة صالونات. (Toreo De Salón)

برشلونة ، ١٩٦٣.

٢١- الوحيد وأحلام كيسادا .

(El Solitario Y Los Sueños De Quesada)

بالمادى مايوركا ، ١٩٦٣.

٢٢- إحدى عشرة قصة عن كرة القدم .

(Once Cuentos De Fútbol)

مدريد ، ١٩٦٣

٢٣- بنات الهوى . دراما بمصاحبة هزلية وألم قلب .

(Izas, Rabizas Y Colipoterras. Drama Con Acompa´namiento De Cachondeo Y Dolor De Corazón.)

برشلونة ، ١٩٦٤ .

٢٤- مشاهد مدريدية جديدة . (Nuevas Escenas Matritenses)

مدريد ، ٦٥ - ١٩٦٦.

٢٥- اليوم أتيليه . (Album De Ta ller)

برشلونة ، ١٩٨١.

٢٦- المرآة وقصص أخرى . (El Espejo Y Otros Cuentos)

مدريد ، ١٩٨١.

٢٧- شطحات فرانشيسكو دى جويا إى لوشينتس .

(Los Caprichos De Francisco De Goya Y Lucientes)

مدريد ، ١٩٨٩ .

(٣) قصص الأطفال .

٢٨- سرب الحمام . (La Bandada De Palomas)

برشلونة ، ١٩٦٩.

٢٩- قصص للقراءة بعد الحمام .

(Cuentos Para Leer Después Del baño)

برشلونة ، ١٩٧٤.

٣٠- ميول موزع ألبان. (Vocación De Repartidor)

مدريد - برشلونة ، ١٩٨٥.

٣١- أذنا الطفل راؤل. (Las orejas Del niño Raúl)

مدريد ، ١٩٨٦.

(٤) الروايات القصيرة .

٣٢- لاأحديفهم تيموتيو . (Timoteo El Incomprendido)

مدريد ، ١٩٥٢.

٣٣- سانتا بالبينا ٣٧ ، غاز في كل منزل.

(Santa Balbina 37, Gas En Cada Piso)

مليلة ، ١٩٥٢.

٣٤- مقهى الفنانين. (Café De Artistas)

مدريد ، ١٩٥٣.

٣٥- طاحونة الهواء وروايات أخرى .

(El Molino De Viento Y Otras Novelas Cortas)

برشلونة ، ١٩٥٦.

٣٦- عائلة البطل.

(La Familia Del Héroe O Discurso Histórico De Los Ú L timos Restos)

مدريد ، ١٩٦٥.

٣٧- المواطن إيسكاريوتي ركلوس.

(El Ciudadano Jscariote Reclús)

مدريد ، ١٩٦٥.

٣٨- مشاية الأطفال الصدئة . (El Tacatá Oxidado)

برشلونة ، ١٩٧٣.

(٥) أدب الرحلات :

٣٩- رحلة إلى القرية . (Viaje A La Alcarria)

مدريد ، ١٩٤٨ .

٤٠- أفيلا. (Ávila)

برشلونة ، ١٩٥٢.

٤١- من المينيو إلى البيداسوا. (Del Miño Al Bidasoa)

برشلونة ، ١٩٥٢ .

٤٣- يهود ومسلمون ومسيحيون . (Judios, Moros Y Cristianos)

برشلونة ، ١٩٥٦.

٤٤- أول سفرة اندلسية . (Primer Viaje Andaluz)

برشلونة ، ١٩٥٩.

٤٥- دفتر جواداراّما . (Cuaderno Del Guadarrama)

مدريد ، ١٩٥٩.

٤٦- رحلة إلى برانس . (Viaje Al Pirineo De Lérida)

مدريد ، ١٩٦٥.

٤٧- صفحات من جغرافيا متجولة .

(Páginas De Geografia Errabunda)

مدريد ، ١٩٦٥.

٤٨- لا مانتشا فى القلب والعينين.

(De Mancha En El Corazón En Los Ojos ..)

برشلونة ، ١٩٧١.

٤٩- مدريد . (Madrid. Calidoscopio ..)

مدريد ، ١٩٧٠.

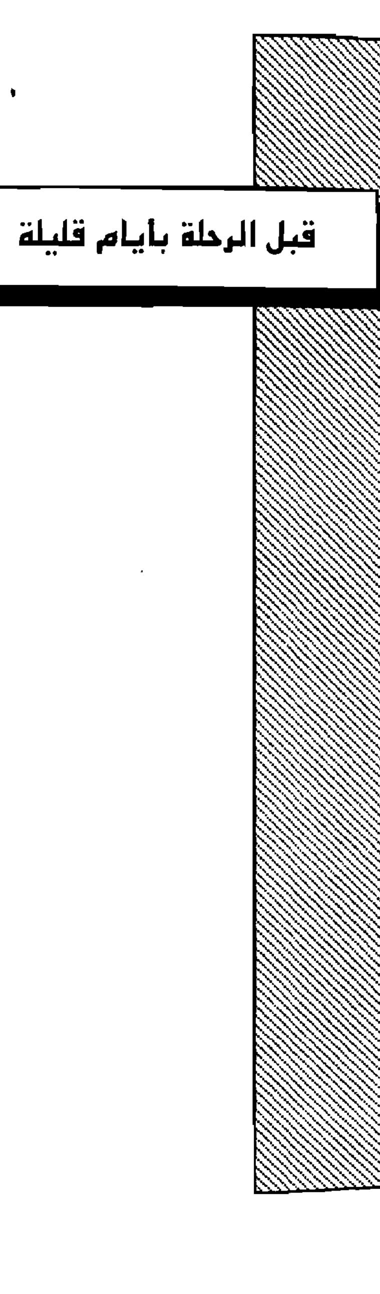
٥٠- برشلونة . (Barcelona. Calidoscopio..)

مدريد ، ١٩٧٠.

٥١- رحلة جديده إلي القرية . (Nuevo Viaje A La Alcarria)

برشلونة ، ١٩٨٦.

قبل الرحلة بأيام قليلة





٤

يستلقي الرحالة على ظهره ، على أريكة Chaise Longu كسيت بقماش القطن المنقوش وينظر إلى السقف شارد الذهن مطلقا العنان لخياله الذى يثب كفراشة خرقاء تحتضر وقد أخذت تصطدم فى رفق بالحوائط وبالأثاث وبمصباح الضوء . يشعر بالتعب ويلقى راحة كبيرة فى ترك ساقيه - اللتين تتحركان كالعرائس المشدودة إلى خيط - لتأخذا أى وضع تريدانه .

والرحالة شاب طويل ونحيف .يرتدى قميصا ويدخن سيجارة . مضت عدة ساعات دون أن ينبس ببِنْتِ شفة ، عدة ساعات دون أن يجد من يتحدث إليه . من حين لآخر يرشف رشفة - لا صغيرة ولا كبيرة - من الويسكى أو يصفر بصوت خفيف أية أغنية .

يسود الصمت الدار ، فأسرة الرحالة قد أوت إلى فراشها ، وفى الشارع، لا تقطع سكينة حراس المنازل الليليين سوى سيارات الأجرة الضالة تمر على فترات متباعدة .

تعم الفوضى الحجرة . على المائدة ، مئات من الأوراق فى غير نظام تشهد بساعات طويلة من العمل . ثمة ما بين عشر وأربع عشرة خريطة فرشت على الأرض أو علقت على الحوائط بدبابيس ضغط ودونت عليها

ملاحظات ورسمت دوائر بالحبر وخطوط سميكة بالرصاص الأحمر علاوة على أعلام مصغرة ثبتت بدابيس .

– ثم بعد ذلك ، لاشيء من هذا له أية فائدة .. هذا ما يحدث دائما .

ترقد سترة من القطيفة الخشنة على ظهر أحد الكراسي . وعلى السجادة إلى جانب كومة من الروايات ، حذاء السفر ، وتنتظر زمزمية جديدة أن تُملأ بالنبيذ الأحمر اللزج المنعش . تدق ساعة الحائط العتيقة النبيلة المصنوعة من خشب الجوز آخر دقات ساعة متأخرة من الليل .

ينهض الرحالة ويجول بالغرفة فيقيم من وضع لوحة على الحائط أو ينحى كتابا جانبا أو يشم زهورا . ثم يتوقف أمام خريطة شبه جزيرة ايبريا ويداه فى جيبى سراويله وحاجباه معقودان على نحو لا يكاد يرى .

يتحدث الرحالة إلى نفسه فى بطء . فى بطء شديد . . وبصوت خفيض كأنه يريد مداراة حديثه .

– أجل . إقليم « القرية » [1] لابد وانه مكان طيب للمشى . . بلد طيب.

بعد ذلك ، سنرى . قد لا أرتحل بعد هذه المرة . يعتمد هذا على الظروف .

يشعل الرحالة سيجارة أخرى – بعد أن كاد يحرق إصبعه بالسيجارة الأولى – ويملأ قدحا آخر من الويسكى .

---

(١) الأصل الإسبانى هو (Alcarria) كلمة عربية الأصل يقصد بها كل ارض مرتفعة ومنبسطة وقليلة العشب عامة ، وهى ايضا اسم علم ويطلق على اقليم طبيعى فى قشتالة يقع معظمه فى مقاطعة «غوادا لاخارا» (وادى الحجارة) وهو أيضا اسم عربى .

– إقليم « القرية » من ناحية مقاطعة غوادا لاخارا (Guadalajara)
أما من ناحية مقاطعة كوينكا (Cuehca) فلا . في كوينكا ، قد أمشي
منطقة غابات الصنوبر ، أو منطقة لامانتشا (La Mancha)بطرقها
البطيئة . من يدرى ؟

يأتى الرحالة بحركةبفمه .

– على أنه لايهم أيضا أن أحيد عن الطريق قليلا ، هذا إذا ما قررت ذلك
على الإطلاق . على أية حال ، ليس للأمر أهمية ، فليس لأحد أن يلزمنى
بشىء ، ولا لأحد أن يقول لى : اذهب من هنا أو اصعد من هناك أو خذ
طريق هذا المنحدر أو هذا السفح او هذا السهل لأنه مستو وهين ا لسير .

يقلب الرحالة فى أوراق المائدة بحثا عن مسطرة مزدوجة ، وحين
يجدها يقترب من الحائط ثانية ويمرر المسطرة على الخريطة والسيجارة
فى فمه ومجعدا ما بين حاجبيه حتى لا يملأ الدخان عينه .

– السير على مراحل ليست بالقصيرةولا بالطويلة ، هذا هو السر .
أمضى فرسخا مشيا وساعة راحة ، وفرسخا أخر وساعة راحة أخرى ،
وهكذا حتى نهاية الرحلة . عشرون أو خمسة وعشرون كيلومترا هى
مسافة لا بأس بها يوميا . معنى هذا أن أقضى النهار فى الطريق . بيد أن
كل هذه المشروعات ما هى إلا أوراق عديمة الفائدة ، فالأمور تنتهى دائما
على أى نحو تستطيعه .

يبحث عن بعض الملاحظات التى كان قد دونها ويراجع مذكرة ثم
يتصفح مرجعا جغرفيا قديما ويبسط على المائدة خريطة للإقليم .

– أجل ، بدون أدنى شك . . إنها الأقاليم الطبيعية . . الأنهار تصل

والجبال تفرق . . إنها الحكمة القديمة وليست ثمة فائدة من وراء أية تقاسيم أخرى .

يشرد الرحالة هنيهة ويأخذ من أحد الأرفف أول كتاب تصل إليه يده :

« تاريخ جليقية » لدون مانويل مورغيا (١) ، مجلد بالكرتون الأحمر ذهب القدم بلونه وهو لايحتاجه فى شىء فى الحقيقة ، لقد أخذه دون أن ينتبه الى ذلك .

– ظريف هذا الكتاب . . فهو كتاب ينضح صبرا.

يغلب النوم الرحالة ، فهو يغفو مرتين بينما يقلب فى صفحات الكتاب، ثم ينتبه مرة أخرى تماما عندما يقرأ أسفل إحدى الصور : كرومليك (٢) (Cromlech) تقع فى بونتس دى غارثيا رود ريغث .

يعيد الكتاب إلى مكانه الأول ويفكر فى أن كتبه فى الحقيقة تفتقر إلى أدنى نظام ، فتاريخ جليقية يقبع بين كتابى علم وظائف الأعضاء والصحة المقرر على المرحلة الثانوية «والشمس تشرق أيضا» لهيمنغواى .

يعود إلى الخريطة .

– المدن سأتجنب دخولها مثلما يفعل الباعة المتنقلون والغجر ، ومثلما يفعل الخنزير البرى ، وحيوان الدلق محترف السرقة .

يحك حاجبه ويقطب جبينه . فهو ليس مقتنعا تماما .

---

(١) مانويل مورغيا : كاتب ومؤرخ معروف وزوج الشاعرة الجليقية الكبيرة روساليا دى كاسترو.

(٢) أثر على شكل نصب تذكارى يرجع إلى ماقبل التاريخ .

- وربما لا . . قد لا أتجنب دخولها . فالمدن يجب دخولها فى ساعة العصر حين تخرج الصبايا للنزهة قبل الغروب .

يبتسم . عيناه شبه مغلقتين كأنه يحلم .

- حسن . . سنرى .

يصمت بعض الوقت ويأخذه الفكر وهو فى حيرة من أمره وفى عجلة . الوقت متأخر .

- يالله !

فى نهاية الأمر ، يفكر الرحالة- الذى يشعر بالتعب فجأة كأنه عصفور جريح - فى أنه لم يتبق سوى أن يبدأ من توه وأنه ربما أسرف فى التفكير فى أمر رحلة ودّ لو قام بها دون إعداد ، جزافا ، وحسبما تسير الأمور .

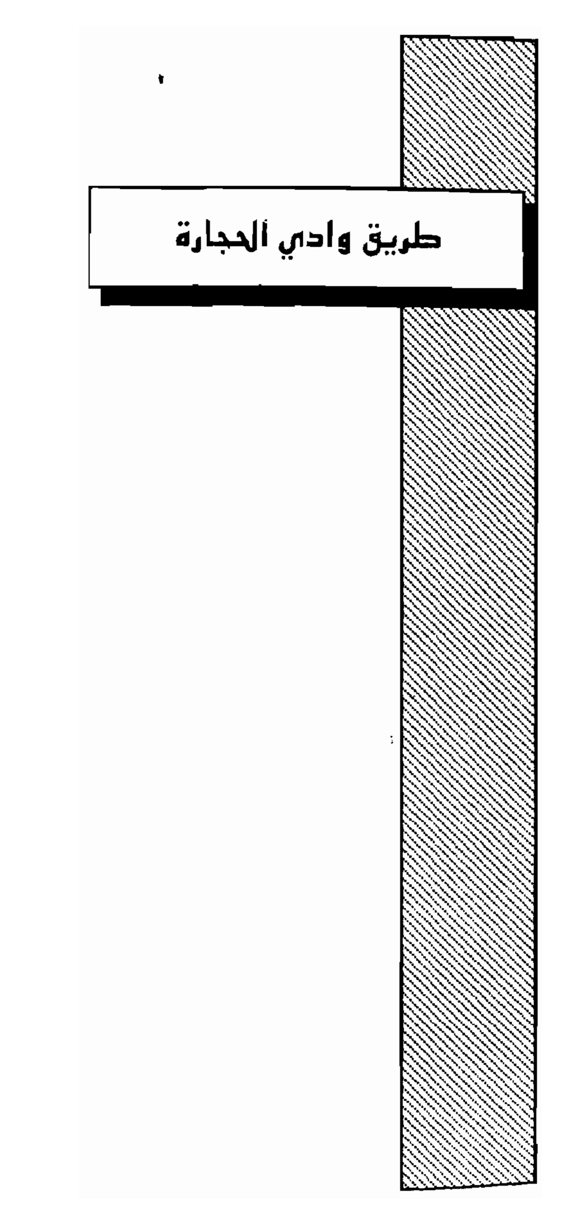
يأتى على آخر جرعة فى الزجاجة .

- لا ، هذا ضرب من الخيال . أفضل الأمور أن آخذ زادى وأشرع فى السير .

ينضو عنه ثيابه ويبسط عليه بطانية من وبر ثم يطفىء النور ويتأهب للنوم على الأريكة Chaise Longue المبطنة بقماش القطن المنقوش .

فى الخارج تسمع من بعيد طرقات عصى حراس الليل على الأرصفة وتتسلل خيوط النهار من خلال شيش النوافذ ، وتمر عربات الروبابيكيا المبكرة بطيئة خدرة .

هاقد غلب النعاس الرحالة فى لحظة مولد النهار ، وكأن اليوم الجديد فرخ يخرج على استحياء من قشرته الدافئة المحطمة .



طريق وادي الحجارة



لعلها كانت ساعة الفجر . . كلا . . لم تكن بعد ساعة الفجر : كان قبل ذلك بزمن . بُعيد أيام ، يستيقظ الرحالة فى الليلة الأخيرة ، أحلك الليالى سوادا . يستيقظ حتى قبل عصافير المدينة الرمادية الصغيرة ، يرتدى ملابسه فى صمت على ضوء مصباح كهربائى . كم من الأعوام مضت دون أن يبكر على هذا النحو ، يد اخله شعور غريب ، شعور بالراحة ، كأنما يكتشف من جديد شيئا كان النسيان قد طواه بغير وجه حق .

وهو يحلق ذقنه فى هذه الساعة بينما ما يزال جميع جيرانه نياما ونبض المدينة – كنبض مريض – يتواتر على وهن كأنه يستحى أن يُحس به .

والرحالة مبتهج . يترنم على وجه التقريب بموسيقى أحد الأفلام ويتكلم بعد ذلك بقليل مع زوجته التى قامت لتعد له الفطور . فالرحالة متزوج . والرحالة المتزوجون ، عندما يتأهبون للرحيل ، لديهم دائما من يسخن لهم الفطور فى الساعة الأخيرة ، ومن يحادثهم بينما يحلقون ذقنهم على ضوء المصباح الكهربائى المهتز عند الصباح .

يهبط الرحالة درج منزله قبل ساعة من قيام القطار . قبل ذلك ، كان قد

ذهب ليودع طفله الصغير الذى يرقد على بطنه كشبل صغير لأنه يشعر بالحر .

– وداعا . تحمل معك كل شىء ؟

– وداعا . أعطنى قبلة . نعم ، أعتقد أنى لم أنس شيئا .

عندما يبلغ الشارع ، يتقدم مرددا أغنية بصوت منخفض فأذنه ليست موسيقية ، والأغانى لا يستطيع إلا أن يبداها . لم يفتح المترو أبوابه بعد ، وعربات الترام البطيئة البعيدة المتهالكة تبدو كأنها حمير عجائز منتفخة صفراء ميتة .

وللرحالة فلسفته الخاصة فى المشى ، فهويرى دائما أن كل ما يطرأ من أشياء إنما هو خير ما يمكن أن يحدث ، والسير على الأقدام هو أفضل الأشياء إذا ما سار فى نهر الطريق متسمعا كيف ترد المنازل صدى مسامير نعاله .

ما زالت نوافذ الدور مغلقة والشيش مسدلا . وراء الزجاج ينام رجال ونساء المدينة ، من يدرى ، أفى شقاء أم فى نعيم ؟ ثمة دور تدل هيئتها على أنها تضم سكانا سعداء ،وهناك شوارع كاملة ذات مظهر نحس كأنما تأوى رجالا بلا ضمير ، تجارا ومرابين وقوادين ومجرمين عتاه لطخ الدم أرواحهم . أحيانا أخرى قد لا تجد فى بيوت حسنى الطالع نبتة نعناع أو ريحان فى الشرفات ، وفى أحيان أخرى تجد بيوت من أغرقهم الشقاء وطبعوا بميسم الحقد واليأس القاسى تتيه شرفاتها بالغرنوق أو القرنفل الأحمر الكبير الحجم كالتفاح . إن وجه المنازل لشىء فى غاية الغموض ، وقد يشغل الفكر فى أمره زمنا طويلا .

ويأخذ المسافر - بعد أن شرع يقلب الأمر في رأسه - طريق أسوار حديقة الرتيرو [1] (El Retiro) ويطل الى بوابة القلعة [2] وهو يرى بوضوح كل ما يفكر فيه وربما بشيء من الغموض كل ما يراه ينهض النهار في تثاقل وفي ارتياب وحذر فوق أسلاك الكهرباء وفوق أسطح المدينة بينما تصرخ العصافير وقد صحت لتوها فوق أشجار الحديقة وكأن مكروها أصابها . وفي الحديقة أيضا تسير على العشب جمهورية القطط الضالة ، دزينتان من القطط الرمادية الجرباء الملعونة ، قطط ليس لها مكان بجوار أية مدفأة ، فتسير في صمت كأنها مساجين بلا أمل في الحياة أو مرضى بلا أمل في شفاء .

ما زالت أبواب المنازل مغلقة كأنها صرر مال بخيلة شقية ، وينظر حراس الليل ، بأشرطتهم الجديدة البراقة ، في ارتياب إلى الرحالة المار في طريقه إلى محطة القطارات وجرابه على كتفه سائرا دون اهتمام بما في ذلك من عدم الاهتمام بمظهره .

ويسير الرحالة ممنيا نفسه بخير الآمال : فهو يفكر في لمس قلوب رجال الطريق والنظر إلى أرواح المسافرين والإطلال على نظراتهم كمن يطل من حافة بئر .

وذاكرة الرحالة ذاكرة قوية ، لذا يريد أن يتخلص من أية نية سيئة - كأنه يتخلص من حمل ثقيل - قبل أن يغادر المدينة . تخرج من صدره وتتدحرج على بلاط الرصيف أبيات دون أنطونيو [3] - أقذر من وجد من الرجال جسدا وأطهرهم روحا حسب مقولة أحدهم

---

(١) حديقة عامة شهيرة فتحت أبوابها للعامة بقرار ملكي في عام ١٨٧٦ .

(٢) أشهر بوابات مدريد . يعود تاريخ بنائها إلى أواخر القرن الثامن عشر .

(٣) أنطونيو ما تشادو ، شاعر إسباني كبير (١٨٧٥ - ١٩٣٩ م) - المترجم .

عند عودتى ، أود لو أستطيع أن أقول الحقائق الصغيرة التى تشرح وحدها كأنها النهر الجارى . فإذا ما أحطت بأناس أعفاء يدخرون شهورا بأكملها - ومن يدرى لعله خلال اعوام كاملة ؟ ليشتروا سجادة صغيرة إلى جانب الفراش ، وددت لو أمكننى أن أردد ، وفى عينى بشاشة وعلى وجهى تعبير استسلام ، هذه الكلمات الحكيمة لدون أنطونيو :

فى كل مكان رأيت

قوافل حزن ،

متكبرين ومكتئبين

سكارى ظل أسود .

ومتحذلقين متخفين

ينظرون،فيصمتون ويفكرون

فى أنهم عارفون لأنهم لا يشربون

خمر الحانات .

أشرار يمشون

فتنبعث من الأرض ريح خبيثة . . .

ما إن ينتهى الرحالة من شعره حتى يصل إلى ميدان لاثيبلس[1] مع أوائل خيوط الصبح المستحية تقوم آخر بنات كباريه لاس ياماس ببيع أنيسونهن الحزين للمعربدين من أبناء الأثرياء القافلين إلى بيوتهم . وهن صغيرات هؤلاء البنات ، صغيرات جدا ، بيد أن فى نظرتهن كل ذلك

---

(١) نافورة مدريدية معروفة

الأسى المتفرد والمقدس ، أسى الحيوانات التى حان ذبحها والتى يحملها سوء الطالع وإثم النفوس من مكان لآخر .

يأخذ الرحالة طريق البرادو (El Prado). تحت أعمدة قصر البريد[1] ، يغط بعض المتسولين القذرين فى نومهم وقد افترشوا الحجر الصلب . وتمر امرأة مسرعة تغطى وجهها فى طريقها إلى أول قداس ، بينما يدخن زوج من الحرس فى سأم وهما جالسان على مقعد وبندقيتاهما بين ساقيهما . وتحمل عربات الترام الليلية السوداء الغامضة سقالاتها الخشبية على العجلات من مكان إلى آخر يقودها رجال بدون زى ويلبسون قلانس ، وهم سكون كالموتى ، ويغطون وجوههم بكوفيات .

– أيضا أود أن أقول – وسعت رحمته كل شىء – الحقيقة الأخرى :

وفى كل مكان رأيت

أناسا يرقصون ويلعبون

عندما يقدرون ويحرثون

أربعة أشبار من الأرض .

فى حياتهم ، إذا جاءوا مكانا

لايسألون إلى أين يجيئون

وإذا ساروا امتطوا

صهوة بغلة عجوز .

---

(١) افتتحه ملك إسبانيا فى ١٩١٩ .

ولا يعرفون العجلة

ولا فى أيام الأعياد

وحيث يوجد خمر يشربون خمرا

وحيث لايوجد خمر يشربون ماء باردا .

هم أناس صالحون يعيشون

ويعملون ويمرون ويحملون

وفى يوم كأى يوم

يرقدون تحت التراب .

عند اسوار حديقة النباتات يحس الرحالة – احيانا يحدث له هذا – برعشة مفاجئة .

يشعل سيجارة ويحاول أن يبعد عن راسه الأفكار الشريرة . يمر اثنان من عمال الترام وأيديهما فى جيوبهما وعقب سيجارة فى فيهما ، لايتلفظان بكلمة واحدة . وينقب طفل عليه أسمال بالية بعصا فى كومة قمامة . عند مرور الرحالة يرفع جبهته وينتحي جانبا متظاهرا بأنه لايفعل شيئا . ويجهل الطفل أن المظاهر خادعة وأنه «تحت عباءة بالية قد يستتر رجل يجيد شرب الخمر» (١) وأنه فى صدر الرحالة ذى المظهر الغريب أو المأثر للسلامة قد يجد قلبا مفتوحا على مصراعيه كأبواب الحقل . والطفل الذى ينظر مرتابا ككلب زجر لايعرف أيضا إلى أى حد يحس المسافر بحنان لانهائى نحو الأطفال الضالين الذين إذا ما انفلق الصبح يفتشون بعصا فى أكوام القمامة الطازجة . . الدافئة . . . العطرة .

---

(١) قول إسبانى يفيد أن المظهر يخدع .

في الطريق إلى المجزر ، تمر نعجات صلعاوات قذرات تحمل حرف B باللون الأحمر على ظهورها ، يسوقها رجال يضربونها بالعصى بين لحظة وأخرى ربما بغرض التسلية ، بينما لاتفتأ النعجات تلعق فى سيرها الأسفلت العقيم القذر وفى نظرتها تعبير يجمع بين الدناءة والغباء.

تنقلب فى منخفض كويستا دى مويانو (Cuesta De Moyano) عربة خضار بهيجة ، وتحتفظ أكشاك الكتب المستعملة فى تكتم كنزها الهائل من الأوهام الواهية التى فشلت – آه ! – دون أن يدرى أحد .

نزولا إلى محطة القطارات تبيع بعض النسوة التبغ والموز وشطائر عجة البطاطس ، ويرى جنود بحقائبهم الخشبية على أكتافهم ، وفلاحون يلبسون قلانس فى سبيلهم إلى منازلهم . وفى الحدائق ووسط ضجة آلاف العصافير ، يسمع تغريد الشحرور الأسود .

فى فناء المحطة ، طابور قطع التذاكر طويل وبطىء وتنام أسرة على مقعد حديدى تحت لافت تقول : «أحذر السرقة » ،وتحيى الرحالة على الحوائط إعلانات عن منتجات قد مضى عليها ٣٥ عاماً ، إعلانات عن أدوية لم تعد موجودة الآن : لصوق مسامى وكلسونات مضادة للبرد ووسائل أتوماتيكية رائعة لمكافحة الصلع .

يشعر الرحالة بشىء من الاختناق عندما يصل إلى رصيف المحطة .

فالقطارات ترقد فى سكون على القضبان السوداء ، ويسير الناس فى صمت كالمروعين ليأخذوا أماكن مريحة لهم فى عربات القطارات المصطفة . وتشع مصابيح الإنارة الواهية ضوءا خافتا على الساحة . بينما يبحث الرحالة عن عربة الدرجة الثالثة يفكر فى أنه يسير فى مخزن كبير

للتوابيت تسكنه أرواح معذبة على أكتافها زادها المزدوج من الخطايا والأعمال الصالحة .

العربة معتمة . وعلى المقاعد الخشبية الخشنة يدخن المسافرون شبه نائمين . من لحظة لأخرى يسمع صوت إشعال عود ثقاب ويُرى بريق طرف سيجارة لعدة ثوان يضيء وجها محمرا وغير حليق . يجلس عدد من العمال ، كل سترته على كتفه وسلة شطائره ملفوفة فى منديل على ركبتيه .

يصعد القطار نفر من الصيادين تتدلى من أكتافهم سلال الخيزران ويبحثون فى عناية عن موضع لشصوصهم الطويلة . وتدخل نسوة يحملن سلالا كبيرة على أذرعهن . . فلاحات نزلن مدريد ليبعن البيض وسجق الخنزير وليبتعن قطعة قماش منقوشة لعمل فستان أيام الآحاد أو ليشترين قبعة لأزواجهن . ويأخذ اثنان من رجال الحرس المدنى مكانيهما احدهما قبالة الآخر فى ركن الديوان القريب من الباب ، تحت جرس الإنذار وتحت اللوحة الخزفية المدونة عليها لائحة السكك الحديدية.

تطفأ أنوار الرصيف ويصير الظلام تاما . ويثب إلى القطار فى اللحظة الأخيرة جنود الخيالة المتجهون إلى الكلاه دى إينارس (Alcalá De Henares) والذين يقطعون نفس هذه المسافة يوميا .

يقوم القطار ، فالساعة الآن السابعة ، وعندما يترك مظلة المحطة يكتشف الرحالة فجأة أن النهار قد طلع . وكان قد غادر المحطة فى آن واحد قطاران يسيران فى تواز إلى أن ينعطف أحدهما ناحية الجنوب فى طريق ختافى (Getafe) . تبعث البهجة رؤيتهما فى سيرهما وأحدهما فى موازاة الآخر بينما يتزاحم الركاب فى النوافذ ليرى كل فريق منهم

الفريق الآخر ، فيتصافح بعضهم بالأيدى ويصرخون كأنما يستحثون القطار على الجرى على نحو أسرع .وحقيقة الأمر – لا أحد يعلم لِمَ ؟ – أن ركاب أى قطار دائما مايداخلهم شيء من الغيرة نحو ركاب أى تطار آخر ، وهو شيء يحدث ولكن يصعب شرحه . قد يكون – السبب هنا غير واضح – لأن أى راكب درجة ثالثة يود لو استبدل تذكرة راكب آخر حتى ولو كانت درجة ثالثة أيضا .

تسطع فوق المدينة سماء متوردة قاسية مصقولة كالمرآة ، سماء بدت كأنها من الزجاج الملون . على مدى وقت طويل ، يسير القطار بين القضبان وأكوام الفحم ، وترى ماكينات لم تعد تستعمل ، قاطرات عتيقة احيلت إلى التقاعد تشبه الجياد الميته فى المعارك قد تركت لتجف فى الشمس .

فى إحدى العربات الواقفة بمعزل عن القطارات احتشدت خمس عشرة بقرة سوداء ذوات قرون طويلة وأضرع مشعرة ضئيلة الحجم تنتظر فى صبر خنجر النحر وسكين استنزاف دمائها . يفكر الرحالة فى أن هذه الحيوانات ربما يقتلها الظمأ ، فهو لايعرف فى الحقيقة ما بها .

وتلوح الشمس فى الأفق عند مرور القطار بآخر تحويلة وبآخر اشارة ضوئية بالمحطة . فى هذه الساعة لم يخرج الأطفال بعد للعب فى الأحياء النائية . عن بعد تمكن رؤية مرتفع لوس انخلس [1] (Los A´ngeles) وحيدا . لاتبدو تلك ضواحى مدريد ، فالحقول خضراء والعشب نام : بين حقلين مزروعين وآخر مهمل ، وثالث تتمايل فيه شقائق النعمان فى رفق مع نسائم الصبح العليلة . يسير القطار الآن فى طريقه الحديدى المفتوح فى الوقت الذى يترك فيه الرحالة النافذة ويجلس ليشعل سيجارة ويلقى برأسه الى الخلف .

---

(١) ضاحية قريبة من العاصمة .

عند المرور بمحطة بايكس (Vallecas) يهتز هواء الديوان الساكن بحدة ، ويعرض رجل يرتدى سترة « سبور » أرجوانية اللون ومنديلا حول رقبته وله سن ذهبية .. يعرض صارخا أوراق لعب تحمل أرقاما فى الظهر .

– جربوا حظكم ياسادة . الجائزة صندوق ممتاز من الطوفى أو كيس لوز . . اختاروا . . بخمس سنتيمات ورقة اللعب . . بعد ذلك وتقديراً للجمهور الكريم سأجرى قرعة على الدمية مانوليتا هذه اللعبة الفريدة .

يريد الرحالة أن يجرب حظه فيشترى عدة أوراق ويبقيها فى يده ويلعب فى تردد ، ففكرته عن اللعب محدودة . يرفع رأسه . وينظر من النافذة . فى الأفق ناحية الشمال ، سلسلة جبال غوادارما وبعض مرتفعاتها – لاماليثيوسا وبالدمارتين ولاس كابيثس دى إيرّو – لاتزال مغطاه بالجليد .

قال الرجل ذو السن الذهبية كالعادة إنه يحتاج ليد بريئة للسحب ثم كشف ورقة اللعب .

– السيفان . . (١) أين ورقة السيفين ؟ ياترى من المحظوظ ؟

لم يحالف الرحالة الحظ فقد أنفق ريالين فى ولد وجواد وملك . كانت ورقة السيفين مع رجل لم يكلف نفسه مشقة الابتسام . فهو يأخذ صندوق الحلوى دون أن ينظر إلى أحد .

---

(١) يقصد هنا ورق اللعب الإسبانى المكون من أربع مجموعات أساسية : العصى والسيوف والذهب والأقداح . – المترجم .

يفعل ذلك بفتور كأنه يريد أن يعطي انطباعا بأنه اعتاد تلقى الأنباء الهامة دون أن يحرك ساكنا . وينظر إليه كل الركاب ، وربما فعل أحدهما ذلك بإعجاب . . يالها من طريقة للتغلب على الموقف !

يشعر الرحالة بأنه مضطر هو أيضاً لأن يجد لنفسه مخرجا طيبا ثم يداخله إحساس مفاجيء فيرفع صوته :

– أعطنى كل الأوراق التى تحمل رقم ثلاثة ، فرقم ثلاثة سيربح !

قرب بيكالبرو (Vicálvaro)مر المفتش وثقب التذاكر .

– هكذا يكون الكلام : هذا السيد سيربح الجائزة بعشرين سنتيما فقط . فلتذهب اليه كل أوراق الثلاثة .

يقلب الرحالة عينه وينتظر ، فهو مطمئن إلى فوز ورقة الثلاثة بعد قليل ، ويفكر فى أن يرد عندئذ مقاطعا لاتكمل فمعى الأوراق الأربع. على يمين الطريق ترى تلالا خضراء وشعابا طينية حائلة إلى الحمرة . يقرأ أحد رفاق السفر مجلة أسبوعية متخصصة فى مصارعة الثيران ، ويطير زنبور صعودا وهبوطا على زجاج النافذة .

يدوى صوت الرجل ذى السترة الأرجوانية فى عربة القطار :

– ورقة سبعة الأقداح : من معه ورقة سبعة الأقداح ؟

يرتعش الرحالة من قمة رأسه الى أخمص قدميه ويشعر أن قلبه يدق بعنف وقد جف حلقه وضاقت فتحة عينه . يخشى أن تتجه جميع الأنظار إليه وأن تنشب فيه كالسهام ، فيبتسم بخبث مصطنع كأنه يقول: أين خبأت أوراق الثلاثة ؟

ويفكر الرحالة دون أن يدرى لِم ، ربما لداعى التسلية ، فى مياه نهر

تمر تحت جسر ، وعندما يفتح عينيه شيئا فشيئا يكتشف أن لا أحد ينظر إليه .

يهبط الصيادون فى سان فرناندو دى خاراما (San Fernando De Jarama)معلقين شصوصهم على الأكتاف كأنها بندقية ويسيرون واحداً تلو الآخر فى طريق ضيق يوصلهم إلى النهر .

على الجانب الآخر ، ترى ثيران المصارعة سوداء . . منفردة . . صامته . . سمينه . . براقة . . تفيض جلالا . السماء نقية شفافة والريف وضاء كأنه كارت بوستال بقمحه الأخضر وأزهاره الحمراء والصفراء والزرقاء .

فى توريخون دى أردوث (Torrejón De Ardoz)يضع أحد عمال المحطة على عينه نظارة شمس ، فهو رجل متحضر . ويُنتبه الرحالة إلى أن كلمة أردوث (Ardoz)وكلمة شمس (Sol)متجانستان صوتيا .

حينئذ يتفكر برهة ثم يقول من بين أسنانه :

تقف عربة الدرجة الثالثة

أمام الـ .W .C

وعلى لافتة يقرأ ماياتى : توريخون دى أردوث

وعلى الرصيف يمشى

بنظارته الشمسية

وبقبعته

عامل المحطة .

يضحك الرحالة خفيضا . يصعد إلى القطار بعض العمال بدواكأنهم من الهنود الحمر ، تمتلىء وجوههمْ بأخاديد غائرة كأنها آثار طعنات وشعرهم أسود متلصق بجباههم ،ويصعد أيضا رجل بدين له هيئة الاشتغال فى الموالدو الأسواق ويدخن سيجارا . تمام السابعة والنصف صباحا . يفسح الرحالة للرجل البدين مكانا بجانبه .

– شاكر !

– عفوا !

يخلع الرجل قبعته ويمسح على رأسه بمنديل .

– سيكون اليوم قائظا .

– أجل .

– إلا إذا هبت زوبعة ...

ينفخ الرجل بينما يحاول الاستقرار فى وضع مناسب ثم يخرج السيجار من فمه وينظر إليه .

وللرجل أسنان بلون التراب وهى كبيرة كأسنان الحمير .

– وهذا ما أقوله ، نحتاج إلى زوبعة .

– أجل ، أجل .

يخرج دفتر ورق تبغ وينحى منه ورقتين أوثلاثا ويلصق بها السيجارة.

– هكذا أفضل ..

– بالطبع .

– لأنى إذا لم أفعل ذلك لا أستطيع شد النفس . هذا النوع من السيجار غالبا ما يكون رديئا .

قدما الرحالة تؤلمانه منذ أن خرج من مدريد . إنه الحذاء الجديد . أحيانا يؤلمه وأحيانا يسبب له فقاعات فى قدميه . يقلب فى جرابه ويخرج زوجا آخر من القماش بنعل من القنب .

– يبدو أن قدميك ليستا على مايرام .

– أجل . إنهما لتؤلماننى قليلا .

– طبعا ، إنه الحذاء الجديد .

– أجل ، على رأى المثل ...

ينظر رجل السيجار إلى الرحالة وكأنه سيهم بسؤاله : أى مثل ؟ بيد أنه فى النهاية لايقول شيئا .

فى الممر ، يسير رجل آخر يدخن سيجارا أيضا وبيده حقيبة أوراق . له هيئة ممرض وهو شاب مهندم يرتدى قميصا مخططا طوليا باللونين البرتقالى الزاهى والأبيض .

عند ألكلاه دى ايناريس ، يمر القطار بسور المقابر . وكالعادة يطفو قليل من الضباب فوق صفحة النهر . يهبط هناك عدد كبير من الركاب ويبقى القطار خاويا تقريبا ، فقد هبط منه الصيادون الذين لم يهبطوا فى سان فرناندو ،وجنود الخيالة والرجال ذوو القلنسوات السوداء والنسوة الممتلئات العنيفات ذوات الشوارب اللائى كن يحملن سلالا .

ثمة آنسة شقراء تدل هيئتها على أن اسمها راكيل أو إسبرانثيتا أو أى شىء من هذا القبيل ، شعرها ملىء بالتمويجات وبمثبت الشعر

وترتدى قميصا من الصوف ذا خطوط أفقية باللونين الأخضر والأحمر، تداعب أحد رجال الحرس المدنى الشباب له شارب مشذب بنظام على حد قول الحلاقين . فى بيت الرحالة بمدريد صورة من فرنسا عنونها : « الحب والربيع » .

على الرصيف يمر شحاذ ملتح يجمع أعقاب السجائر اسمه ليون يلبس حذاء من قماش القنب لونه أزرق سماوى يقول له أحدهم : تعال ياليون فأنا أحبك كثيرا . هل لك فى سيجارة ؟ ثم عندما يقترب منه ليون يصفعه صفعة تدوى كضربة السوط . يضحك الجميع بينما ليون ، الذى لايتفوه بكلمة وتنضح الدموع من عينيه كأنه طفل ، يذهب فى صمت مطأطئا رأسه ثم لايلبث أن يعاود الانحناء بعد حين ليلتقط عقب سيجارة. عند نهاية الرصيف ، ينظر الى الخلف . ليس فى عينيه حب ولاكراهية فتبدوان كعينى أيل محنط أو ثور عجوز يائس ولايزال الدم ينزف من أنفه .

فى مِكو (Meco) تنتظر عربة ألبان عند المزلقان حتى ينتهى القطار من المرور ، وتحمل نسوة متشحات بالسواد دلاء ماء . مايزال الريف خضرا مزدهرا . يأكل الرحالة ثمرة مشمش أخرجها من جرابه .

– تفضل .

– بالهناء والشفاء .

ليس لرجل السيجار فعلا مظهر من يحب المشمش .

عند أثوكيكا (Azuqueca)، تحرث أربعة بغال الأرض . وحسب مقولة العم مدخن السيجار ، يطلق على أهل أثوكيكا لقب « الدجاج الراقد على البيض » لانهم أحضروا مرة دجاجة وأرقدوها على اثنتى

عشرة بيضة ورغم الجهد الجهيد الذى بذلوه لم يستطيعوا إخراج ثلاثة عشر فرخا من الاثنتى عشرة بيضة .

يسير القطار بمحاذاة نهر الإينارس حتى وادى الحجارة فينهب الارض نهبا ، وكأنه في عجلة من أمره ، وقبل أن يصل الي محطة وادي الحجارة بقليل يحمل الركاب امتعتهم ويتواترون عند الأبواب وفى الممرات . يهبط الرحالة أخر الركاب فهو منجز مهمته سواء أتأخر أم تقدم ربع الساعة فى مغادرة القطار ، وبوسعه ألا ينجزها على الإطلاق ، لن يحدث شىء .

يرفع الرحالة زاده على ظهره ويعلق الزمزمية فى وسطه ويجدّ فى طريقه صاعدا إلى قلب المدينة . يعبر نهر الإينارس الذى يهبط عكرا ومحملا بالطمى ويمر أمام ثكنة عسكرية . يتطلع إليه بعض الجنود الجلوس عند الباب حين يمر أمامهم . وعندما يصل منازل المدينة على يسار الطريق يدخل حانة ليروى ظمأه . وللحانة اسم جميل . تسمى : أفضل ما فى العنب .

يترك حاجياته فى مقهى قريب من محطة الحافلات ويذهب إلى مكتب التلغراف ليرسل برقية لزوجته . تشير الساعة ماركة(Electrigue Brillié) المدلاة بسلاسل مذهبة فى وسط الصالة إلى التاسعة وعشر دقائق . يشترى الرحالة الصحف عند عودته للمقهى من طفل صغير عليه أمارات الذكاء كأنه فأر موهف .

– ماعمرك ؟

– خمس سنوات ونصف .

– ما اسمك ؟

– باكو.لخدمة الرب وخدمتك .

– تبيع جرائد كثيرة ؟

– نعم ياسيدى ، أبيعها كلها . فى الثانية عشرة عادة أكون قد فرغت منها كلها ، اتعلم ياسيدى ، فى العام الماضى لم تكن الحال كالآن فقد كنت أصغر سنا ولم أكن أجيد السعى .

يقرأ الرحالة الجرائد بينما يتناول فطوره للمرة الثانية ، ثم يخرج للنزهة فى المدينة . يجب أن يحول شيئا من المال فى البنك .

يرقد تصر دوق الدائرة الأميرية مكوما على الأرض . إنه لشىء مؤلم. لابد وأن كان قصرا رائعا فهو كبير كدير أو كثكنة عسكرية . وسط الطريق ، يمر أبله وجهه ملىء بالبثور وبيده طاقية صفراء . يمضى مسرعا فرحا متفائلا لايتمالك نفسه من الضحك ويفرك يديه فى بهجة . إنه أبله سعيد تغمره البهجة . يدخل الرحالة حانوتا يبيع كل شىء .

– ألديكم أى شىء تقليدى هنا ، أى شىء يمكننى أن أحمله معى كتذكار من وادى الحجارة ؟

– شىء تقليدى تقول ؟

– نعم .. هذا ما أقول .

– لا أعرف .. إلا إذا كنت تسأل عن « الكعك السكران »(١) !

---

(١) نوع من الكعك شائع فى أسبانيا – المترجم .

يدخل الرحالة محلا صغيرا للمصنوعات الجلدية تفوح منه رائحة جلد وشحم وصاحبه منتفخ تغذى جيدا فلا متسع له تقريبا بالداخل . يبتاع الرحالة سرجا من الجلد .

– هل هو لبغلة ؟

يتردد الرحالة لحظة .

– نعم ياسيدى .. لبغل برتغالى هو جوهرة . أريد أن أعد له طاقما جيدا . سوف أهديه للقس عم زوجتى . أتعلم ؟ فى بلدتى يركب القساوسة البغال . ليس كالحال هنا حيث يركبون الحافلات . ويدعى عم زوجتى روسندو وقد أصبح قسا بمعاش ، ولقد سمى بغلة كبيتان . مؤخرا ، عرضوا علىّ ضعف ثمنه .

عندما ينتهى الرحالة من خطابه يلتفت إلى أنه ماكان فى حاجة إلى الكذب على هذا النحو ، فالبائع لم يستمع إليه تقريبا .

– هذا السرج جيد . إنه أفضل ما عندى .

– عظيم فليكن هذا إذاً .. من فضلك ، هلا نقشت عليه التوقيع والتاريخ حتى يرى عم زوجتى أنى لاأخادعه وأنى حقيقة اشتريته من وادى الحجارة ؟

– حسن ! يالويسيتو ، يالويسيتو !

من المخزن يأتى صوت واهن لطفل .

– فى الحال !

– اسمع يابنى ، وقع فى هذا المكان ، إنه لهذا السيد .

ينظر الطفل إلى الرحالة ويخرج الريشة والحبر من أحد الأدراج ، ويخط جميل لخطاط مبتدىء يكتب فى ظهر السرج على الجلد الخشن : كاسامونتس – وادى الحجارة – السادس ن يونية ١٩٤٦ (١) .

(١) فى الثالث من أكتوبر ١٩٥٩ نشرت صحيفة القرية الجديدة نعى السيد دانييل مونتس مورينو ، حرفى . وهو صاحب محل الجلود الذى ابتاع منه الرحالة سرجالبغل القس عم زوجته .

من نهر الإينارس الي نهر التاخونيا



٢

يخرج الرحالة من وادى الحجارة إلى طريق سرقسطة(Zaragoza) سيرا على قدميه بمحاذاة النهر . الوقت ظهر والشمس الحارقة تسقط عمودية على الطريق . ويسير الرحالة إلى جانب الطريق ، على التراب ، فالأسفلت صلب وساخن ويفسد الأقدام .

يمر بمطعم صغير خارج البلدة له اسم موح ورّنان ، يسمى المطعم : أسرار طنجة . قبل ذلك ، كان الرحالة قد دخل محل خضار ليشترى طماطم .

– أعطينى ثلاثة أرباع كيلو طماطم .

– ماذا ؟

بائعة الخضار صماء تماما .

– هلا أعطيتنى ثلاثة أرباع طماطم ؟

لاتحرك البائعة ساكنا . تبدو غارقة فى التفكير .

– مازالت خضراء .

– لايهم ، أريدها للسلطة .

– ماذا ؟

– لا بأس بها .

من المحتمل أن تفكر بائعة الخضار أن من واجبها الا تبيع الطماطم خضراء .

– أذاهب أنت إلى سرقسطة لوفاء نذر ؟

– كلا ياسيدتى .

– ماذا ؟

– لا ، لا .

– من قبل ، كان الكثيرون يذهبون إلى سرقسطة وكانوا يحملون أيضا امتعة تدلت منهم .

– كان ذلك من قبل ياسيدتى . هلا أعطيتنى ثلاثة أرباع كيلو طماطم ؟

لا يستطيع ان يصرخ بأكثر مما يفعل فقد جف حلقه . من أجل ثمرة طماطم كان على استعداد لأن يدفع حتى خمس بزتيات . يتكدس بباب محل الخضر أطفال يرمقون الرحالة بنظرهم ، وهم أطفال تباينت أحجامهم وألوان شعر رؤوسهم ، أطفال لايتكلمون ولايتحركون وإنما ينعمون النظر – كالقطط – دون أن يطرفوا بعيونهم .

ينبه طفل أحمر الشعر ووجهه ملىء بالنمش الرحالة :

– إنما صماء

– هذا ماأراه يابنى .

يبتسم الطفل .

- أذاهب إلى سرقسطة لوفاء نذر ؟

- لايامـلاكى لست ذاهبا الى سر قسطة .. هل تعرف أين يمكننى شراء ثلاثة أرباع كيلو من الطماطم ؟

- أجل ياسيدى ، تعال معى .

يخرج الرحالة بحثا عن الطماطم بصحبة عشرين أوخمسة وعشرين طفلا ، يركض بعضهم بضع خطوات حتى تتسنى له رؤية الرحالة جيدا أوليسير دائما بمحاذاته . البعض الآخر يصيبه الملل ويتخلف عنه فى الطريق . وتسأل امرأة بباب دارها الأطفال بصوت خفيض : ماذا يريد ؟ فيرد الطفل ذو الشعر الأحمر الكثيف مسرورا : أبداً ، نبحث عن طماطم ! ولكن المرأة لا تكتفى بهذا الرد وتعاود الكرّة : أذاهب هو إلى سرقسطة ؟ فيلتفت الطفل إليها ويجيبها بجفاف يشبه الاستياء : لا ، الايذهب من هنا إلا إلى سرقسطة ؟

مرورا أمام المطعم يشعر الرجل الذى لن يذهب إلى سرقسطة كأنه غريق أخرج لتوه من بركة ماء . يسير وإلى جانبه مساعده ذو الشعر الزعفرانى اللون .

كان الطفل قد سأله : أتسمح ياسيدى أن أرافقك بعض الهكتومترات ؟

ولما كان الرحالة يكن إعجابا لاحدود له بالأطفال متصنعى الكلام فقد أجابه :

- حسن، أسمح لك أن تصحبنى عدة هكتومترات .

ويتوقف الرحالة ليغتسل عند جدول ماء فى الطريق المؤدى إلى سرقسطة .

الماء بارد منعش وصاف كعين الديك .

– ماء شفاف ، أليس كذلك ؟

– بلى ياولدى . إنه لشديد الشفافية .

يخلع الرحالة عنه جرابه وينضو الثياب عن نصف جسده . يجلس الطفل على حجر ليشاهده .

– لست مشعرا .

– كلالست مشعرا .

يجلس الرحالة القرفصاء ويبدأ الاغتسال مبللا يديه .

– أذاهب الى مكان بعيد ؟

– حسنا ليس بالبعيد جدا ، ناولنى الصابون .

يفتح الطفل علبة الصابون ويعطيها له . هو طفل مراع للذوق .

– لك الله إذا ذهبت بعيدا . ، فى هذا القيظ .

– أحيانا يشتد القيظ عن هذا . أعطنى المنشفة .

يناوله الطفل المنشفة .

– هل أنت من مدريد ياسيدى ؟

يقرر الرحالة أن يبدأ بالهجوم بينما يجفف جسده .

– كلا ، لست من مدريد ..ماأسمك ؟

– أرماندو ! فى خدمتك ، أرماندو مدندخر لوبث .

– ماعمرك ؟

- ثلاثة عشر عاما .

- ماتدرس ؟

- أنا خبير .

- خبير ! فى ماذا ؟

- أنا خبير .. خبير .!

- ماوظيفة أبيك ؟

- يعمل فى المجلس الإقليمى .

- مااسمه ؟

- بيو .

- ماعدد إخوتك ؟

- نحن خمسة : أربعة أولاد وبنت واحدة . أنا أكبرهم جميعا .

- هل جميعكم شقر ؟

- أجل ياسيدى . لنا جميعا شعر أحمر حتى أبى .

تغمر الصبى مسحة حزن غامضة ، فودّ الرحالة لو لم يسرف فى السؤال . يفكر قليلاً بينما يحفظ المنشفة والصابون ثم يخرج من جرابه الطماطم والخبز وعلبة (Foie - Gras)ثم يسأل :

- هلا أصبنا حظا من طعام ؟

- حسن . كما تشاء .

يحاول الرحالة أن يتلطف مع الطفل الذى تعود إليه شيئا فشيئا سعادته قبل أن يقول «أجل ياسيدى لنا جميعا شعر أحمر حتى أبى »، ويحكى

الرحالة للطفل أنه لايذهب إلى سرقسطة وأنه سوف يقوم بجولة فى أقليم القرية ، كما يقص عليه أيضا من أى مكان هو وما اسمه وعدد إخوته . وعندما يحدثه عن ابن عم له بعينه حول ويقطن مالقة ويدعى خينارو لايتمالك الطفل نفسه من الضحك . بعد ذلك يقص عليه اشياء عن الحرب فيستمع إليه الطفل فى اهتمام وشغف وقد اتسعت حدقتاه .

– هل أصابوك بأى عيار نارى ؟

صار الرحالة والطفل صديقين حميمين ويطول الحديث بينهما حتى إذا ما وصلا إلى الطريق المؤدى إلى إيريبال (Irnépal)ودعه الطفل قائلا :

– علىّ أن أعود أدراجى ، فأمى تلزمنى بأن أكون فى الدارفى ساعة العصر .. علاوة على أنها لاتحب أن آتى حتى هنا ، ولطالما حذرتنى من ذلك .

يمد المسافر يده إلى الطفل الذى يتجنبها .

– يدى ليست نظيفة ياسيدى .

– هيا لاتكن أحمق ، فيم يهم ذلك ؟

ينظر الطفل إلى الأرض .

– كل ماهنالك أنى أمضى كل الوقت وإصبعى فى منخارى .

– وما أهمية ذلك ؟لقد رأيتك . أنا أيضا أحيانا أدخل إصبعى فى منخارى ، ما ألذ ذلك الإحساس أليس كذلك ؟

– بلى ياسيدى ، إحساس لذيذ .

يجدّ الرحالة فى سيره ويبقى الطفل على حافة الطريق ناظرا إليه . ينظر المسافر خلفه ويودعه الطفل ملوحا بيديه . فى وهج الشمس يسطع شعره كأنه من نار، فللطفل شعر جميل وضاء ساحر ولكنه يعتقد عكس ذلك .

ارماندو موندیخر لویث

طفل عنده فضول

له شعر أحمر بلون الفلفل الأحمر

(جف البرتقال

واصفرّ الليمون .

يبكى البطيخ

ويضحك الشمام) .

أرماندو منونديخر لويث

واقف فى الشمس

وتتوهج فروة رأسه

كما يتوقد قلبه .

ويضىء فى نظرته

الأمل شيئا فشيئا .

لون شعره أحمر

بلون الفلفل الأحمر .

بعد أن يمشى قليلا ، يجلس الرحالة ليصيب شيئا من الطعام فى منخفض على مقربة من حقل زيتون .

يشرب بعد ذلك جرعة من النبيذ ويفرد بطانيته ويتمدد لينام القيلولة تحت شجرة . من حين لآخر تمر فى الطريق دراجة أوسيارة حكومية . عن بعد ، يغنى راعى غنم جالس تحت زيتونة وتتكوم الشياه بلا حراك

يقتلها الحر . يشاهد الرحالة المستلقى على بطانيته عن كثب حياة الحشرات التى تندفع فى سرعة من مكان إلى مكان ثم تتوقف فجأة وهى تحرك قرونها الطويلة الدقيقة فى سمك الشعرة فى إيقاع منتظم .

الريف أخضر وبديع النظام ، تنبت الزهور البرية الصغيرة – الخشخاش الأحمر والأقحوان الأبيض وزهور الحرشف الزرقاء والأزرار المذهبة لنبات الزر الذهبى – على حافتى الطريق بعيدا عن الحقول . تمر بعض الفتيات اللائى يزين قبعاتهن الخوصية العريضة بأغصان من القنطريون ،ويلبسن مآزر من القماش المنقوش ،ويسرن فى خفة ورشاقة وملاحة كأنهن إناث اليخمور .

يشاهدهن الرحالة وهن يغبن عن بصره ثم يغلق عينيه فهو يفضل النعاس وفى ذاكرته آخر شعور سار مر به : لقلاق يطير أو طفل يغطس فى ماء آسن بجدول ، أو نحلة تنهل من إحدى زهور الشوك ، أو امرأة صغيرة تسير فى مطلع الصيف وذراعاها عاريان وشعرها مسترسل على كتفيها .

ويفكر الرحالة ، الذى عاد مرة أخرى إلى الطريق بعد أن تجدد نشاطه، فى أشياء كان قد أهملها طيلة أعوام ويحس وكأن تياراً من الهواء نفح قلبه خفة .

وما إن يصل إلى تاراثينا (Taracena)حتى يملأ زمزميته بالنبيذ الأبيض .

فى أرض بلون الأرض

نضبج طفح جلدى .

تحت شمس تاراثينا

تتعلق الْحياة بخيط.

ليس فى تاراثينا نبيذ أحمر نبيل كدم الحيوانات ولامعطر وعتيق كتاريخ أسرة رهيبة . وليس فى تاراثينا فندق ولانزل ، بل ثمة حانة رطبة نظيفة رشت أرضيتها الترابية بالماء لتوها . وللقائمة على أمر الحانة صبية مجتهدة فى العاشرة من عمرها تستيقظ وحدها ساعة القيلولة لتذهب إلى المدرسة .

وتاراثينا قرية من الطوب اللبن ذات لون سنجابى فاتح ، لون رمادى وتبدو مُغطاه بالتراب ، تراب دقيق جداً ورقيق كتراب الكتب الراقدة طيلة أعوام على الرّف دون أن يمسها أويضايقها أحد .ويتذكر الرحالة تاراثينا خاوية على عروشها فلايرى مخلوقا . ويلعب طفل فى حر الرابعة مساء ببعض نوى المشمش بلا أدنى رغبة فى اللعب ، وتصطلى عربة تجرها البغال بنار الشمس وسط ميدان صغير ،وينقر بعض الدجاج أكواما من الروث ، وتتوهج كالجليد بعض القمصان المغسولة بعناية والمتيبسة الخشنة كأنها من الكرتون .

يتحدث الرحالة مع صاحبه الحانة

– هل فى القرية ماء ياسيدتى ؟

– نعم ياسيدى ، ماء كثير .. وطيب . لدينا هنا نفس ماء العاصمة وبأية كميات نحتاجها .

يخرج الرحالة مرة أخرى إلى الطريق . ولما كان هذا أول أيام رحلته فهو يحس بساقيه مكدودتين ومتثاقلتين . تطل المرأة من الباب لتودعه .

– وداعا وليحالفك الحظ . أذاهب إلى سرقسطة ؟

– وداعـا ياسـيـدتى وشـكرا لك . لا ، أؤكـد لك أنى غـيـر ذاهـب إلى سرقسطة .

يفكر الرحـالة فى أمـر الوداع بين رجال الطريق ويراه توديع أناس لن يعاود رؤيتـهم أبدا فكلمة وداعا أو ليحـالفك الحظ تقولها الفـلاحة أو امرأة الحـانة أو الغسـالة أو سـائسة البغال أوراعـية الغنم هـو وداع إلى الأبد .. إلى نهـاية العـمـر ، وهـو وداع – دون أن ندرى – مـفـعم بـالألم : كلمة وداعـا فليحالفك الحظ تبذل فيها الروح والحواس الخمس .

على بعـد نصف فـرسخ إلى الأمـام وعندمـا يتـفـرع طريق مـؤد الى تورتولا(Tortola) وفونتانار (Fontanar)، يلحق الرحالة بعربة كارو. علم الرحالة فـيما بعد – فى ثيفونتس (Cifuentes)، القـرية التى تعلم فـيـهـا أشـيـاء كـثـيـرة – أن أهل تورتولا يـسـمـون أعـراب القـرية وأن أهل فونتانـار يسمون Troncheros(من فلـق يفلق فـالق) لأنـهم فى إحـدى المرات وضعوا فلقة كرنب بدلا من عين تمثال سان ماتياس قديس القرية.

تأخـذ سائق العـربة من حين إلى حين سنة من نوم فـيخـرج البغـلان إحدى عجلات العربة لتمر فوق الحجر المكوم على حافة الطريق فيستيقظ السـائق ويقـذعـهمـا بالسـبـاب ويعـيد العربة إلى نهر الطـريق ثم يخلد إلى النعاس مرة أخرى .

– مساء الخير .

– ومساء قائظ أيضا .

– أتسير على مايرام ؟

– أجل ، لابأس به من سير ، تفضل بالركوب إن شئت .

– حسنا ، أفعل إذا صممت ...

يوقف السائق البغلين ويقفز الرحالة إلى ظهر العربة . وللعربة مظلة منخفضة من الخيش تسبب حرا خانقا . يدعو الرحالة السائق إلى جرعة نبيذ .

– نبيذ طيب .

– لابأس به . ابتعته هناك ، فى تاراثينا .

بعد ذلك يشعلان سيجارة فلا تهتز شعلة القداحه قيد أنملة . وتنقل عربة الكارو أبوابا من الخشب وسريرا من الحديد . ليس فى إمكان الرحالة أن يعدل من وضعه ، فساقاه مطويتان ورأسه الى الوراء وقد توسدت جرابه ،

– إلى أين تذهب ياسيدى .

– إلى تريخويكى(Trijueque) احمل كل صباح الحطب إلى وادى الحجارة أذاهب أنت بعيدا .

– لا . سأهبط فى توريخا (Torija).

– وغدا ؟

– غدا ، لى شأن آخر .

يعمل سائق الكارو الفكر لوهلة .

– إذاً ما أطول هذه المسافة سيراً على الاقدام .

– أجل ، أجل .

وسائق الكارو رجل شاب ضئيل الحجم لوحته الشمس . اسمه مارتين دياث وهو من مواليد تريخويكى . ما إن تتوطد ثقته بالرحالة حتى

يقدم له بصلا وخبزا أبيض .

– هذا مفيد للدم .

يمر فى الاتجاه المعاكس شيخ يمتطى بغلة شهباء أرجلها رفيعة ومتنها قصير ويغطى الرجل رأسه وظهره بعباءة .

– بغلة طيبة .

– هذا مايبدو .

ومارتين دياث سائق كارو صبور ومتفائل ويرى أن كل شىء على ما يرام دائما . . فمن تريخويكى إلى وادى الحجارة والعكس ، تعلم أن يرى الجانب الطيب من الأشياء .

– هذان البغلان اللذان أسوسهما أصبحا متعبين قليلاً ولكنهما مازالا يقومان بالعمل على خير وجه .

ينظر مارتين إلى بغليه .

– اشتريتهما بثمن بخس ،والآن ارتفع سعرهما كثيرا فأية بغلة اليوم تساوى ثروة .

ينظر الرحالة إلى البغلين فى سعيهما ،وحينما يشد عنانهما فى المطالع ويرتخى عند الهبوط كأنه يستريح ، يحرك البغلان أذنيهما فى سيرهما فى اتساق ويسمع صوت الأجراس البرونزية الصغيرة المعلقة فى لببهما . يسمى مارتين طوق البغل لبباً .

– هذه تسمى قطلانا والبغل الأمامى يسمى بنطلون .

فى بالدنوتشس (Valdenoches) يقطع الحجارون الحجارة وقد اسودت أجسامهم فبدوا كالحطب وهم يحملون منديلا تحت الطاقية

لامتصاص العرق ويعملون فى تؤدة وتهالك ويقون عيونهم بصحيفة مدنية صغيرة معقودة إلى قفاهم لعدة أشرطة . عندما تمر عربة الكارو بهم لايرفعون رؤوسهم . منذ ان اجتازت العربة جبال سورتوريخا (Sotorija) وتيو نغزو (Tio Negro) وهي تسير فى طريق واسع محاط بأشجار الدردار.

– هنا يمكننا التنفس بحق . أليس كذلك ؟

– بلي والله !

– حسنا ، كل الطريق على نفس الوتيرة حتى توريخا .

تلوح على يمين الطريق بساتين بديعة المنظر ويرتدى شيوخ قمصانا معقودة الياقة ونطاقا حول بطونهم وسراويل من القطيفة الخشنة ويرتدى بعض الشباب « عفريته » زرقاء من قماش الماهون القطنى .. على مشارف توريخا تغنى بعض النسوه بينما يقمن بغسيل الملابس ،وعندما يرين عربة الكارو يتوقفن لحظة عن عملهن ويحيين مرحات مبتسمات .

وتوريخا قرية تتربع أكمة .

فندق واحد

وثلاثة منازل

وأربعة بغال

وخمس سيدات

وسته أشراف

وسبع راعيات غنم .

طريق بريويغا

يمضى إلى اليمين

وفى طريق سرقسطة

تهبط صبيتان .

من هذا المدخل ، ترفل القرية فى ثوب من الجلال بقلعتها وببرج كنيستها المربع الشكل . على حائط أحد المنازل هناك لافته تقول : إلى الغورا – ٣٩ كم ، إلى سرقسطة – ٢٤٨ كم . وهى لافته باللون الأزرق وحروفها كبيرة ومطلية باللون الأبيض ، تمكن رؤيتها جيداً وبكل وضوح أيضاً وإن مر عليها بسرعة كبيرة فى سيارة .

فى توريخا يلقى الرحالة بنفسه من عربة الكارو أمام فندق عند مخرج القرية . وقبل أن يودع الرحالة مارتين كان قد تناول معه كوبا من النبيذ وتحادثا عن الطقس والقمح والناس وعما يساويه زوج من البغال وعن مدة تحمل سترة من القطيفة وعن تصنع خادمات مدريد اللواتى لايتميزن عن غيرهن فى أى شىء ، فهن كغيرهن من النساء وإن كن مغرورات وكأنهن كونتيسات . ويتفق الرحالة والبغال على أنه من الأفضل عدم النظر إلى وجوههن والاقتران بفتاة من القرية معروف « أصلها وفصلها » .

– أما أولئك اللائى يذهبن الى مدريد فهن ، كما تعلم ، لاشىء يُعرف عنهن فمن الممكن أن يعدن بما يرضى الإله أو أن يحدثن جلبة كجلبة فرقة من « المشخصات الهزليات » ويرقب الرحالة ، الجالس على مقعد من الحجر قبالة الفندق ، مارتين دياث وهو يرحل فى طريقه الى تريخويكى ويلهب الآن سائق العربة ، بعد أن نزع مظلة الخيش عن ظهرى بغليه اللذين يحثان السير متشممين رائحة الحظيرة . وقبل أن تجتاز عربة

الكارو منعطفا فى الطريق ينظر الرحالة للمرة الأخيرة الى العربة والى مارتين وقطلانا وبنطلون الذين سيهبطون مرة أخرى بحمولة الحطب فى طريقهم الى وادى الحجارة .

يغتسل الرحالة فى الدهليز ، فى إجانة موضوعة على كرسى من الحفأ. يبكى طفل ليست له رغبة حقيقية فى البكاء ،ويشرع الدجاج فى العودة إلى الحظيرة ، ويفتش كلب هزيل فى قدمى الرحالة الذى يركله بقدمه ركلة فيفر الكلب وذنبه بين ساقيه . من الواضح أنه كلب اعتاد تلقى الركلات . وتلعب طفلة مع قط لونه ابيض وأسود وتراقبها طفلة أخرى بوجه.يضمر شراً دون أن تحول نظرها عنها ، ويمر حمار بمفرده فى طريقه إلى الحظيرة فيدفع الباب بمخطمه ويدخل .

يتحدث الرحالة إلى امرأة الفندق .

– ما اسم هذا الفندق ؟

– ليس له اسم . تدعى أمى مارثيلينا غارثيا .

لايصيب اليأس الرحالة .

– لديكم قلعة رائعة هنا .

تنظر المرأة إلى عينى الرحالة .

– أجل ، إنها لعريقة جدا . يقولون إنها هنا منذ أيام العرب .

يمرّ شاب على متن بغلة بنية اللون :

– قفى يا خنيروسا (ياكريمة) ، هيا ياخنيروسا !

تتحدث ابنة مارثيلينا إلى الرحالة :

– ستحتسى نبيذا ؟

– أجل .

ترفع امرأة الفندق عقيرتها :

– يابنت ، اذهبى واحضرى نبيذا .

تدخل الصبية المطبخ ثم تخرج وبيدها زجاجة فارغة .

فى فندق توريخا لا يوجد نبيذ ، فهو فندق يتحتم على صبية فيه أن تذهب لإحضار النبيذ بعد أن يسأل الرحالة : تشرب نبيذا ؟ ويجيب أن نعم.

– تريده أحمر أم أبيض ؟

– أحمر .

يدخل الرحالة حجرة الطعام ليصلح من شأن متاعه . على المائدة مفرش من المطاط منقوشة عليه معينات بيضاء ووردية اللون ، ويرتفع خوان حتى السقف . وعلى الحائط ثمة خريطة تضاريس لشبه جزيرة ايبريا ونسخة ملونة للوحة « هدية العيد » لبيرز . وتعلن ساعة حائط بميداليون من الصدف موعد العشاء . وتتدلى من السقف أربع علب أسطوانية من صفيح المعلبات – محيطة بالمصابيح – نما فيها نوع من النبات المتسلق يسمى « حُب الرجل » على شكل إكليل . المصباح مطفأ .

– وماذا عن الضوء ؟

– يأتى الضوء متأخراً .

يتناول الرحالة عشاءه على ضوء قنديل زيت . فاصوليا خضراء بسجق الخنزير وعجة بطاطس بالبصل ولحم ماعز متيبس كأنه الصخر ثم كوب لبن الماعز .

وعندما يأتى تيار الضوء - بعد أن دمس الظلام - يحمر سلك المصباح قليلا وكأنه جمرة متقدة؛. ويبدو النبات المتسلق واللمبة معا كأنهما يراعة .

- عندما يأتى التيار جيدا بكل شدته قبل الفجر ينير كأنه الشمس ، سترى ذلك بعينيك .

وامرأة الفندق تبتسم عندما تتكلم فهى امرأة بشوش تفيض طيبة . يصعد الرحالة إلى مخدعه . الفراش حديدى وكبير ورائع وعليه مرتبة وثيرة من القش .

يترك الرحالة ضوء المصباح مشعلا ويخلع عنه ثيابه فى الظلام .

قبيل الفجر يشتد الضوء وينتشر فى الحجرة شعاع معتم - يصلح لتحميض الصور الفوتوغرافية - تصعب معه القراءة .

يرفع شاب عقيرته بغناء يستحيل صراخا عاليا ويزعق على نحو مزعج يسمع عن بعد :

إذا بحثت عن عروس فى ترويل (Teruel)

ابحث عن أجنبية

واعلم انهن يصرعن صبياً

نساء هذه الأرض .

تحيط امرأة الفندق المسافر علما وهى تقدم له طعام الإفطار :

- ذلك الذى غنى عند الفجر هو أخى . يغنى على طريقة أهل إقليم أرجون.لقد مضى ردحا من الزمن فى سرقسطة فى الخدمة العسكرية

والتصق به الكثير من أسلوب ارجون . له صوت جميل . أليس كذلك ؟

– هذا ما أعتقده .

ما يزال الوقت مبكرا عندما يعود الرحالة ثانية إلي الطريق . يميل الصباح إلى البرودة وتبدو السماء ملبدة بالغيوم . إذا ما تقدم النهار وأشرقت الشمس ستختفى هذه الغيوم ويسخن الهواء . بعد قليل سير . يأخذ الطريق فى التموج قليلاً . ناحية الشمال ترى تريخويكى ، من حيث قد يكون مارتين دياث قد خرج ببغليه . لا ترى شجرة واحدة . يمر رجل كالفارس على بغلة كبيرة .

– صباح الخير .

– صباح الخير بفضل من الله . أذاهب إلى بريويغا يا سيدى ؟

– نعم يا سيدى ، أنا ذاهب إلى هناك .

– مازال امامك إذاً طريق طويل . لو كنت على بغلة غير هذه لحملت عنك زادك .

– لك جزيل الشكر .ما عسانا أن نفعل .. على أنى لست متعباً بعد . ولكنك كنت ستسير على نحو أفضل . بيد أنى لا أجرؤ على أن أحمل عنك زادك على ظهر هذه البغلة ، فهى بغلة غير هينه ، هى بغلة « نصف يونانية » عندما يفيض بها وتعاودها النوبة تأخذ فى الرفس وما من أحد يستطيع كبح جماحها ، ولك أن تتخيل مقدار ما قرعتها . مع ذلك كأن شيئا لم يحدث .

يواصل الرحالة طريقه وزاده على ظهره . بعد كل ساعة من السير ، بعد كل فرسخ ، يجلس على حاقة الطريق ليأخذ جرعة من النبيذ ويدخن سيجار ويستريح برهة . فى الحقول ، يحرث الفلاحون الأرض بمحراث

تجره البغال . يشرع سرب من الحمام البرى فى الطيران على بعد عشرين خطوة من الرحالة وتمر حافلتان مكتظتان بالركاب ، وسط زوبعة من الغبار ، وتسيران إحداهما وراء الأخرى وعلى مقربة منها .

على مسافة ما يزيد على فرسخ واحد من توريخا ، تلوح اشجار لسنديان متفرقة اولاً ثم على هيئة بقع فى الأرض فيما بعد . فى السهل ، سير راعى غنم إثر نعاجه بسفح رابيه . ولا تسمع سوى شقشقة سنونو وغناء القنبر ، بُعيد ذلك ، ترى منازل فوينتس يتوسطها برج نيسة.

وتقع فوينتس القرية (Fuentes de la Alcarria) على يمين ريق. تشتد كثافة غابة السنديان ويفوح الريف بعبير فواح ويرشف حل الرحيق فى جذوع الشوك المليئة بالازهار البيضاء .

بتول مستحية كثة الشعر هى

زهرة الزعرور الشائك

وراهب محتجب هى

كل زهرة زعتر .

عصافير محلقة هى

زهرة الجولق .

ودم مفزع هو

كل رتم .

جواد جامح هى

زهرة الزامور .

وصبية عارية

فى كل لاوندة .

مائة ذئب تحميك

يازهرة اللاذن

كمائة حمَل هى

ريحانة داوود .

ينظر أرنبان الى الرحالة لحظة وهما جالسان على ذنبيهما يحركان أذنيهما ، ثم يفران فى لمح البصر ليختبئا خلف بعض الأحجار . ويحلق عقاب دائريا على مقربة من المكان . تمر امرأة على حمار بالرحالة الذى يحييها . أما المرأةفلا تنظر إليه ولا تجيبه . وهى امرأة صغيرة السن شاحبة حسناء ، تتشح بالسواد وعلى رأسها منديل ولها عينان سوداوان عميقتان .

ينظر الرحالة وراءه ، وتسير المرأة ساكنه مسلّمة نفسها لخبب الحمار القوى الجلد . ربما فكر من يراها فى أنها جثة بلا رفيق ، وأنها تذهب وحدها ، فى الطريق الى القبر . لتدفن نفسها .

ويحتسى الرحالة جرعة من النبيذ على غير ما موعد ليعزى نفسه ثم يشق طريقه ليجلس تحت شجرة الى جانب اسوار قصر إيبارًا الواقع على حافة الطريق .

وقصر ايبارا بيت كبير شبه متهدم وله حديقة مهجورة ساحرة تبدو كأنها راقص من الصفوة متعب ومريض يتنفس هواء الفلاحين الشافى وتختنق الحديقة بالأعشاب الضارة . تنعس شاة شدت الى حبل وقد استلقت فى الشمس تجتر طعامها ، ويمرح جحش كثيف الشعر رافساً

الهواء كالمجنون . وتستوى بين الأغصان المتشابكة شجرة صنوبر يابانى سامقة رشيقة مليئة بالوقار والملاحة في العظمة كأنها شريف مهزوم هرم بالأمس كان متعجرفاً واليوم يستدين من الخدم .

على بعد فرسخ أخر تنتهى الغابة وتعود الحقول . ترى بعض البرك ويندب شيخ حظه إلى الرحالة .

– بالطبع يا سيدى ، لقد أمطرت السماء بإفراط . أتعلم ياسيدى ؟ يحتاج إقليم القرية إلى ما يعوزه من ماء فقط ، لا أكثر ولا أقل .

يفكر الرحالة فى أن ذلك الرجل – متكلماً على هذا النحو – إنما هو معرضٌ دائما لأن يصيب فيما يقول .

يرسم الطريق منحنى عظيماً ،وبعد اجتياز المفترق يجد الرحلة نفسة قبالة بريويغا التى تقبع داخل منخفض . يتفرع من المفترق طريقان بالإضافة إلى الطريق الذى يسلكه الرحالة طريق اليسار المؤدى الى اوتاندى (Utande)وطريق اليمين الذاهب الى الغورا عائدا مرة ثانية الى طريق السيارات .

نزولا إلى بريويغا ثمة طريق جانبى يختصر المسافة اختصارا ملموسا، يأخذ الرحالة هذا الطريق المليء بالحجارة والذى يبدو كمجرى لنهير جف . على بعد ليس بالكبير من منتصف الطريق ، يلاقى راعياً صغيراً يجلس على حجر إلى جانب سياج متهدم لم تبق منه إلا أجزاء ، فهو لا يستر شيئا .

– أيها الصبى . ما اسم هذا المنخفض ؟

الطفل لا يجيب .

– ألا تسمع ؟ إنى أحدثك . أقول ما اسم هذا المنخفض ؟

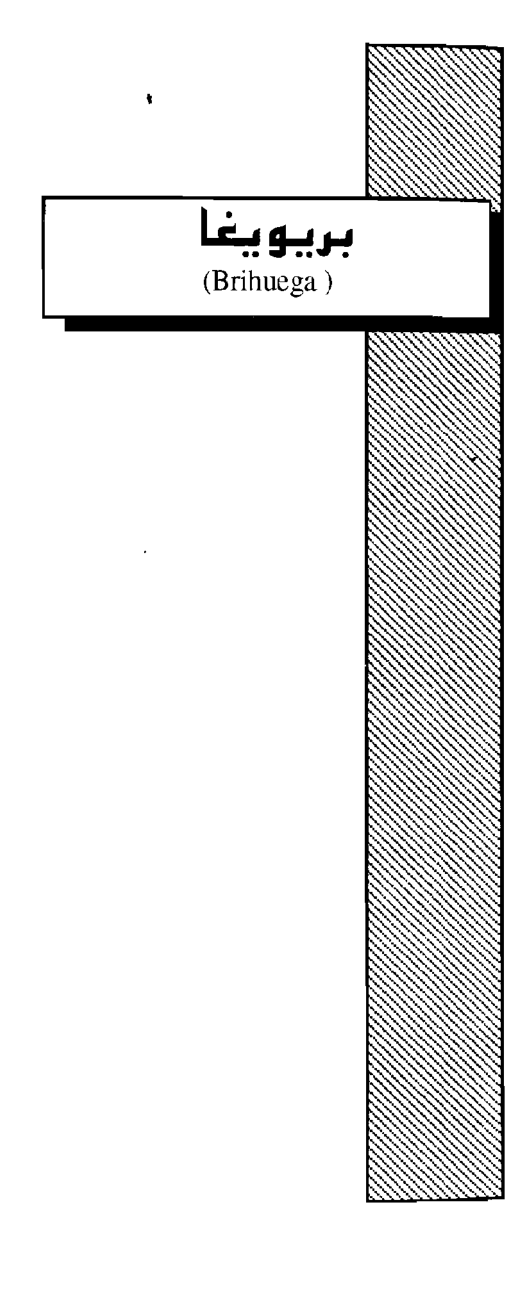
يتحرج الطفل ولا يعرف ماذا يفعل . ينظر إلى قدمى الرحالة ويحمر وجهه حتى أذنيه ويمسح على ركبته بيديه ، ثم يهم بالإجابة فى صوت رفيع :

– ليس له اسم .

ويعطى الرحالة الطفل بعض النقود . لم يرد الطفل أخذها فى أول الامر .

من هذا الشعب تبدو بريويغا بمظهر بديع بأسوارها وبمصنع نسيجها العتيق الضخم المستدير كأنه حلبة مصارعة . يجرى نهر التاخونيا بضفافه الوارفة وبغوطته الخضراء خلف القرية .

ولون بريويغا رصاصى مائل للزرقة كدخان سيجار وتبدو مدينة قديمة كثيرة الحجارة ، ببيوت بديعة المعمار وأشجار ضخمة . لقد تغير الديكور فجأة ويبدو وكأن ستاراً قد أزيح عنها .



بريويغا

(Brihuega)

من كان فى الحقيقه يعرف اسم الشعب هو رجل متلعثم اللسان يعد أبصالا لشتلها فى ظل دردارة الى جانب خان « لاس إرس » يضحك عندما يسأله الرحالة :

– إن له اسماً قبيحا ، قدر ذلك يا سيدى .

يعطيه الرحالة سيجارة.

– ولكن الاسم يمكن أن يقال ، أليس كذلك ؟

يتكلم الرجل بصعوبة شديدة . بين تلعثمه وضحكه لا يفهم له شىء تقريبا .

– فى منتصف الطريق ثمة عين تسمى عين كينيونيروس (Fuente de Quinoneros)

– وهل يسمى الطريق هكذا ؟

– لا يا سيدى . لا يسمى هكذا .

لا يتمالك الرجل نفسه من الضحك وتقول له امرأة يتعلق طفلها بصدرها :

– هيا ، إنك لتبدو أبله . الا يريد أن يعرف الاسم ؟ قله إذاً !

ولم يكن ينقص المرأة إلا أن تقول :

– ما لهذا يسأل كثيرا ، فليحل عليه الشقاء !

لم تقل ذلك ، ولكن من المحتمل أنها فكرت فيه ، يشيح الرجل المتلعثم بوجهه ثم يقرر أن يتكلم .

– هذا الطريق يسمى ، أو نسميه نحن ، طريق عين الغائط .

يفكر الرحالة فى أن الرجل صاحب الأبصال انما هو متلعثم رقيق. فالامر لم يكن يستدعى كل هذا الاحتياط . يبتعد الرحالة وما يزال الرجل يضحك وهو يقطع بسكين رهيبه سيقان البصل الغضة التى سيشتلها فى المساء .

يدخل الرحالة الخان ليأكل . قبل الغداء ، يضع قدميه فى ماء ساخن وملح فيزول الألم تماما . تجلس فى حجرة الطعام فتاة قروية برفقة أمها.

– صباح الخير بالهناء والشفاء !

– صباح الخير ياسيدى ، تفضل

تشرب الآنسة نبيذا ابيض وهى صبية شاحبة يداها بديعتا الرسم وشعرها كستنائى مصفف فى تمويجات صغيرة تغطى جزءا من جبهتها.. تسعل قليلاً .

على الحائط ثمة ساعة تعمل بثقل وعصفور كنارى أسمه « ماوريثيو» وضع فى قفص من السلك المذهب وثلاث صور ملونة بألوان فاقعة عنيفة فى أطر معدنية . إحداها تمثل لوحة « الحراب » (لبلاثكث) والثانية لوحة « السكارى » والثالثة « العائلة المقدسة والعصفور الصغير » . ثمة قطان

يترصدان أى شىء يؤكل . أحدهما أشقر ويسمى روبيو (أشقر) والآخر أسمر ويسمى مورو (عربى) . ليس هناك شك فى أن من اسماهما بهذين الاسمين كان رجلا ذا خيال .

تقدم الطعام للرحالة صبية حسناء غنجة ترتدى ثوبا رقيقا من القطن.

– ما اسمك ؟

– مرثيديتس ، فى خدمتك . ولكن يدعوننى مِرشى .

– اسم جميل جدا .

– لا ياسيدى . هو اسم قبيح جدا .

– ما عمرك .

– سبعة عشر .

– ما زلت صغيرة جدا .

– لا يا سيدى . لم أعد صغيرة .

– لك خطيب؟

– هيه .. ما أشد فضولك !

تحمر الصبية خجلا وتفر الى المطبخ . عندما تعود ، تعود جادة جدا وتغير صحن الرحالة دون أن تنظر اليه .

– ما بك ؟

– لا شىء .

تساعد مِرشى خادمة قروية فظة لا يعرف الرحالة اسمها . لون مفرش المائدة المطلى أصفر ذهب رونقه وتنسلت أطرافه . ثمة رزنامة

حائط عليها صورة فتاة تعلن عن ماركة أنيسون . والفتاة شقراء سوداء العينين ترتدى ثوبا أخضر يكشف عن منكبيها وتعقص شعرها وتثبته بمشط للزينه شديد اللمعان يلفت النظر من الوهلة الأولى، مطلى ببودرة الفضة المستخدمة فى عمل نجوم اعياد الميلاد وتسد نافذة حجرة الطعام قضبان من الحديد – كانت فى الأصل لشرفة – وقد رقدت على جانبها .

يخرج الرحالة الى الشارع بعد أن ينتهى من تناول طعامه ، كان قد فكر فى أن يستريح قليلا بعد أن يتناول قهوته ، بيد أن سيدين دخلا حجرة الطعام ، وأفرغا ما فى جعبته من صبر فأثر النهوض من مكانه والخروج من هناك .

الى جانب الخان ، يكتشف الرحالة بوابة لاكادنا التى ينفذ منها الى القريه . بالبوابة مشكاة بها تمثال للعذراء « الطاهرة » تحتها شاهد من رخام أبيض كتب عليه : ١٧١٠ – ١٩١٠ – مدينة بريويغا . فى الذكرى المئويه الثانية لاقتحامها الشهير . وأسفل الشاهد الأول ، شاهد ثان من الحجارة يفهم منه جزء فقط . ينسخ الرحالة الحروف فى ورقة . ويتأخر كثيرا لأنه أحيانا ما يخطأ ، فيحيط به الناس . يشعر الرحالة بغبطة شديدة فى أن يؤخذ على انه من العلماء .

كان نص الشاهد على هذا النحو تقريبا :

« من هذه البوابه تم التقدم والاقتحام فى يوم ٩ ديسمبر ١٧١٠ . بواسطة قوات جلالة الامبراطور فيليبى الخامس ضد القوات الانجليزية والهولندية ... عن هذه المدينة والتى صرعت عن بكرة ابيها . »

صحيح أن الشاهد لم ينسخ جيدا ، بيد انه لا ينقص حرف واحد . هذه هى الحقيقة . فكل الحروف واضحة وضوحا كافيا ، تقريبا ولكن ثمة ايضا شيئاً فى نهايته ليس على نفس القدر من الوضوح . بالنسبه للرحالة

على الاقـــل ، (فى النص الإسـبانى) فى السطر قبل الأخـير - فى وسـط السطر على وجه التحديد - ثمة فراغ يبدو أنه أثر مدفع[1] .

يدخل الرحـالة من البـوابة ويهيم على وجـهـه بعض الوقت فى المدينة . خارج البـوابة ، يمتد طريق مـحفـوف بالأشجـار ظليل بديع . تجلس بعض الفتيات على مقعد يتـجاذن أطراف الحديث . يضحكن فى صـخب ويضـربن على ركبهن ثم يقمن بعد قليل ويذهبن الى عين ماء ليشـربن .

يقـوم عـدد من الرجـال بجـز صـوف بعض النعـاج فى حـظيـرة على الطريق . داخل أسوار المدينة . يقصـون الفروة كاملة فتبدو كـأنها قميص ملوث بالشـحم ، وتبـدو النعـاج عـرايا نـحـيفـات بطينات قـبيـحـات . ينظر الأطفال اليها نظرات غير بريئة ويبتسمون فى صمت .

ان جـز صـوف النعـاج فى حظيـرة دافـئـة ، بل شـديدة الحـرارة ، تعـبق برائحة حريفـة نفاذة هـو مشهد يبعث بلا شك على الخـدر ودعوة موروثة للإثارة لا يعرف لهـا سبب تساهـم فى اهـتياج الصبية عندما يختلط الهـياج بالقسوة فى لحظة فوران دم غامضة وفاضحة .

سـاعة العـصـر . هناك لحظة يرى فيـهـا الرحالة كل النسـاء جـميـلات . يجلس على حـجر وينظر إلى جماعـة من ثمانى أو عشـر بنات يغسـلن وقد امتلا قلبه بالشـجن .

يغـرق الرحالـة فى فكره ويشـرد ذهـنه وتعمـر ذاكـرته غمـامـات ناعمـة مـوحية بينما ينفض الغبار عن أبيات منعشة من الأغانى الشعبية :

أمّاه ، إنهن الصبايا

صبايا هذه المدينه

---

(١) من النص الإسبانى حذفت جمله واحدة هى : (... بين حرف T وحرف V ..) .

في الماء الجارى

يغسلن قمصانهن

قمصانهن ياأمّاه

أمّاه ، إنهن الصبايا

تشمر الفتيات عن أذرعهن ، تغنى احداهن جزءا من ثارثويلا [(١)] وتغنى أخرى كوبليه قديما مضت عليه اربع أو خمس سنوات ، ولكن إحداهن لا تغنى وتضع بعض الزهور الزرقاء فى شعرها الكستنائى . وهى لا تُرى جيدا ، بيد أنها هكذا ، من ظهرها ، تبدو مرشى فتاة الخان .

— اسمى قبيح جدا .. لم أعد صغيرة ...

فى اليوم التالى ، عندما يعود مرة أخرى الى الطريق ، يفكر الرحالة فيما مضى ويغلق عينيه لوهلة ليحس بدقات قلبه ، يشرب ثور أشقر هرم قرناه طويلان ووجهه مدبب كأنه فارس من طليطله لامسا صفحة الماء بمخطمه الأشيب فى حوض بعين ماء قريبة من المغسل ، عندما ينتهى من شربه يرفع رأسه ويمر فى تواضع وحكمة خلف النسوة . من يره يحسبه خصيا مخلصا ملولا متعقلا يحرس الحريم الصاخب كإصباح الصبح.

يتابع الرحالة سعى الحيوان المستسلم بنظرة ملؤها الحيرة . فأحيانا يقف واجما أمام الاشياء التى يصعب فهمها . ثمة كلبان يتحابان بعناد وعنف وقلة حياء فى نار الشمس المحرقة وتمر دجاجة تحيط بها افراخ صفراء كحبات الذرة ، ويطل كبش من ناصية احد الشوارع رافعاً رأسه وفى عينيه نظرة عميقة وقرونه شامخة متحدية . ينظر الرحالة الى

---

(١) نوع فنى إسبانى شبيه بالاوبريت .

الغاسلات للمرة الاخيرة ثم ينهض ويرحل فهو رجل نسجت حياته من التنازلات.

يجوس فى عدة حارات ثم يتوقف على أعتاب منزل ليدخن سيجارة مع رجل شيخ .

– تبدو القرية رائعة .

– آه لو رأيتها قبل اختراع الطائرات .

يتحدث أهل بريويغا عن قبل وبعد اختراع الطائرات مثلما يتحدث المسيحيون عن ما قبل وبعد الطوفان .

– وهى ليست الآن ولا حتى ظلا لما كانت .

يمعن الشيخ فى التفكير مائلا للرثاء ،وينظر الرحالة الى حجارة الشارع تاركا الكلمات تتداعى على فترات وكأنه فى شرود .

– الصبايا الحسناوات ، كما أرى ...

– لا تلقى بالا الى هذا ، فهن لايساوين ريالا واحدا . آه لو عرفت امهاتهن .

يزفر الشيخ الذى ترتعش رأسه زفرة ويغير مجرى الحديث .

– لقد كان هنا، فى هذا المكان ، عندما بدأ الإيطاليون فى الفرار ، أتعلم ذلك ؟

– أجل ، أعلمه .

– لقد كان حدثا جللا .

ينهض ويدخل الدار ثم يعود بعد برهة متكئا على عصاه فى تثاقل .

– معذرة ... ذهبت لأرى كيف يسير قدر الطعام .

يجلس ثانية ويضع يده على خده .

– فى سنى لا يصلح الانسان لعمل شىء . لم نعد نصلح إلا لمراقبة قدر الطعام . لقد صرت طللا . ولكن ، آه لو كنت رأيتنى فى شبابى !

يفكر الرحالة فى أن ما يحدث لصديقه الشيخ إنما يحدث أيضا لبريويغا التى كان يجب رؤيتها فى مجدها . ولكل الناس والأشياء . ينهض الرحالة فهو لا يفضل الحزن اليوم ،يودع الشيخ ويمضى إلى الأمام هابطا المنحدر. يمر بأروقة من عروق خشبية تعمل عمل الأعمدة ومن بلاط من حجارة كأسس لها ، ويبلغ كشكا صغيرا ومزركشا ومتنوعا وجذابا فيبدو كأنما أقامته مصلحة السياحة .

وصاحبه شيخ عرك الحياة . أحول ، ربعة . خبيث ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، يتحدث فى كل شىء وعن أى شئ وينتحل صفة الشاعر والرجل المثقف .

– حللت أهلا فى حانوت «بورتييو »

– شكرا لك .

– إنه حانوت شديد الجدية .

– لاأشك فى ذلك .

يتحدث الرجل مفرطا فى حركاته وصارخا ومجعدا سحنته ورافعا ذراعيه .

– أنا شيشرون الشهير .. أنا أعلم الناس ..

– عظيم .

– كلهم هنا جهلة «ويفتقرون إلى التمييز»

– حسن .. ثمة رجال من كل نوع'.

– لاياسيدى ، ليس ثمة أحد ، فكلهم هنا جهلة ولايميزون .

– مهلا .. مهلا .

– اسمى خوليو باكَس وإن سمونى بورتييو . كل شخص فى هذه القرية له لقب ولامفر لأحد من ذلك [1] فهنا ، لانحرم انفسنا شيئا .

– نعم ، هذا ما أراه .

– ويسموننا مهرجين وسكارى ، أهالى القرى المجاورة .

يطلق الرجل هذه الجمل فى سرعة شديدة كما لو كان يلقى درسا يحفظه عن ظهر قلب فهو يتوقف فقط ليتنفس أو يضحك ضحكة أرنب ، وهو يعى أن عليه أن « يرصَ» كلماته على أى نحو اتفقت أو لم تتفق وسياق الحديث .

– ولكن أتدرى ماهو رأيى الذى أقوله ؟ أقول لك إذاً إن هذه هى سنة الحياة .

يبتسم الرجل ثم يخطوخطوة إلى الخلف ويتخذ وضع ممثل درامى مدروساً جيداً :

فى هذا الكوخ المتواضع

سترى كل شىء

---

(١) كلمة باكَس تعنى ابقار . خوليو باكَس يسرد قائمة من الألقاب الطريفة نورد هنا بعضها مترجمة مطوش : الثعالب . النخلة . المحروق . الحساء . الماء . البيضة . الجدى المدخن .

من الحذاء والسلة

إلى أجمل وأنفس الخزف .

يفيض خوليو باكس متعة وينعكس هذا على وجهة ، فصبر الرحالة في حقيقة الأمر شيء يندر وجوده.

– أيعجبك هذا الشعر ؟

– نعم بالطبع ، إنه لرائع .

– حسن ، لقد نظمته وحدى ، دون مساعدة من أحد . وأحفظ الكثير ، لقد نظمت اشعاراً أخرى .

– حقيقة ؟

– نعم ياسيدى . أم تعتقد أننى جاهل ؟

– أنا ؟ .. حسبى الله ...

يعاود الرجل الابتسام .

– أجل ياسيدى .. نظمت أشعارا أخرى ، أكثر من هذه بكثير ، وهى مسجلة عندى ، فبدون نظام لا يمكننا أن نصل إلى أى مكان . أليس كذلك ياسيدى .

– بالطبع .

– استمع إذاً إلى هذه الابيات فى السيدة مريم العذراء أم السيد المسيح .

– هات ما عندك .

يعود بورتييو فيغير من هيئته :

بريويغا سعيدة الطالع

منذ أن وجدت

لسـ'ـــمرائها

أقامت معبدا .

يهم الرحالة بالكلام لكن بائع « الروبابيكيا » يقاطعه بإشارة كأنما يقول له : انتظر قليلا ، لحظة واحدة فقط . ثم يرفع ذراعيه ثانية قائلا :

ثلاثة معالم توجد

فى هذه المدينة الكبيرة :

عذرانا والقديس فيليبى

وبوابة الكوثاغون

عندما يفرغ منه يهرش رأسه بعنف .

– أسمعت ؟

– أجل ، أجل .

يدخل الرحالة الحانوت وفى إثره خوليو باكس ، يعج الحانوت بالبضائع فيبدو محلا لعربى : مصابيح من الصينى وأوانى للبصق من الخزف النفيس ومحابر من زجاج وعملات فضية ولوحات وكتب ولوازم ركوب الخيل وقناديل برونزية وجلود خراف وريش طاووس وصحاف بديعة موصلة وسترات قديمة ومجموعة طوابع أرجنتينية وصندوقان يزن كل منهما نصف كيلو جرام ، بهما عملات ألمانية ترجع إلى حرب ١٩١٤ . يتحدث خوليو باكس الشهير ببورتييو إلى الرحالة :.

– أهاوٍ أنت للقراءة ؟

– نعم . أحيانا أقرأشيئا .

– إذاً سوف أهديك كتابين أعتز بهما . هما قديمان جدا .. كتابان للحكماء . لا أريد شيئا مقابلهما : « افعل الخير ولاتنظر فيمن » . سوف أهديهما لك . هما كتابان فى الصحة ، فأنت شاحب قليلاً .

بينما يبحث بائع « الروبا بيكيا » عن الكتابين يجول الرحالة الحوائط ببصره .

– هما .

– ألف شكر .

يبحث الرحالة عن بزيتتين فى جيبه

– لا أتقاضى مقابلا عن هذه الأشياء .

– معذرة ، هاتان البزيتتان ليستا ثمنا للكتابين فأنا أعلم أنهما يساويان أكثر منهما . هاتان البزيتتان هدية منى .

– هذا إذاً شىء آخر .

يحفظ خوليو باكس بزيتتيه ويتصفح الرحالة الكتابين . عنوان الأول : « دراسة عملية فى مرض النقطة » مؤرخ فى ١٧٩١ فى الكلاه(Alcala') فى مكتب الجامعة الملكية وكان قد كتبه بالفرنسية « أم . كوست » أقدم مستشار وطبيب فى حرس صاحب الجلالة ملك بروسيا ، وترجمه إلى الاسبانية دون رامون تومية أستاذ الجراحة فى البلاط الذى أضاف إليه بحثا فى المياه المعدنية . وعنوان الكتاب الثانى « الطب العلاجى والطمث » كتبه «أم لى روى » مستشار الجراحة فى باريس . على غلافه بيتان من الشعر يقولان : « من يحملنى فى جيبه يحمل الطبيب معه » وهو مؤرخ فى بالنثيا فى ١٨٢٨ فى مكتب خوسيه فرير دى أورغا ، ويحمل صورة مؤلفه وسط إكليل بخط إنجليزى يقول : « أم لى روى داعية الطب العلاجى » .

– ماذا ؟ أيعجبك الكتيبان ؟

– نعم ، يبدوان شيقين .

– كنت احتفظ بهما منتظرا من يستأهلهما . اتركهما لى أوقعهما لك .

ينظر الرحالة إلى خوليو باكس الذى يكشف عن أسنان حادة خضراء دقيقة بينما يوقع الكتابين بكل عناية ، كان يبتسم .

– لقد قمت بمرافقة جميع زوار المدينة من المشاهير .

– وهل يأتى الكثير منهم ؟

– أجل ياسيدى ، ومهمون جدا . فمنذ أعوام طويلة ، قبل اختراع الطائرات ، رافقت ملك فرنسا فى زيارة للبلدة .

– آه ، حقيقة ؟

– نعم ياسيدى ، كما تسمع كان ذلك فى زيارة سرية ، شديدة السرية ، لم يعلم بها مخلوق .

يخفض خوليو باكس من صوته ويقوس حاجبيه ويكلم الرحالة فى أذنه .

–كان ذلك عندما انتخب دون نيثيتو الكلاه ثامورا (١) . سأقول لك شيئا ربما لا تعلمه ، شيئا لم يتخيله أحد تقريبا . ولكن ياسيدى كأنك لم تسمع شيئا ، هه ؟

– حسن !

– لقد كان هو ودون نيثيتو ابنى عمى .

---

(١) انتخبه البرلمان الإسبانى رئيساً للجمهورية الثانية ، فى العاشر من ديسمبر من عام ١٩٣١ .

– غير معقول !

– أجل ياسيدى . وطبعا لما كان دون نيثيتو جمهوريا فإن الملك اضطر إلى القيام برحلته متخفيا حتى يتجنب القيل والقال . كل هذا أعلمه من مصادر موثوق بها .

يعود خوليو باكس فيرفع صوته بعد أن يغمز للرحالة بعينيه .

– كان رجلا يستملح الحديث معه ، ذكيا طويل القامة ، حسن الهندام ، يلفت الانتباه من الوهلة الأولى إلى أنه ملك أجنبى .

– عظيم .

– وقال لى عند رحيله : خذ يابورثييو ، كى تسكر ليلة « فى صحتى » ، ثم نفحنى قطعتين من ذوات خمس بزيتات . وكان سكرى فى تلك الليلة مشهودا ، اقسم لك .

– أصدقك بالطبع .

– كان يكفى النظر إليه حتى تدرك أنه رجل مقتدر .

يقلب خوليو باكس عينيه كأنما يتذكر .

– وعندما أسمعته قصة عذرائنا والقديس فيليبى وبوابة الكوثاغون أخرج حافظة نقوده ودفع لى ببيزيتة أخرى .

يفكر الرحالة فى أنه من العسير عليه منافسة عاهل فرنسا . ويواصل خوليو باكس إلقاء خطابه جاهلا ما يفكر فيه الرحالة :

أكلت عجوز مرةً

مايربو على مائة سردينة

وظلت طوال الليل

تستخرج شوكا من المستقيم .

– هذا أيضا قاله ملك فرنسا ؟

– لاياسيدى ، هذا لا . هذا ألفته أنا بعد ذلك .

– ألفته أنت ؟

– نعم ياسيدى ، أقسم لك . لقد انتشر بين الناس وبسرعة الضوء لكن مؤلفه الأول كنت أنا ، خادمك المتواضع .

يتفوه خوليو باكس بالكلمات الأخيرة ناظرا إلى الأرض .

– من المؤسف أنك لم تسمعه هذا ، لأنه ربما نفحك بزيتة أخرى .

– من المؤكد ...

بدل بورتييو من نبرة صوته كأنه يريد ربط كلامه بشيء نسيه .

– ألم تنتبه ياسيدى إلى أننى قلت المستقيم فى ذلك البيت ؟

– بلى ، بلى ، لقد انتبهت إلى ذلك .

يغرق بائع الروبابيكيا فى الفكر ويتحدث كأنه يتحدث إلى نفسه ، دون اكتراث .

– ما أجمل الذكرى التى أحملها لدون لويس !

– كان يسمى دون لويس ؟

– أجل ياسيدى : دون لويس كابيتو .

يسأل بعد ذلك بينما يسير ويداه فى جيبى بنطلونه رافعا منكبيه :

– أتعلم ياسيدى أى شىء عما آل إليه أمره ؟

– لا ، ولا كلمة واحدة ، فمعلوماتى عما يحدث فى فرنسا قليلة .

– هذا نفس ما يحدث لى ...

يطل خوليو باكس من الباب وينظر الى الطريق .

– ما أعظمه من فارس ! ما كان يبدو فرنسيا !

خوليو باكس الذى له هيئة محرض فى حرب عصابات يمسك جبهته بيديه كتينور أوبرا .

يبعث مظهره على سخرية مروعة ، سخرية تملأ النفس رهبة .

– ما أعظمه من شخصية تاريخية !

ينظر شزرا وبشىء من المداراة الى الرحالة الذى لا يحرك ساكنا عندما يسمع عبارة «شخصية تاريخية» .

تعاود بائع الروبابيكيا ابتسامته :

– لا علينا ! مافات فات ! وكلنا سواء أمام الموت !

– حقيقة !

فلنتحدث إذاً عن شىء آخر . ألم تر حديقة المصنع بعد ؟

– نعم ، لم أرها بعد .

– لاتدع رؤيتها إذاً . إنها لشىء جليل . ستتأكد من ذلك عند زيارتها .

يودع الرحالة خوليو باكس شادا على يديه أمام كوبى نبيذ فى حانة . وعند الخروج من هناك صرخ خوليو باكس بصوت مدو كأنه الرعد :.

– ماريا .. ماريا !

وعندما أطلت ماريا من إحدى الحارات ، قال لها :

– راقبى المحل فإنى ذاهب مع هذا السيد بعض الوقت .

فى الحانة كان الرحالة قد حاول إقناع خوليو باكس بالعدول عن نيته.

- شكرا جزيلا . ولكن لا تكلف نفسك .. أستطيع الذهاب إلى الحديقة جيدا وحدى فأنا أميل أحيانا - لا أدرى كيف أشرحه لك - إلى العزلة .

مكث خوليو باكس ينشب نظره فى طاولة الحانة ، وبصوت بائس معتم ومفعم بالمرارة وبهدوء شديد اقتصر على قوله :

- كما تشاء .

نفحه الرحالة - الذى يدرك الأمور متأخراً كالعادة - بزيتتين أخريين فأخذهما خوليو باكس دون أن يحرك ساكنا تقريبا .

- شكرا جزيلا .

- عفوا . معذرة فلست عاهل فرنسا .

ترك خوليو باكس كلماته تتهاوى وكوب النبيذ الأبيض فى يده :

- مثل ذاك الرجل ثمة قليل .

يواصل الرحالة طريقه وفى ذاكرته خوليو باكس يقوم بحركات بهلوانية .

بورتييو بائع الروبابيكيا

فى بريويغا

بطل الحديث الفصيح

وقلب ذهبى فى جسد فقير .

شسشرون المخلص .

وصديق ملك فرنسا .

(الذاكرة أريج

خلف عينى فأر)

فى العلبة الصفيح

تُعد قطع النقود

– بذرة العيش الرغيد –

وقملة متسللة

ضعيفة وصفراء

تقرصك فى قصك .

آه لو علم ملك فرنسا

صاحب زهور الزنبق

آه لو علم بذلك دون لويس .

تجلس عجوز بنظارة على أريكة خشبية ، تحت ظل الأروقة تشغل جوربا . بجوارها طفل يبكى مُر البكاء ويركل الأرض بقدميه . يبدو أنه ضرب ضربا مبرحا لتوه .

– ما به ؟

– لا شىء ، إنه محرور .

يأكل شيخ سردينا مدخنا وكسرة خبز . يجلس أسفل عمود وبجانبه حمار . والحمار هرم أيضا ولون شعره رصاصى وعيناه بائستان متأملتان. فى عنقه الكثيف الشعر ثمة عقرة دامية أكلها الذباب ، وبدا صلبه مقوسا تحت البرذعة بفعل السنين . يرفع الشيخ رأسه عندما يلحظ

مرور الرحالة الذى يقرئه السلام .

– مساء الخير !

– بفضل من الله !

وشعر الشيخ أبيض وعيناه زرقاوان لا معتان . يبدو منكسرا وتغطيه أسمال قليلة بائسة لكن ليست هيئة الشحاذ . يفكر الرحالة فى هؤلاء الفقراء الذين ليست لهم هيئة المتسولين ، هؤلاء الفقراء الذين يمكن أن يقال عنهم إنهم عظماء ذلوا ، عزيزة نفوسهم ، صابرون على الشقاء كأبطال فى محنة .

يا صبايا تورّيبلنيا

يا صبايا فوينثميان

شريف مهزوم

يهلك باحثا عن خبز .

عيناه زرقاوان

وهيئته عتيقة .

يجوب الطرق

كأنه القائد .

وينظر كالحمامة

وكالباشق أيضا .

وهو رقيق مع من يسأله

أنوف مع من يعطيه .

في السماء طائر أبو طيط

يفر من القطامى

ياصبايا تورّيبلنيا

ياصبايا فونيثيمان !

يداخل الرحالة فضول إزاء الشيخ صاحب الحمار . فهو لم يتعود رؤية شحاذين عيونهم زرقاء ولهم هيئة الفرسان القدامى ، ضاربين فى الأرض من مكان إلى مكان دون أن ينال منهم التعب أبدا ، يأكلون اليوم سردينا مدخنا فى بريويغا وربما صاموا البارحة فى غابة السنديان أو تغذوا لحما مقدداً وحساء الثوم فى بيابثيوسا (Villaviciosa) أو فى بالدساث (Valdesaz) ، أما أمر غد فهم – كطير السماء – يسلمونه لله .

– عابر سبيل ؟

– أجل ياسيدى .

– أذاهب إلى بعيد ؟

– حسن ! لست فى عجلة من أمرى .

يرفع الشيخ يده إلى جهته ليتكلم مع الرحالة .

– أنت أيضا تسافر ؟

– نعم ، سأخرج فى الليل .

– إن شاء الله ...

– أجل ، إن شاء الله !

للوصول إلى حديقة المصنع المحاطة بأسوار من الطين المدببة الحواف يجب اجتياز طريق ضيق مهجور شديد الانحدار . يدخل الرحالة فينبح كلب لدخوله . يخرج رجل .

– تريد رؤية الحدائق ؟

يبدو رجلا تعود على مثل هذه الزيارات ، فهذا السؤال يبدو أنه سأله مرات عديدة طوال حياته . ويقول الحدائق بدلا من الحديقة لأن كلمة حديقة – المفرد – هى أكثر ابتذالا ، كما يفسح الرجل السبيل للرحالة كلما مرا تحت مظلة . والمصنع لا يصنع شيئا . فى أزمان أخرى ، حسبما يعتقد الرحالة أنه فهم ، كان يصنع قماشاً .

ترقد سيارة ليموزين مغطاة بالتراب وبخيوط العنكبوت فى عنبر كبير وخاو .

يعبر الرحالة والحارس فناء مربعا مغطى بالبلاط له هيئة ديروبه أشجار عليق وقراص فى الأركان وحوض ماء أخضر يقطر فقاقيع ومحاط بزنابق . ينقر بعض الحمام الأرض . خارج الفناء ، ترعى عدة أبقار سويسرية فى ظل أشجار فاكهة فى مرج أحيط بسياج ويطل على المدينة كأنه شرفة . للأبقار قرون قصيرة غير حادة ونظرة تائهة حمقاء غير مدققة .

للخروج من الفناء إلى الحديقة لابد من اجتياز باب صغير . والحديقة فتانة المظهر .

قال الحق خوليو باكس : إنها لحديقة جليلة . ويعرض الحارس حديقته فى خيلاء .

– هذه هى الصوبة . تفضل ياسيدى !

و الرحالة لا يدخلها ، فله تحفظ على الصوبات .

– والآن بسبب كل هذه المياه لا يمكن الحفاظ على نظافة الممرات فالحشائش تنمو فى كل مكان .

ويجهل الحارس أن الحديقة تبدو أكثر سحراً بنمو بعض الحشائش فى طرقاتها .

– انظر ياسيدى ، ما أروع هذا الغار .

وحديقة المصنع حديقة رومانسية ، حديقة للموت فى الصبا ، من العشق أو اليأس أو السل أو الحنين .

تنمو شجرة السرو كالعابد المتبتل إلى جانب شجرة لوز مليحة تبدو كأنها فتاة ماتت ، ووراء أشجار البقس المشذبة تزدهر ورود أريحا البرية. ويشحب نبات سلطان الجبل الزائف أمام الريحان دائم الخضرة . يتجول الرحالة بين أشجار العصل وليس فى مقدوره تجنب أن يعمر ذهنه شعر شيلى الناعم الرخيم معا : النبيذ .. العسل .. برعم قمرى .. النسرين ...

شرفة عالية
بالبقس تتشح .

شرفة عالية
تتشح بالبقس .

يغرد شحرور جريح
علي السرو .

وعلى السرو يغنى
جريح الحب .

وتعبق وردة
أريحا .

هواء صاف
أحمر اللون .

تصعد مرتعشة
نسرين رشيقة .

تصعد مرتعشة
نسرين رشيقة .

ريحانة تطفت
وسوسن ملول .

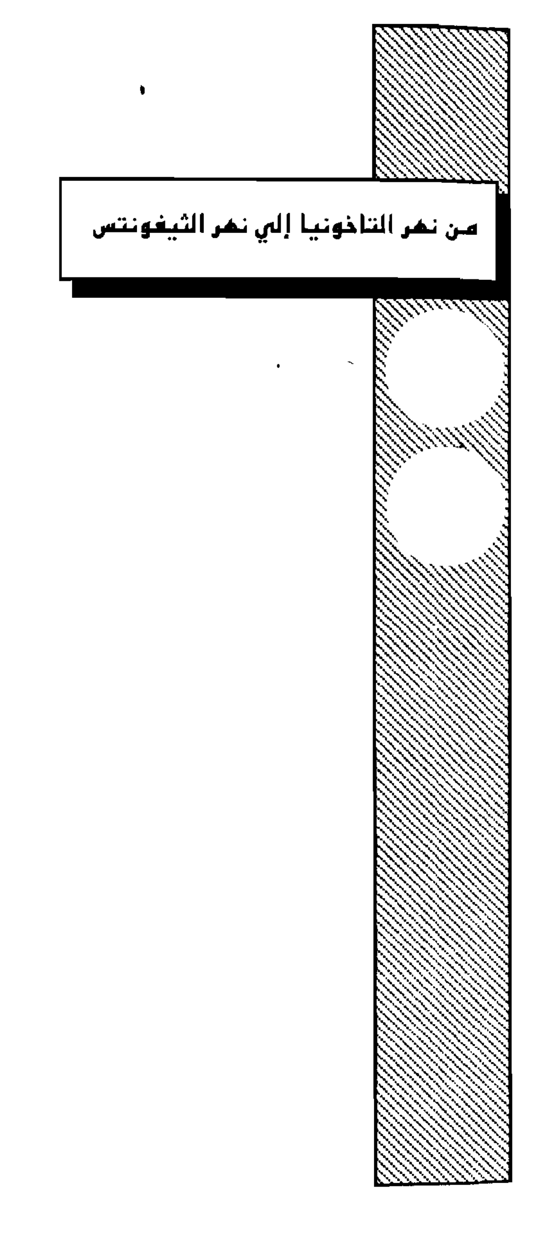
ريحان قطع
فى ألف شكل .

يمسح الرحالة جبهته بيده ويفرك عينيه .

– فى هذه البركة ، قبل اختراع الطائرات ، كانت ثمة أسماك ملونة دائما .

الرحالة لا يستمع إليه . يطل من الشرفة العالية المزينة بإكليل من زهور الشاي وينظر إلى الوادى . يجرى نهر التاخونيا عن بعد ،وعلى ضفتيه الطريق الذى سيسلكه الرحالة عند غروب الشمس ، صعودا مع النهر ، وراء ماسيغوسو(Masegoso) أو هبوطا معه ، وراء طريق السيارات المؤدى الى بوديا (Budia).





من نهر التاخونيا إلي نهر الثيغونتس

٥

يهبط الرحالة إلى النهر عند غروب الشمس . إلى اليسار - صعودا مع نهر التاخونيا - يمضى طريق ماسيغوسو وثيفونتس ، وإلى اليمين - فى عكس الاتجاه - طريق أرتشيا (Archilla)ويوديا . لايستقر على رأى، فيجلس على حافة الطريق ، ظهره للقرية ووجه للنهر ، لينتظر لحظة اتخاذ القرار .يشعر الرحالة بالراحةوالدعة مستلقيا على جرابه . فالجراب يغطى كل ظهره حتى الكليتين وهو بمثابة مسند عال مريح وخشن بعض الشيء .

تخترق السماء ، من ناحية الغرب ، بعض الغيوم الحمراء الواضحة المعالم والبديعة الرسم بطيئة طويلة كأنها الثعابين .يقولون إن الغيوم التى لها لون النار عند الغروب إنما تنبىء بقيظ فى اليوم التالى . ويجرى النهر مسرعا محدثا صوتا خفيفا بين الحقول . وعلى ضفتية تسمع شقشقة عصافير المساء ، ونقيق أخر ضفادع المساء .

الجو منعش وهو جالس على حافة الطريق فى ظل دردارة بعد يوم قائظ قطع فيه عدة فراسخ وتفقد على قدميه أرجاء بلدة كبيرةاكتشفها لتوه . يمر يعسوب فى طيرانه المتقطع وتمضى صبيتان تركبان حمارا وديعا خصيا يسير فى بطء ورأسه ينحنى إلى الامام . تمضيان ملتصقتين

مقهقهتين تزين شعرهما زهرة خشخاش ، ويعود فلاحون قضوا النهار فى العمل – فى طمر الفاصوليا وإزالة الحشائش عن الأبصال ورى الخس – أدراجهم إلى بريويفا وفؤوسهم على أكتافهم وقد لوحت الشمس والهواء بشرتهم وتفصدت جباههم العريقة النبيلة عرقا .

أمام الرحالة ، على ضفة النهر ، تحصد امرأة أعواد الأسل بسكين . كانت قد أتت وبيدها طفلة صغيرة حافية القدمين عارية الذراعين على رأسها الأشقر الأشعث شريط بنفسجي كبير كأنه خفاش . عندما تصل حافة النهر وبينما تكوم أمها أعواد الأسل تقطف الطفلة زنابق فى صمت حتى تتجمع لديها كومة فى نفس حجمها ، كومة لن تقدر على حملها . يطن النحل فى خلايا العسل فى منحل على بعد عشر خطوات من الرحالة ويعبق الريف بعبير عميق نفاذ متباعد شبه جارحٍ .

يتثاقل جفنا الرحالة وربما نعس للحظة نعاسا خفيفا دون أن يدرى، فهو بلا حراك وفى راحة ودون أن يشعر بساقيه ، فى نفس الوضع الذى اتخذه عند الجلوس . والطقس ليس بالبارد ولا بالحار . يمر كلب صيد أرانب بحافة الطريق .يشعل الرحالة سيجارا ابتاعه فى وادى الحجارة . يتصاعد الدخان بطيئامستقيما مشكلا أحيانا دوائر زرقاء شاحبة . ينظر قط أشقر الى الرحالة من فوق شجرة . لاتتحرك نسمة هواء واحدة بأسفل المنحدر ، يقدم رجل فى سكينة وشرود يسير إثر حماره . ويمضى الرجل كفارس مهزوم انتصب رأسه وتشتت نظرته وتاهت .

له عينان زرقاوان .والحمار عجوز رصاصى الشعر تقوس ظهره ، إذا دققنا النظر رأينا فى عنقه المخملى عقرة دامية اسودت من الذباب .

ينتفض قلب المسافر بين ضلوعه ويصيح عندما يقترب الشيخ :

– هيه !

فيوقف الشيخ الذى يعرفه فى الحال الحمار .

– قف ياغوريون (ياعصفور) ...

يتوقف الحمار ويجلس الشيخ إلى جانب الرحالة .

– فى النهاية ، صار المساء لطيفا ...

– أجل .

يقدم الرحالة علبة تبغه للشيخ .

– سيجارة ؟

– هذا لايرفض أبدا

يلف الشيخ سيجارة سميكةغزيرة ، « سيجارة صديق » ، ويفعل ذلك فى أناة كأنما يستمتع به . يصمت حينا وبينما يطفىء اللهب الطويل البرتقالى اللون بأصبعيه يسأل شبه متحير :

– أذاهب أنت إلى ثيفونتس ؟

– لا أعرف .. لم أبدا السير إلا منذ وقت قصير ، وأنت ؟ أذاهب إلى هناك ؟

– أجل ، سأمر عليها فثيفونتس بلدة طيبة وواسعة الثراء .

– هذا ما قيل لى .

– إنها الحقيقة فعلا . ألم تذهب إلى ثيفونتس من قبل ؟

– نعم ، لم أذهب إلى هناك قط .

– فلتأت معى إذن ، فأهلها يكرمون مثوى من يضربون فى الأرض على شاكلتنا .

لفظ الشيخ كلماته هذه ناظراً إلى الأفق فى شرود .

– تبغ طيب !

– أجل ، لابأس به وخاصة إذا ما داخلت الإنسان الرغبة فى التدخين .

يتناول الصديقان رشفة نبيذ من الزمزمية ثم ينهضان ويحمل الحمار « غوريون » زاد المسافر . يواصلان السير حتى يحل الظلام الذى سرعان ما حل ثم يأكلان شطيرة خبز ويبحثان عن مكان لقضاء الليل،مع آخر أضواء المساء المرتعشة .

على العشب وأسفل جدار الآجر لمطحن دقيق ، يفترش الصديقان بطانية الرحالة القطنية الرمادية اللون ،ويلتحفان بطانية الشيخ الصوفية المنقوشة بالمربعات ويستلقيان على ظهرهما جنبا إلى جنب وقلنسوتاهما على رأسيهما اللذين يتوسدان جراب الرحالة وخرج الشيخ . تفوح من الشيخ رائحة مغذية دافئة لزجة باعثة للنعاس . والحمار « غوريون » – بساقيه الأماميتين المشدودتين إلى وثاق – ساكن كجثة هامدة وغير عابىء كتمثال تائه بين ظلال الحديقة .

نم أيها الحمار الوديع

فقد حانت ساعة النوم .

وها أنت قد أكلت

زهرة الخشخاش .

وها أنـــت قد شـربت

رقوء المـــاء المنعـزل .

نم أيها الحـمار الوديع

فها قد حانت الساعة .

يغنى صـرار الليل وينبح كلب بلااهتيـاج نباحـا طويلا فاترا كأنه يؤدى مهمة أزلية .

تمر فى الطريق عـربة تجـرها بغلة رشـيقـة تعدو فـتسمع أجـراسـهـا ، ويسـمع من بعـيد أيضاً جلجل ملول لبـقـرة وديعـة ،ويصـفـر ضـفـدع فى ارض بور على الجـانب الآخر مـن الطريق . ويروح الرحالـة فى نوم عمـيق حتى مطلـع الفـجـر ، عندما تصيح الديـكة للمـرة الثـانيـة . يوقـظه الشـيخ لامسا ووجهه ببعض الحشـائش .

- صباح الخير .

-صباح الخير .

- أنشـرع فى السـير ؟

- حسن !

يعتدل الشيخ واقـفا فينشـر ذراعيـه ثم يطوى بطانيتـه بعناية ويضـعـهـا على متن الحمار ثم يتثاءب .

- أسير دائما بعـد الثانية عشـرة ، مع صياح الديك . يبـدو السـير افضل فى هذه السـاعـة ، ألا تـعتـقـد ذلك ؟ وأقـول إن النهـار خلق لـلسـيـر والمسـاء للمشـاهـدة والليل للنوم .

– بلى ، هذا ما أرى .

مازال الظلام دامسا والجو باردا والسير هينا .

– ولما كنا قد نمنا ليلة تحت بطانية واحدة وتبادلنا الدفء فيما بيننا فإننا فى الحقيقة أصبحنا صديقين ، ألا يبدو لك ذلك ؟

ويتوقف الشيخ عن السير عندما يقول :

– هذا قولى على الأقل ...

يفكر الرحالة فى أنه على صواب ولكنه لايرد .

– لأنه .. هل أنت على يقين من الموعد الذى سنفترق فيه ؟

– لا .

يأكل الصديقان فى سيرهما شيئا من الخبز والسجق ويمضى الرحالة فى صمت مستمعا إلى الشيخ الذى يغنى فى صوت خفيض أغنية بهيجة وادعة مطلعها :

« ياصبايا توربيلنيا ياصبايا فرنتيمايان » ، يتقدمهما الحمار «غوريون» عدة خطوات مأرجحا أذنيه فى إيقاع منتظم . أحيانا يتوقف ويقتلع بأسنانه الضخمة حرشفا أو خشخاشاً من حافة الطريق .

يتحدث الرحالة والشيخ عن الحمار .

– كدابة يعتبر هرما مثلى كإنسان ، ولكن الله وحده يعلم أينا سيقضى أولا ؟

يفلسف الشيخ فى الظلام ، وبطانيته على كتفيه ، بصوته المستتر ومظهره الشبحى .

– وهو دائما يمضى طليقا ، كما تراه الآن ، يتقدمنى بعدة خطوات. يضغط الشيخ على ذراع الرحالة .

– وفى الليلة التى أسقط فيها وأترك فى الطريق كالكلب سأقول له بكل ما يتبقى لى من قوة : « هيا ياغوريون » وسيواصل غوريون سيره حتى يجيء النهار ويلقاه أحدهم . وربما امتد به العمر أربع أو خمس سنوات أخرى .

يصمت الشيخ هنيهة ثم يتغير صوته الذى تعتريه الآن نبرات حادة غريبة .

– خيطت بالبرذعة ورقة تقول : « خذنى فلقد مات صاحبى » كتبها لى صيدلى فى تنبرون (Tenebrón) بالقرب من ثيوداد رودريغو (Cuiudad Rodrigo)قبل الحرب بعامين .

يصمت كلاهما برهة أخرى ثم يطلق الشيخ ضحكة .

– فلنشرب جرعة نبيذ ، فما زلت حتى الآن قوياً ولا لأحد بعد أن يقرأ ما كتبه الصيدلى .

– عسى أن يتحقق ما تقول !

– وأن تعيش لتراه يتحقق !

يخرج كلب من بين البساتين مزمجرا ، يرميه الشيخ بالحجارة فيفر ، كانت له رأس كبير وكان يحمل طوقا من المسامير أصدر صوتا قويا – كصوت ارتطام حدوةفرس برصيف – عندما أصابه حجر الشيخ .

– هاهى قرية باريوبيدرو (Barriopedro) ، على ضفاف ذلك الجدول

أحيانا يكون به شيء من ماء .. ويبدو الآن أن به ماء كثيراً وهو ينبع من اراض تسمى بيّار (Villar) .

بعد ذلك بقليل - بالقرب من الطريق - بلدرّبويو :(Valderrebollo)

- من هنا يبدأ طريق يؤدي إلى أولميدادل اكستريمو .(Olmeda Del Extremo)

ينبلج الفجر وتبيض السماء فوق آكام قاحلة ذات لون ترابى مائل للحمرة تقع وراء بالدربويو تسمى تلك الآكام لاس موراس .(Las Morras)

كان الصديقان قد سارا لفترة طويلة - مدة ثلاث أو أربع ساعات - عندما يمران بماسيغوشو .

- فى رأيى أن نبقى هنا ، لست متعجلا .

- أتعبت ؟

- لا ، لم أتعب . إن شئت وصلنا حتى ثيفونتس .

وما سيغوسو بلدة كبيرة ومغبرة وبلون الفضة وتنعكس منها أشعة ذهبية فى ضوء النهار وعندها مفترق . يذهب الرجال إلى الحقول ومحراثهم الذى تجره البغال من أمامهم وكلبهم الصغير وراءهم ، وتمضى بعض النسوة يجررن المنجل على الأرض فى طريقهن للعمل فى البساتين .

يعبر الحمار غوريون والشيخ والرحالة جسراً فوق نهر التاخونيا . يجول صياد بضفة النهر . البلدة على جانب والشمس من ورائها ، فى

حوالى الثامنة والنصف أو التاسعة يتوقف الصديقان فى الطريق على مرمى البصر من مورانتشل (Moranchel).

تقع مورانتشل على يسار طريق ثيفونتس ، على بعد مائتى خطوة من طريق السيارات وهى قرية بنية اللون لم تخلق لتحاط بالحقول الخضراء . يجلس الشيخ على حافة الطريق ويستلقى الرحالة على ظهره ويطيل النظر إلى بعض الغيوم الهيفاء كأنها حمائم تسبح فى الفضاء . ويمر طائر اللقلق على ارتفاع منخفض وبمنقاره ثعبان . وترتفع طيور الحجل من بين أشجار الزعتر . ثمة راعى غنم مراهق وشاة فى ظل شجرة نبق بزهورها البيضاء العطرة كأزهار البرتقال .

ينعس الرحالة راقداعلى ظهره ويفكر فى سفر العهد القديم .

تمر شاحنة صاخبة وقذرة وقبيحة الهيئة مثيرة زوبعة من التراب . يخيط الشيخ زرا فى سترته عندما يقف الرحالة على قدميه .

يدخل الصديقان ثيفونتس عند الظهر ، وهى بلدة بديعة بهيجة كثيرة الماء ، بنسائها ذوات العيون السوداء العميقة ومحالها التجارية المتنوعة التى تعرض أسرة مطلية بالنيكل وأطقم صوانى المشروبات الكحولية وستة أقداح وصينية مرآة وصور منعشة وممتعة ومن مائة لون تمثل « العشاء المقدس » وطاحونة هواء من التيرول محاطة بقمم شامخة مغطاه بالجليد.

ويلوح مرتفع لاأوركا (المشنقة) خلف البلدة ، وهى سلسلة جبلية تنتهى بهضبة منبسطة كالطبق . قديما ، حسبما يشرح للرحالة ، قبل أن تخترع مصارعة الثيران لتروح عن البسطاء من الناس الذين يرغبون فقط فى رؤية قليل من الدم ، كانت هذه الهضبة تستخدم فى تنفيذ أحكام الإعدام . يفكر الرحالة فى أن المكان لا بأس به من اختيار ، فلمرتفع لاأوركا منظر رائع بلا شك . ويفكر أيضا فى أن من المؤسف ألا ترتفع هناك منصة الإعدام ، كانت ستبدو بديعة .

على مشارف القرية – بالقرب من النهر – يوجد مصنع برازع «لاراتا» (الفأر) ، وهى ورشة صغيرة مزركشة وساحرة ، ورشة من العصور الوسطى متفائلة ومفتوحة على جميع الاتجاهات كالسوق . والفأر هو «فليكس ماركولاينا» ، رجل ذو مرهبة أن استطاع أن يستغل لقبه وأن «يعصره» كأنه ليمونة .

والفأر ، فى حانوته ومحاطا بالبرازع مختلفة الأنواع والأحجام ، هو قنصل القرية وداره هى السجل العام لذهاب وإياب الناس ، فالناس إن آجلا أو عاجلا ينتهون دائما إلى مصنع برازع «الفأر» طلباً لرباط سرج أو ظهر برذعة ، أو بحثا عن ثفر أو فرش تحتانى أو قطعة قماش بالية . يهدى الرحالة لبدا إلى الحمار غوريون. ويحرك الحمار غوريون ذنبه فى عصبية كأنه طفل صغير بينما يلبسونه اللبد .

يسير الصديقان فى الغوطة ، فى اتجاه معاكس للقريّة . سوف يأكلان ويتمددان بعد ذلك ساعة القيلولة عند عين البيوخو (البرغوث) بمائها الرائق السلسبيل الشهير فى كل الناحية .

تمتد البساتين الوارفة فيما بين عين البيوخو والنهر . ترى أسوار قلعة متهدمة اعلى الطريق المؤدى إلى غارغولس (Gàrgoles) . ويجهل الشيخ من صاحبها كما تجهله امرأة تعبر الطريق .

– هى الآن ملك لسيدة ماركيزة .

فى الثالثة مساء ، يعود الرحالة أدراجه ويدخل ثيفونتس ، فله هناك صديق يبغى زيارته . يمكث الشيخ عند عين البيوخو ليهضم طعامه فى الظل .

– نلتقى فيما بعد .

- حسن .

يسمى صديق الرحالة الذى يقطن البلدة «اربيتيتا» . و«اربيتيتا» شريف خشن فى العقد الخامس أو السادس من عمره ، قوى البنية ، يفيض صحة ، له ستة أبناء تجاوزوا مرحلة الصبا ، وبيت بثلاث شرفات على طراز فرنسى يدخله الهواء كأنه صالة فى مسرح أوبرا .

- ثيفونتس هى عاصمة إقليم القرية . إذا كان الإقليم يمتاز بعسله الأبيض فإن أكثر العسل ينتج فى ناحية نيفونتس : فى «أويتر» (Huétar) و «روغيا» (Ruguilla) و«أوتيرو» (Otero) و«كارا سكوسا» (Carrascosa) .

يتحدث صديق الرحالة بفخر عن ثيفونتس . بينما يتنزهان فى البلدة، يحدثه عن تاريخها ، يحاط الرحالة علما بأن القلعة شيدها دون خوان مانويل ، وأن الكنيسة أقامتها عشيقة الفونسو الحكيم [1] واسمها دونيا مايور . يتذكر الرحالة على نحو غامض أنه قرأ فى كتاب منذ أعوام أن دون خوان مانويل يلقب بالمعربد الكدر . أما دونيا مايور فهو لم يسمع عنها فى حياته . يرى العديد من الأبواب المزينة بمسامير الحديد جميلة الشكل رائعة الرسم لها مقابض ومقارع من الحديد الأسود ورسمت عيون مفاتيح الأبواب على شكل قلب أو سباتى أو زهرة الزنبق أو الأرابيسك .

وينبع نهر الثيفونتس أسفل نفس بيوت البلدة ، ثم لا يلبث أن يحرك طاحونة هواء ، فالبلدة قائمة على عين ماء . ونهر الثيفونتس هو نهر مبكر النضج ، فحجمه ضئيل وماءه كثير ويصل حتى تريو (Trillo) ليصب فى نهر التاجه ، وطوله لا يزيد على أكثر من فرسخين ولكنه غزير بالماء ، أغزر بكثير بلا شك من العديد من الأنهار الطويلة . وفى المسافة القصيرة التى يقطعها يمضى نهر الثيفونتس بين مسقط ماء

(١) ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ - ١٢٨٤) ، شهد عهده حركة تأليف وترجمة واسعة .

وآخر ، فيثب فوق الحجارة فى خمسين موضعاً على الأقل .

فى بركة طاحونة الهواء ، يسبح سرب من البط خفيف الظل له ريشة واحدة مقوسة وبراقة فى ذيله وهى ريشة رصاصية اللون لها بريق أخضر وأزرق وأحمر . ينعس بعضه على ضفه النهر واقفا أو راقداً ورأسه تحت جناحه . ويتجول البعض الآخر ويصيح ويتحرك فى كل اتجاه كأنهم بحارة . يطل الرحالة من حاجز الجسر على بعد يزيد قليلاً عن المتر ويلقى للبط بكسرات الخبز فيسرع البط فى لقائه ضاربا الهواء بأجنحته على سطح الماء . أما البط الذى كان ينعس على الشاطئ فما يلبث أن يصحو ويتمطى وينظر لحظة ثم يشرع فى السباحة هو أيضا .

يحكى أربيتيتا للرحالة وهما يتجولان بالبلدة أسطورة عين الذهب الواقعة فى سفح تل «سان كريستوبال» على الطريق المؤدى إلى «روغيا» . وهى حكاية أدبية ، ربما كانت أدبية جداً ، حكاية العرب والنصارى وحبات لب ذهبية كبيرة فى حجم الكريز ، أميرات عذارى جميلات بيضاوات غامضات كأنهن القمر . وللحكاية طعم الخرافات الجميل . يفكر الرحالة على غير عادته فى رواة العصور الوسطى الذين كانوا يعزفون على العود فى أفنية الحريم فى القصور ثم كانوا يجلدون فى أفنية السادة إذا ما تحدوهم حتى تسيل دماؤهم .

يقرأ طفل مريض جالس فى الشمس أقاصيص «أندرسون» فى كتاب جميل الطبع مغلف بالكرتون ، عندما يمر به الرحالة يرفع رأسه وينظر إليه . وهو طفل أسمر اللون وشعره مجعد وعيناه سوداوان وبشرته شاحبة وابتسامته مليحة وبها مرارة سابقة لأوانها . نصفه الأسفل معوق وهو جالس دائما على كرسيه الخيزرانى الصغير . يسأله الرحالة كيف حاله ويرد الطفل أنه بخير وأنه شاكر جداً وأنه يستمتع بالشمس قليلاً .

تطل أمه من الباب . يطلب الرحالة قليلاً من الماء فتدعوه أم الطفل للدخول وتقدم له كوب نبيذ ثم تشرح له أن الطفل اسمه بكيتو وأن ولادته كانت عادية فقد ولد نبيها ، بيد أنه سرعان ما تبدل حاله وأصيب بشلل الأطفال ، وأنه فى بعض الليالى بعد أن يحمل إلى فراشه يسمع نحيبه الخفيض الطويل حتى تأخذه سنة من النوم ، وتشرح له أيضا أنها تحاول أن تتقبل الوضع أحسن تقبل حيث أن هذا المرض ما هو إلا امتحان أعده لها الرب ليبلوها .

– رزقنا بولدين آخرين توفى كلاهما فى صباهما . يقول زوجى : أى إثم ارتكبناه ؟ للمرأة عينان بائستان . تطيل النظر إلى الحائط ثم تضيف :

– فى النهاية ، هذا هو مصيرى المحتوم !

عندما يصل الرحالة إلى الميدان يرى صديقه الشيخ وحماره «غوريون» إلى جانبه .

– كنت أنتظرك .

– حقيقة ؟

– نعم ياسيدى ، كنت أريد أن أودعك .

– ولكن إلى أين يا سيدى ؟

– ما أنا براحل . سأمكث هنا . لقد ظهر لى عمل «حقير» وسأبقى هنا ثلاثة أو أربعة أيام حتى أنتهى منه . أعتقد أنك ستواصل سيرك .

يتحير الرحالة فى أمره لوهلة .

– نعم ، سأواصل السير .. فلم يظهر لى أى عمل .

يتكلم الشيخ متصنعاً شرود الذهن ومحملقا فى رأس «غوريون» كأنما يريد أن يقلل من أهمية كلماته .

– إن الأجر لزهيد لكن – إن شئت – فنصفه لك ...

– لا ، أشكرك على أية حال ، ليس هذا بزمن طيب يحتمل أن نتقاسم الرزق .

– لك ما شئت .

تلتقى نظرتا الرحالة والشيخ .

– فى أى اتجاه تذهب ؟

– كنت أفكر فى الهبوط حتى «تريو» .

يتصافحان ويودع كل منهما الآخر .

يجلس الشيخ ثانية بعد أن كان قد نهض واقفا بينما يشق الرحالة طريقه – ولم لانقولها ؟ – محزونا بحارة تسير فيها سيدتان تحملان جرتيهما على ذراعيهما . ويسأله صديقه القاطن فى ثيفونتس :

– من هذا ؟

فيجيب الرحالة :

– صديق قديم لى ، رجل طيب اسمه «خيسوس» ، من ناحية «بلمونتي» ، من قرية تسمى «بياسكوسا» (Villaescusa) وحالة مثل حالى الآن ، تذهبه المقادير وتعيده .

فى كنيسة السلبادور ثمة منبر من الخشب أو المرمر قد يساوى ثروة ، فهو منبر ذو قيمة كبيرة . به أشكال نحتت بعناية فائقة وينتهى من أسفل برأس لها وجهان مثل رأس يانوس (١) وإن اختلفت عنها فى أن الوجهين لرجل وامرأة . ويحكى القس للرحالة آخر حكاية عن المنبر .

---

(١) رأس من النحت البارز بوجهين ، من مقتنيات متحف بوسطن للفنون الجميلة – المترجم.

– بعد الحرب كلفنى العثور عليه مشقة بالغة . وأخيراً وجدته فى مدريد ، فى أحد المتاحف . فى أول الأمر ، لم تكن لديهم رغبة فى إعادته ، فقد كانوا يريدون إعطائى منبراً آخر بدلاً منه . وفى أحد الأيام ، ذهبت وبرفقتى أحد الجيران عنده سيارة نقل ووقفت على باب المتحف لا أتزحزح وقلت لهم : هيا أعطونى هذا المنبر فهو لى . ثم رفعته إلى السيارة ، وهو ذا أمامك .

والقس هو قس شجاع وحازم وظريف ونشيط وفخور بمنبره ، وعندما عثر عليه أحضره إلى هنا وانتهى الأمر .

وللكنيسة باب مؤد إلى فناء به عريش وبعض الشجر . والفناء يؤدى أيضا إلى منزل القس .

– هذا أفضل لى .. إذا أردت أن أستنشق الهواء أحضر إلى هنا ولا أضطر إلى الخروج إلى الشارع إلا عند الضرورة .

وبيت القص نظيف جيد الإضاءة . أرضيته الخشبية غسلت جيداً وطليت حوائطه بالجير . يرافق القس الرحالة حتى الباب .

ينبغى هبوط عدة سلالم لأن الأرض غير مستوية . فالباب المطل على الفناء هو فى نفس مستوى الفناء ، ولكنه فى مستوى نوافذ الطابق الأول من ناحية الشارع .

يفترقان عند الباب .

– حسن يا سيدى القس ... وداعاً تشرفت بمعرفتك .

– وداعاً يا رجل .. لا أستحق هذا كله فأنا الذى تشرفت بك .. أرجو لك التوفيق .

يبتعد الرحالة برفقة صديقه وقبل أن يصلا إلى ناصية الشارع ، يلتفت

إلى الخلف ، يودعه القس الواقف فى وسط الطريق ملوحاً بيده .

يفتش كلب فى كومة قمامة . فى أحد الأركان ، يرقد دنان من الطين ضخمان خاويان على جنبهما فى لهيب الشمس .

– هيا بنا الآن نتناول وجبة خفيفة إن بدا لك ذلك مناسبا . فيما بعد نذهب إلى تلك الدار التى يسمونها المعبد اليهودى .

وكما كان متوقعا ، يبدو للرحالة مناسباً جداً أمر تناول الوجبة . فهو جائع ، وفى بيت أربيتيتا يتناول كوباً من اللبن الدسم بلون الزبد وقطعة خبز أبيض حشيت جيداً وطولها شبران .

بعد أن امتلأ بطنه يبدو الرحالة شاعريا . يلاحظ هو ذلك فيحتاط للأمر .

– أنذهب إلى المعبد اليهودى ؟

– نفعل إذا أردت .

بعد تناول الوجبة ، كان قد بدأ يفكر فى عصافير مزغردة وفراشات رشيقات وأطفال ضالين وأباطيل من هذا القبيل . هذا ما تسببه البطون الملآنة : فهى تعمر الذهن بأفكار لا تعدو على كونها أفكار آنسة تعلم الناس مبادئ الكاثوليكية .

والبيعة اليهودية بيت من طابقين نوافذه صغيرة نسبياً وبه بهو أعمدة. فى البهوبئر ارتفعت حافته وغطيت بألواح خشبيه . ينقر بعض الدجاج الروث ، بينما يحفر خنزير الأرض بفنطيسته مهمهما .

ينادى الصديق بصوت عال .

– ماريا .. اخرجى .. لقد جئنا لرؤية بيتك .

تخرج ربة الدار مجففة يديها فى مئزرها .

– سترى القليل ، فهذه الدار فقيرة جداً كما ترى .

تعبر طيور السنونو سماء الفناء سريعة كالشعاع . فهناك أوكارها ، بين عروق خشب السقف وأسفل تيجان الأعمدة . ثمة أيضا فى مستوى النصف الأعلى من الحائط آثار أعشاش أخرى هوت وحدها أحد الأيام دون أن تمسها يد إنسان .

– فى الواقع إن طيور السنونو مثل الأشخاص ، منها الذكى ومنها الأحمق . انظر يا سيدى كيف أن أوكاراً أخرى لم تسقط .

بعد أن تشرح ربة الدار أمر أوكار طيور السنونو ، تحضر من الداخل كرسيين كى يجلس الرحالة وصديقه . فى جو المساء المنعش ، يستطاب الجلوس فى الأفنية والتدخين وتجاذب أطراف الحديث مع صاحبة معبد يهودى .

– الا تعلم يا سيدى أن هذا المكان – فى زمن غابر – كان يكتظ باليهود؟

– إن هذا لمبعث أسفى .. لعنة الله على قتلة المسيح ..

وكالعادة يدرك الرحالة بعد فوات الأوان أنه ارتكب خطأ . حينئذ يفكر معزيا نفسه فى أن المرأة لابد أنها لا تجهل أنهم فى كل المنطقة يسمون أهل ثيفونتس – وأهالى الوبيرا (Alovera) وتاراثينا وتوريخا وأوثيدا (Uceda) – باليهود لتحقيرهم . بيد أنهم يسمون أيضا أهل رومانكوس (Romancos) بأنهم يحنثون القسم ، وهى والله لسبة أسوأ وأضل سبيلاً .

ويفكر الرحالة أيضا فى أنه سواء أكان ذلك صحيحاً أم خطأ فإنها العادة على أية حال . حينئذ ، ينهض ويتحدث عن المحصول الذى يعتبر خير

موضوع للحديث هذا العام وعن حالة الطقس وعن أنه يرى الدجاج على ما يرام وهو يقفل عائداً إلى الحظيرة مرتقيا عدة ألواح خشبية . تسترخى حمامتان أعلى كومة من الحطب ، ويدخل طفل متأبطا بطاقة التموين .

– ياولد ، حى هذا السيد !

– عمت مساءً يا سيدى !

ينفح الرحالة الطفل عشرة سنتيمات متودداً إليه .

– ماذا يقال ياولد ؟

– جزيل الشكر لك يا سيدى .

يقف الطفل على مقربة شبر من الرحالة ويمعن النظر إليه وتبلغه أنفاسه . لأنفاسه رائحة عجلة صغيرة أو عجل صغير ، رائحة منعشة .

– تعرف الحروف ؟

– نعم يا سيدى .

– أى حرف هذا ؟

– حرف E .

– وهذا ؟

– حرف M .

– عظيم تعرف القواعد ؟

– لا يا سيدى ، القواعد لا أعرفها .

عودة إلى الطريق مرة أخرى ، يتبدل الضوء . فقد غربت الشمس خلف التلال وراء عين البيوخو وبدت المنازل خافتة معتمة . ربط الحمار

غوريون ، الذى ينعم اليوم بالراحة التامة ، إلى حلقة حديدية بباب منزل محركا ذنبه . عبر الباب المفتوح ، يرى فناء يقوم فيه الشيخ الذى كان الرحالة قد التقى به فى بريويغا وكان يأكل خبزا وسردينا مدخناً أسفل أحد أعمدة البواكى ، بتفريغ بئر أسود : عمل حقير .

يحل الظلام بثيفونتس» فى سرعة شديدة . يرى جزءاً من مرتفع «لاأوركا» منعزلا أعلى البلدة . وكانت أجراس السلبادور فى برجها الذى قصمته قنبلة إلى نصفين – كأنه قطع بسكين – قد دعته إلى الصلاة منذ حين .

برج قطع

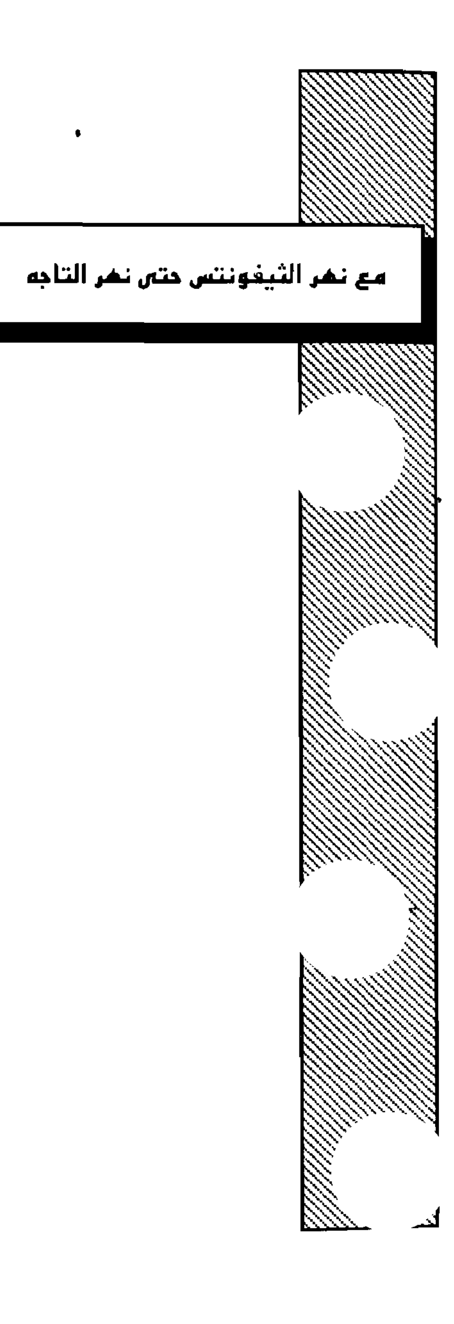
بهدية إلى قسمين

والشمس تسمع

فى أجراس السلبادور .

يفكر الرحالة فى أن غدا سيكون له شأن آخر .





مع نهر الثيغوننس حتى نهر التاجه



يخرج الرحالة فى الصباح الباكر من «ثيفونتس» ويأخذ طريق «تريو» تاركا النهر عن يمينه وقصر «دون خوان مانويل» عن يساره.

بعد قليل سير ، تلوح قمتا «لاس تيتس دى بيانا» (ثديا بيانا) المجدوعان ، المنعزلان فى الأفق . بعد ذلك ، عند بلوغ قمة هضبة هينة ، تلوح أيضا «غارغوليوس» – (Gargolillos) ببرجها المدبب ، ثم «غارغولس» ببرجها المربع الشكل ، ويسمى البعض قرية «غارغوليوس» : «غارغولس أعلى» ، وغارغولس : «غارغولس أسفل» والاثنتان تقعان على ضفاف نهر «الثيفونتس» ، إلا أن غارغوليوس تقع بعد الانعطاف قليلا عن طريق السيارات فى نهاية طريق بديع محفوف بالأسوار وأشجار العليق .

الجو مائل للبرودة والسير ممتع . على صفحة النهر يمتد شريط شاحب شفاف من الضباب . تحلق طيور الزرزور والسمان ويثب طائر العقعق ذو اللونين الأبيض والأسود من حجر إلى حجر ، بينما تصفر قبرة فى المزارع . يهب نسيم الصبح على الحقول والهواء نقى ووضاء وشفاف وصاف . وما أن يجتاز منعطفا حتى تختفى ثيفونتس .

يمتد الطريق بين أشجار الحور المتفرقة غير الكثيفة وتخضر بساتين الطماطم فيما بين الطريق والنهر .

على الجانب الآخر ، تبدو الأرض جافة خشنة بنية اللون . على الأديم القاحل ترى نعاجا بيضاء وسوداء - أو كستنائية معتمة - اختلط بعضها البعض ، وفى أراضى الرى ثمة نسوة واطفال يحرثون الأرض .

الطريق خاو ، فلا من غاد أو رائح . ينتقل الرحالة إلى جانب بيت كبير من الحجارة يبدو مهجوراً وهو محاط ببساتين وبحديقة صغيرة . على بوابته لافتة تقول :

«ممنوع الدخول .. منزل خاص» . يجلس رجل على إحدى علامات الطريق يصلح من شأن طاولة عليها هدايا مقلدة .

- آت من ثيفونتس ؟

- نعم .

- وكيف الحال ؟

- حسن .. على ما يرام ؟

تصدر عن الرجل إيماءة عدم رضا .

- حسن ، لن أذهب ..

- لم يا رجل ؟

- أجل .. ماذا تريد ياسيدى ؟ لن أستمر ، فلا أحد يصدقنى القول .

جفنا البائع عاريان فليس بهما هدب واحد ، وله قدم خشبية ربطت فى غير إحكام إلى الساق بعدة أربطة ، وفى وجهه أثر جرح بطول جبهته ، وفى إحدى عينيه سحابة سماوية اللون أو بيضاء تقريباً . وهو قصير القامة ضيق المنكبين سريع الغضب .

- لا أحد يصدقنى القول ويشعر الناس نحوى بالغثيان . أتعرف

ياسيدى كيف يدعوننى فى وادى الحجارة ؟

- كلا .

- يسموننى الغائط .. كيف يبدو لك هذا ؟

- حسن يا رجل .. يبدو لى سيئاً ، هذا أقل ما أقول .

- هؤلاء الزاحفون على الأرض ! فليزحفوا حتى تنفصل جلودهم عن اجسادهم ، هلاَّ اعطيتنى بعض التبغ لغليونى ؟

يقدم له الرحالة علبة التبغ .

- بلى ، بكل امتنان. ها هو ذا ياسيدى .

- لم تقول بكل امتنان ؟

يتردد الرحالة قبل أن يجيب .

- لأنها الحقيقة ، هيا ، أشعل الغليون .

- حسناً يا رجل لا تتضايق . يالضيق صدور الناس ! عسى ألا تظن أنك إذا ما اعطيتنى قليلاً من التبغ يمكنك التصرف معى على هذا النحو . اسمع يا سيدى ، هل انت من أرانثويكى (Aranzueque) ؟

- كلا .. لم ؟

- لا أعرف .. بدا لى أن وجهك ينم عن إنسان جائع .

ينظر الرجل إلى طاولته ويرتب قليلاً الشرائط الملونة وأوراق حُسن الطالع وأمشاط المعدن المذهبة المصقولة البراقة كالمرآة .

- لا تباع مقشة واحدة .

- أجل .. إن هذا لزمن سيئ .

يرفع رأسه وينظر إلى الرحالة بتمعن .

– وهل تشتكى وأنت بهذا الطول وساقاك صحيحتان ؟

يفكر الرحالة من توه فى أن لهذا الرجل الذى يبيع الشرائط الملونة طريقة محيرة فى الجدل .

– لقد سرقوا منى ثروة ضخمة ، إرثا ..

– حقيقة ؟

– نعم يا سيدى ، أم أنك لا تصدقنى ؟

– أجل أجل ، لم لا أصدقك ؟

– حسناً ، لقد كانت ثروة نائب الملك فى بيرو . ألم تسمع عن نائب الملك فى بيرو ؟

– بلى .. كثيراً .

– لقد ترك كل ممتلكاته لى . فعلى فراش الموت استدعى موثق العقود وكتب فى ورقة أمامه : «أوصى أنا دون خيرونيمو بيياغس إى مارتين، نائب الملك فى بيرو بكل ممتلكاتى الحاضرة والمستقبلة لابن أخى استانيسلاودى كوستكا رود يغث إى روديغث الشهير بالغائط» . احفظها عن ظهر قلب . وهذه الورقة محفوظه فى روما لأننى أخذت عبرة من التجربة ولم أعد أثق إلا فى البابا . وقف البائع على قدميه ثم أكمل :

– لقد سرقوا إرثى وتركونى فى أعظم .. (١)

تأخر الرحالة قليلاً فى إدراك أنه أراد أن يقول : فى أعظم فاقة.

---

(١) يلفظ البائع عن طريق الخطأ كلمة ليس لها معنى – المترجم .

– ولكنني أقول : فيم يفيدهم ذلك إذا كانت الحقيقة كاملة ستظهر في «وادي خوسافات» (١) ؟

– حقيقة ؟

– طبعا يا رجل ، طبعاً . إذا ما قال أهل وادي الحجارة شيئاً بليل فإنه بالنهار كأنه لم يكن . ولكنا سنرى الحقيقة في وادي خوسافات . اسمع، هلا سرنا ؟

– حسناً ..

يسير الرجل في صعوبة .

– إن الساق الخشبيه طويلة قليلا .. اسمع ، ألا يثقل عليك زادك ؟

– بلى ، بعض الشيء .

– ولم لا تلقي به عنك ؟

بعد ساعة ، تلوح قرية غارغولس أعلى ضفة نهر الثيفونتس ، بعيدة قليلاً عن طريق السيارات . ينتظر رجل بطاقية وكوفية وامرأتان شابتان مرور الحافلة . وثلاثتهم هم كل من يلتقي بهم الرحالة من أهل غارغوليوس . تدل سيماهم على أنهم خيرون ، وإن أسماهم أهل القرى المجاورة «أقمطة» ومعناها قريب من معنى كلمة لصوص.

يسمع الرحالة كيف فقد البائع ساقه .

– كنت أقول لك إنه في يوم «سان إنريكي» في عام إعلان الجمهورية قلت لنفسي : استانيسلاو ، يجب أن تنتهي من هذا الأمر ، فأنت والله

---

(١) تعبير عامي ساخر يقصد به الوداع إلى الأبد . يقال : إلى اللقاء «في وادي خوسافات» – المترجم.

لبائس . ألا ترى أنك شقى ؟ وكان القيظ قد اشتد إلى حد لا يطاق . وكنت فى كامبوريال (Camporreal) ثم ذهبت إلى أرغندا (Arganda) ونمت على شريط السكك الحديدية وقلت لنفسى : عندما يأتى القطار سينتقل استانيسلاو إلى العالم الآخر . لكن ، هيهات ! أقسم لك إنى ظللت هادئا وادعا مادام لم يأت القطار ، وما إن أطل من بعيد حتى لاحظت كأن بطنى تسهل . تماسكت قليلاً ، لكن عندما أصبح القطار أعلى رأسى قلت لنفسى: أهرب يا استانيسلاو إنه سوف يدهمك . قفزت قفزة لكن ساقى بقيت فى موضعها ، ولولا أسعفنى بعض عمال مصنع السكر لكنت نزفت كل دمى كخنوص . حملونى إلى بيت الطبيب وعالجونى هناك وأطلقوا على هذا اللقب عند رؤية ما كانت عليه سراويلى . كان من بين من نقلونى رجل حمل الرجل المقطوعة فى يده ممسكا بها من الحذاء ومتسائلا : اسمع ، ماذا أفعل بهذه ؟ ويبدو أن الطبيب لم يكن يدرى ماذا يفعل لأن رده الوحيد كان : هذه تسمى ساق ، أيها الأبله ، هذه تسمى ساق .

يرى الرحالة أن من الفطنة مقاطعته ، فقد اتخذ البائع مظهراً بائساً وطأطأ رأسه عند الحديث عن الساق التى تركها فى أرغندا .

– أتريد أن تشعل غليونك ثانية ؟

– حسن ، هل تفهم فى تدخين الغليون ؟

– قليلاً ..

– من الأرجح إذاً ألا أشرح لك شيئاً .. يكفيك أن تعلم أن هذا الغليون هو «كاميليا دى لوكس» من باريس فرنسا . ياللشقاء ! ما أكثر الجهلة ! اسمع يا سيدى ، أتدرى من أهدانيه ؟

– كلا ..

– احفظه جيداً إذاً . إنه الجنرال ويلر [1] (weyler) ، وكان ذلك فى طريق روسالس فى مدريد .

نظر الرجل إلى الرحالة بهيئة المنتصر ثم ابتسم :

– هاها . مع من كنت تعتقد أنك تتحدث ؟

تجاوزت الساعة الحادية عشر صباحاً ويحس الرحالة بالجوع .

– أتقسم لى أنك لست من أوانثويكى ؟

– نعم يا رجل اقسم لك .

جلس البائع على حافة الطريق وفك الساق الخشبيه وأشعل غليونه .

– حسناً . فلناكل شيئاً إذاً . ماذا تريد ؟ أتخلط الطعام أم أن كلا يأكل من زاده ؟

– من الأفضل أن نخلط ، ألا يبدو لك ذلك ؟

– بلى أرى ذلك ، وأعتقد أنك تجحف الزاد حقه ، لكن على أية حال ، أنا لم أحضر إلا نزرا يسيراً من اللحم المقدد .

وأكل الرجلان وشربا من جراب ونبيذ من كانت له ساقان صحيحتان. ربما بدا هذا غريبا ، لكن فى الريف – قد لا يحدث هذا فى المدينة – عندما يجلس رجلان على حافة الطريق ، يمكن أن يرى بوضوح أن الله ينظم الأشياء على قدر كبير من المنطق . التهم البائع الطعام التهام الأسد، بينما أخذ الرحالة يفكر فى أن الرجل قد يكون من ارانثويكى .

– يعجبنى أكل هذا الدهان بدون خبز . دع الخبز إلى ما بعد فقد

---

(١) قائد الجيوش الإسبانية فى كوبا (١٨٩٦ – ١٨٩٧) . لم تفلح خبرته وعزمه فى الإبقاء على المستعمرة . استقبله الشعب استقبالا حافلاً عند عودته من هناك .

تحتاجه . قال بائع الأشرطة هذا وهو يلتهم علبه الـ Foie. gras . بعد الأكل، تحول الرجل إلى محقق :

– اسمع ، ما هى حرفتك ؟

– حسن .. كما ترى .. أمضى فى طريقى مجربا حظى .

– لا لا .. اجب كما لو أن الحرس المدنى يسألك .. ما مهنتك ؟

لم يكن الرحالة يدرى بما يجيب .

– قل يا رجل ، قل .. فأنا لست بمتشدق ، علاوة على أنه إذا ما أمعنا النظر سنجد أننا جميعاً نلقى ما كتب لنا ، هذا إذا ما كان لنا حظ فى أى شئ على الإطلاق . حسنا .. ما هذا إلا محض افتراض . فهمنا من لا يتحين الفرصة هو أدرى بما ينتظره «إذا ذهبت إلى الياس ضع عباءتك على مرمى البصر لأنه إذا جاء أهل «فوينشميان» سوف يسرقونها منك» (١) والآن إذا لم ترغب فى الحديث فلا تقل شيئاً . فهذا لا يهمنى شخصياً .

صمت البائع لحظة وعاد فأخذ جرعة نبيذ ثم استأنف :

– أمى كانت تقول : فى هذه الدنيا كل من يأكل يسرق ، ومن لا يسرق لا يفعل ، لأنه لا يعرف كيف يسرق ، فما هى حرفتك ؟

قبل قليل من دخول «غارغولس أسفل» ، وبعد السير فترة أخرى ، ودع البائع الرحالة فجأة :

– أتعلم يا سيدى ؟

– ماذا ؟

– حسن .. لن اتقدم خطوة واحدة أخرى ، فأنا لن أدخل هذه القرية ..

---

(١) مثل إسبانى .

– أأنت مكدود ؟

– لا ، لست مكدوداً . لقد أكلت اليوم ولا أريد أن أغضب الله . فأنا لا أدخل القرى إلا بحثا عن الطعام ، وعندما أفرط يعاقبنى الله ويجعلنى أتقيأ دما . اسمع ، هل سيمكنك حينئذ أن تغيثنى ؟

فى غرغولس ، يجد الرحالة كهوفاً لها أبواب موصدة بأقفال تستخدم عادة فى حفظ النبيذ والبطاطس . لا يتورع الناس عن وضع العراقيل فى طريق صديقه استانيسلاو دى كوستكا ورد ويغث إى رودر يغث بن أخى نائب الملك فى اليبرو.

وحتى لا ينسى الرحالة كيف كان «الغائط» ، يسجل فى ورقة نصف بياناته :

دون استانيسلاودى كوستكا

له ساق خشبية .

بائع جائل فى طريق القرية .

– شرائط

دبابيس

زجاج ملون

دبابيس للشعر

أمشاط

ورق معطر

حانوت آمال الحكماء .

دون استانيسلاو دى كوستكا

يحمل على عاتقه ملاكا شريراً .

غارغولس قرية بستانية حرثت أرضها بعناية وسكانها مجتهدون فى عملهم . هناك ، يلتصق طريق السيارات بالنهر ويستمران على هذا النحو حتى تريو . ينظر عدد من الأطفال الجالسين على سياج إلى الرحالة ويشرئب الفلاحون ثم ينهضون وينظرون أيضا . يدخل الرحالة فندقا ليس له اسم كفندق «توريخا» لينعم بقسط من الراحة ويغتسل وينتظر موعد الغذاء .

وفندق غارغولس على يسار الطريق شأنه فى ذلك شأن البلدة نفسها – من ناحية ثيفونتس ، وله بوابة كبيرة مزخرفة بالمسامير ، وهى عتيقة جليلة كأنها بوابة قلعة . يعلق الرحالة مرآته فى مسمار فى نفس البوابة ويحلق ذقنه ، ويرى من خلال المرآة أن خمسة عشر أو عشرين شخصا يراقبونه من بعيد .

يخرج من الدهليز بغال يسحب بغلتين وينقر عدد من الحمام كومة قش ويرقد كلبان تمددا فى الشمس ، ويجلس طفل القرفصاء بدون سراويل يقضى حاجته على أحد الأسطح وتدخل طيور السنونو وتخرج صارخة كأن بها مسا من جنون من الدهليز المكتظ بالأعشاش ، فأبواب الفندق لا تغلق أبداً .

يدخل الرحالة حجرة الطعام ، وهى حجرة مربعة الشكل سقفها عال بعروقه الخشبية العارية من خشب القسطل المعرض للهواء . وتزين الحوائط نصف دستة من الصور المطبوعة تمثل عصافير حية مختلفة الألوان وأرانب رمادية ميتة معلقة من أقدامها وسرطان البحر المطهو

وأسماك التروتة الفضية اللون بعيونها الزجاجية.

تقوم على خدمة الموائد خادمة حُسناء مكتنزة داكنة البشرة تلبس السواد . عيناها سوداوان عميقتان متأملتان وفمها كبير وشهوانى وأنفها دقيق بديع الرسم وأسنانها بيضاء . وخادم غارغولس منغلقة جافية فلا تبتسم ولا تتكلم ولا تنظر ، تبدو كأنها سيدة عربية .

يحوم كلب سلوقى حول الرحالة ، الذى يتناول حساء الثوم وعجة البيض والسمك المعلب ، وهو كلب مراع للذوق ومتعقل فلا يضايق أحداً ولا يسأل شيئاً ، كلب يصبر على فاقته فى عزة .. يأكل عندما يعطونه وإذا لم يفعلوا تغاضى عن الأكل . فى ظله ، دخل كلب أخر أشقر كثيف الشعر فى هيئته شئ من ذئب تتردد نظرته بين حانية ومتعجبة . وهو كلب سوقى بلا روح . يزمجر ويكشر عن أنيابه إذا منعوه وهو جائع فعندما يلقى إليه الرحالة بكسرة خبز جافة يلتقطها فى الهواء ثم ينتحى جانباً فيستلقى ويلتهمها . وينظر إليه السلوقى الأسود فى اهتمام لكن دون أن يحرك ساكنا .

بعد تناول الغذاء ، يشعل الرحالة سيجارة وينهض ويقرأ على الحوائط المطلية بالجير بعض العبارات المكتوبة بالقلم الرصاص وكأنها دورات مياه فى معاهد التعليم الثانوى .

ثمة عبارات من كل الألوان والأذواق . إحداها مكتوبة بخط مطبعة واضح يقول : فرقة المسرح والمنوعات . فرقة أوليبارس – حفلتين بـ ٦٠٠ بزيتة – بنجاح كبير ١٩٤٥/٣/١٢ ، وهى عبارة راضية ومتفائلة ومفعمة بالحبور . ثمة أيضا راس امرأة مسترسل بإمضاء فرمين غونثالث ، من كوينكا ، وهو توقيع جميل وفخم وأنيق ، توقيع له مظهر قضائى متحد.

يخلع الرحالة نعليه ويتوسد جرابه ويلتف فى بطانيته ويستلقى للنوم

فى أحد الأركان على الأرض . إلى جانبه استلقى السلوقى الأسود أيضا كأنه يحرس نومه فى الوقت الذى خرج فيه الكلب الأشقر إلى الشارع . لقد كان كلبا بلا شخصية ، يفتقر إلى الحكمة ، فلم يكن ليستطيع أن يتحمل أن يظل ساعة أو ساعة ونصفاً بلا حراك ، دون أن يفعل شيئاً .

يتفرع من غارغولس طريق سيارات يؤدى إلى ثاثيدون مباشرة ويمتد عدة فراسخ على ضفاف نهر التاجه . يتردد الرحالة بين التوجه إلى بلدة تريو متبعا نهر الثيفونتس حسبما كان قد انتوى ، وبين أن يئد النهر الذى شهد مولده ليأخذ طريقا جديداً ، منتحياً قليلاً عنه ليقضى الليل فى «غوالدا» (Gualda) . خارج غارغولس ، فى اتجاه تريو ينهال رجل ضربا على حمار أسود ضخم يرفس رفسات رهيبة ويرفع شفته العليا مكشراً عن أنيابه ، وتشرح امرأة للرحالة أن الحمار يبدو من قرية «إيتا» (Hita) . ويبدو أن حمير إيتا – كنساء فراغوس (Fraguas) – لا تتمتع بسمعة طيبة فى الإقليم .

بعد ذلك بقليل ، يغير رجلان إطار إحدى الشاحنات حملت عن آخرها يمضى الرحالة طيلة يومه فى الطريق ومع ذلك لم يعتد رؤية أكثر من حافلتين أو ثلاث ، أو بعض سيارة خاصة ، أو عربة نقل صغيرة على أحايين متباعدة .

بثت غارغولس – التى تركها الرحالة الآن وراء ظهره – رجالها فى البساتين ، فأهل البلدة مجدون وحازمون وربما كان بعضهم على شئ من الفظاظة .

يحكى تاجر أقمشة – يجوب الأرض على عربته – أن رجلاً من غارغولس أراد أن يصبح ثرياً فى عامين فأتى من «لابويرتا» (La Puerta) – على بعد خمسة فراسخ تقريباً – على دراجته حاملاً ثلاثة عشر جدياً على عاتقه وعندما وصل إلى القرية كان قد هلك وانخلع قلبه وكبده من

مكانيهما .

ويضيف تاجر الأقمشة :

– ولك أن تحكم يا سيدى .. «الطمع يشق الجوال» ومع ذلك يسمون أهل «الكوثير» وحوشاً لأنهم ألقوا بتمثال المسيح فى النهر [1] .

ماتزال الطبيعة وارفة عند الوصول إلى تريو . تنمو الخضرة التى تعتمد على الماء وترتفع الأشجار شامخة مثلما فى بريويغا . فهذه الأرض – فى وجود الماء – تبدو أرضا طيبة وتمكن رؤية شجرة تسطل من حين لآخر . عند مدخل القرية ثمة دار أنيقة المظهر تغطت بالزهور ويعيش فيها شيخ متقاعد متقدم فى العمر كان من متسلقى الجبال ، يزرع ورودها وقرنفلها ويحرث بستانها .

وكان شميث – الذى يفكر فى تشييد منزل أمام مساقط مياه نهر الثيفونتس قبيل مصبه فى نهر التاجة – متسلق جبلا شهيرا ، فى جبال وادى الحجارة ثمة طريق يحمل اسمه .

وشلالات ثيفوتنس هى بمثابة ذيل حصان بديع المنظر يبلغ ارتفاعه ما بين خمسة عشر وعشرين متراً من المياه المزبدة المزمجرة . وتحاط ضفتاها بالعصافير التى تقضى النهار مشقشقة . والمكان الذى سيبنى نيه المنزل جميل وربما مفرط فى الروعة .

يبحث الرحالة عن مكان لقضاء الليل فيترك متاعه ويتجول فى القرية . د الجسر ، يشاهد جريان الماء القذر بلون الطين ، وليست لضفتى النهر مالم واضحة . هناك . ينتظر عدداً من الصيادين ، لهم هيئة الفلاحين أو بغالين بثيابهم من القطيفة الخشنة ونطاقهم الأسود وقمصانهم المعقودة

(١) أوضح لنا المؤلف أن فى أقليم القرية يغنون هذه الأغنية الشعبية :

لم أر أناسا أكثر وحشية / من أهل الكوثير/ فقد ألقوا المسيح فى النهر/ لأن السماء لم تمطر. (الناشر)

عند العنق ، أن تتعلق بشصوصهم أسماك التروتة . ووراءهم بقليل ، تغسل بعض النسوة الملابس .

فوق الشلال

يغنى العندليب.

على ضفاف التاجه

يصطاد الفلاح

– وفى أرض البستان الغضة

يحرث صياد السمك .

– طلعت سنابل الغرنوق

على الخضرة الفجرية .

– والاشجار لها مظهر جليل

– فى تريو يفوح

العالم بأريج آخر .

يتناول الرحالة بعض حلواء صفار البيض وفطائر فى حانوت يقع إلى جانب الجسر ، ثم يدخن سيجارة عند الباب مع جمع من الرجال عادوا لتوهم من الحقول . لا يلبث الجمع أن يزداد . ويفصح الرحالة عن رغبته فى رؤية القرية فيصحبه ثلاثة أو أربعة رجال فى مثل سنه ، وحانات تريو ذات طابع صاخب مرح ،وهى دائما مهيئة للقصف والضجيج . يجد الرحالة الناس لطافا كراما متوددين . يقول هذا لأصدقائه فيجيبه أحدهم مبتسماً :

– اعلم أنهم يلقبوننا بالشريرين . فلك أن تتخيل .

عند الخروج من الحانة تلتقى الجماعة برجل شاب فيقول أحد مرافقى

الرحالة :

– أقدم لك السيد العمدة .

يحيى الرحالة والعمدة كل منهما الآخر .

– لى عظيم الشرف !

– الشرف لى أنا !

– ماذا ؟ أتقوم بزيارة المكان ؟

– حسن .. نعم .. أقوم بجولة .

الرحالة والعمدة ليس لديهما ما يقولانه .

– أأنت فى حاجة إلى أى شىء ؟

– لا .. لك جزيل الشكر ..

تدل هيئة العمدة أنه فى الثلاثين أو ما يربو على الثلاثين عاماً . مهنته: خياط وله أيضا محل نسيج وخياطة .

أثناء السير فى البلدة من مكان إلى مكان ، يتطرق الحديث فجأة إلى موضوع مصح الجذام .

– فى بداية الأمر كنا متخوفين من أمر المصح ولكننا الآن بدأنا نعتاد عليه .

يشترك رجل شيخ فى الحديث :

– غير أن ما يؤسف عليه حقا هو فقدان حمامات كارلوس الثالث ذائعة الصيت فى إسبانيا كلها ، ولعلك يا سيدى تعرف المثال القائل : «إن تريو تشفى كل شئ إلا الزهرى والجنون» .

– ولكن ، ألا تخشون من العدوى بالجذام ؟

ينظر الرجال إلى بعضهم البعض قبل أن يجيبوا :

- البعض يخشى من ذلك والبعض الآخر لا يخشاه .

قبل العودة إلى الخان يسجل الرحالة الألقاب الشائعة فى الإقليم . ففى كل هذه القرى وجد ألقاب تبانيرو وغامو وأورتشائيتا وباتشيير وبرميخو ورودريغو وألبارو ولانيا ورمو وبوديقا وبوياتوس .

- بعض هذه الألقاب من هذه الناحية والبعض الآخر من أنحاء أخرى، ولا أظنك تخالهم قد اختلط ببعضهم البعض .

- لا ، بالطبع لا .

يقرأ الرحالة ، وهو ينتظر العشاء فى المنزل ، فى الكتاب الذى أهداه له خوليو باكس في بريويغا . يقرأ ما يقوله عن مياه تريو دون رامون تومية مترجم « دراسة عملية فى مرض النقطة » وصاحب بحث حمامات وينابيع المياه المعدنية » الواقع فى أخر الكتاب .

يصف دون رامون تومية فى ايجاز موقع البلدة - على بعد فرسخين من ثيفونتس على ضفاف التاجة ، فى مقاطعة وادى الحجارة وأسقفية سيجونثا - ويورد رأى دون اوخنيو أنطونيو بنيا فييل طبيب تريو ، المذكور سلفا فى قائمة المياه المعدنيه التى كتبها دون كاسيميرو أورتيغا ، عن قصة البارون مسنيس ضابط الحرس الملكى الڤالونى العجيبة . وكان هذا الرجل - على حد الاعتقاد - قد جاء تريو عاجزا ، ثم انه بعد عدة أيام من الاستحمام فى ماء معدنى خلط بمصل عنزة أخذ فى التحسن واستطاع الرجوع الى البلاط - طبقا لما يقوله المؤرخ - وكله أمل . حدث هذا فى ١٧٦٨.

كان الرحالة يفكر - عندما نودى للعشاء بعد ذلك التاريخ بما يربو على مائة وسبعين سنة - فى أن البارون لابد أنه كان سعيدا عقب زياته لحمامات تريو .

فى حجرة الطعام ، كان ثمة رجلان ، تاجران متنقلان ، يحتسيان القهوة ، كانا قد فرغا من عشائهما ، على انهما فضلا أ ن يمر بعض الوقت قبل أن يأويا الى فراشهما . وكان اكبرهما سنا يقرأ جريدة اسمها « القرية الجديدة » والآخر - الأصغر سنا - كان يدون حساباته فى دفتر . جلس الرحالة أمام صحن البيض المقلى والسجق .

- مساء الخير !

- مساء الخير ، هنيئاً مريئاً !

- هلا تفضلتما ..

- شكرا ، لقد انتهينا من تناول العشاء .

ترك الرجلان القراءة والكتابة ووجها نظرهما الى الرحالة . كانت لدى كليهما رغبة فى سؤاله وخاصة أصغرهما سنا لكنهما لم يجرؤا على ذلك فى بداية الأمر ، هذه هى الحقيقة ، وكانت هيئة الشيخ توحى بزهده فى الكلام وكآبته وقلقه ، بينما كان الشاب - على العكس من ذلك - محبا للحديث قصير القامة خدوما يحاول أن يكون لطيفاً دائماً . اسمه مارتين ويعمل مندوبا لمصنع أحذية من القماش نعلها من القنب أو من المطاط ، حسب الطلب . وعلم الرحالة فيما بعد أن اكبرهما سنا اعتاد التنقل من مكان لآخر فى الحافلة أو مشيا على قدميه ، إذا كان ذلك متعذراً ، بينما يتنقل مارتين - فى المقابل - على دراجة ، فلمارتين مفهوم رياضى للوجود .

وقد قال للرحالة مرة :

- بجوادى الفولاذى فى حالة طيبة انا قادر على الذهاب الى نهاية العالم لأبيع أحذية .

ولم يكن الرحالة قد ارتاب فى أمر ذلك لحظة واحدة .

– حتى نروج لأى سلعة علينا التسلح بالظرف والصبر ، ظرف كثير وصبر جميل ، وإلافليس هناك مايمكن عمله ..

– ألا تبيع سوى أحذية القماش ؟

– نعم يا سيدى ، أنا أبيع كل ما نفتقر اليه من سلع . اذا لم تكن فى القرية أزرار أو قطن للرفو أو ورق خطابات ، أكتب الى الشركة بطاقة فى الحال ، ثم أتفرغ لشىء أخر ، فالترويج لسلعة واحدة لن يكفينى مصروفاتى .

للوصول الى حجرة الطعام يجب المرور بالمطبخ . عندما دخل الرحالة كانت صاحبة المنزل تتناول عشاءها مع ذويها .

– فى هذه القرى ، الناس كالثعالب ، أتعلم يا سيدى ؟

بينما يتكلم ، كان مندوب المبيعات يلصق لفافة تبغ من علبة الرحالة .

– ما أن يرقد الانسان على القش حتى كادوا له .. بيد أن هذا ليس سيئا دائما ، فهكذا يمضى الانسان متيقظا دائماً .

يأخذ المندوب « نفسا » من السيجارة ثم يدير رأسه . ينظر الرجل الثانى بعد أن طوي صحيفته .

– لأن اسبانيا شعب جاهل جدا ، ليست ثمة ثقافة ، فتكثر الأمية . فهاأنذاحيث ترانى ، درست ثلاثة أعوام فى المرحلة الثانوية ، ولكن لا أشتكى وأعيش حياتى ولى فى هذا العمل ما يكفينى . فى يوم ما سأصبح ثريا ، فإذا لم أتمكن من ذلك فما عساى أن أفعل ؟ .. أما الآن فأحاول أن أحيا حياة صحية وأستنشق الهواء جيدا ، فأنت تعلم يا سيدى ما كان يقال قديماً : العقل السليم فى الجسم السليم . لقد نشأت فى مدارس

السـاليـزيـان وأصبح بعـض زمـلائى أطبـاء أو مـلاحظى بناء ويعـيشـون كـالأمـراء . ولا اتعـامل مـعـهم الآن لأنـى لا أرغب فى ذلك ، ولكـن عندمـا أحيـيهم أود أن أكـون مثلهم وأن يكون لى بيت مـحتـرم ، فعندى كـبريائى الشـديدة .

– هـذه هـى الحقيقة ..

– طبعاً ، هى حقيقة كبرى ، فمن نفس التراب خلقنا جميعاً .

بعد اعترافه يسأل المندوب الرحالة فى مداراة :

– وأنت يا سيدى ؟

– حسـنا .. أنا كما ترى .

– عندمـا أخبـرونى بأن هناك سـيـدا جاء لتـوه ، فكرت فى أنه ربما كـان من النيابة العمومية .

يحتار المندوب فى أمره قليلاً :

– لأنك لسـت مندوبا مـتنقـلا ، هـذا مـا أعـتـقـده على الأقل ، وإلا لـكنا التقينا من قبل .

– بالطبع !

تطل صـاحبـة النزل حـاملة مـوزا وفنجـان قهـوة . يسـألهـا الرحـالة عن مرشـد ليقوده أثناء عـبوره لا تيس دى بيانا ، عن أى صـبى يعرف الطريق ولديه دابة تحمل الأمتعة . تفكر امرأة الفندق برهة .

– الا اذا كنت ترغب فى أن يصحبك كيكو .

– من هـو كيكو ؟

– أكبر أبنائى ، يبلـغ من العمر ثمانية عشـر عاماً .

يأوى الرحالة الى فراشه - بعد التوصل الى اتفاق مع صاحبة الفندق - ويصعد معه مارتين فسريراهما فى نفس الحجرة .

- الى أين تذهب يا سيدى ؟

- حسنٌ .. لا أعرف بالضبط . قد اذهب الى بوديا أوباريخا (pareja).

يسأل المندوب المتجول وهو على سريره وقد أُطفِئ ضوء الحجرة :

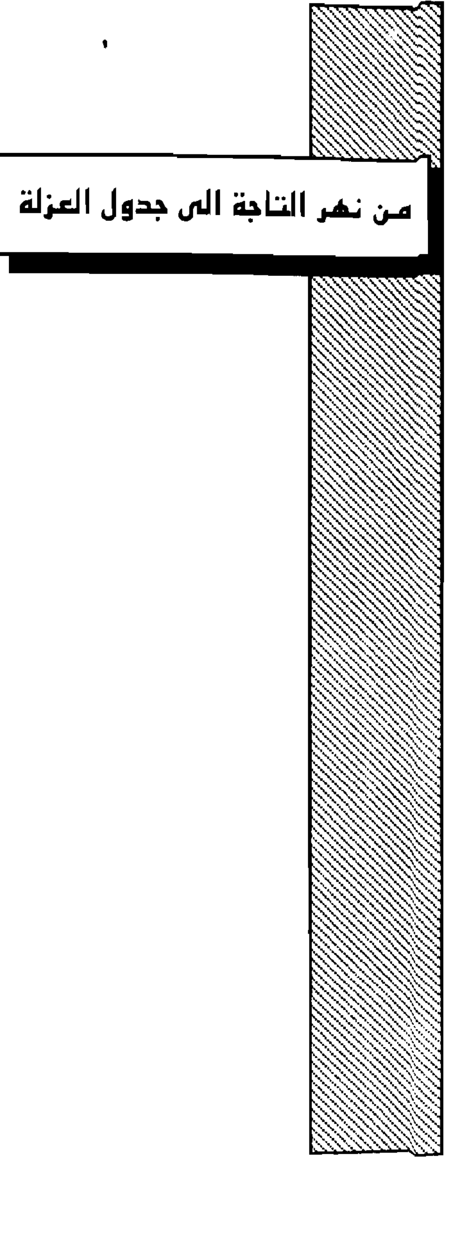
- لايهم أن تذهب الى مكان أو الى أخر ؟

- لا ، فى الحقيقة . فيم يهمنى ؟

بعد فترة ، وقبل أن يخلد الى النوم ، يسأل المندوب المتجول :

- اسمع يا سيدى ، اغفر لى فضولى . عندما تاكل بيضاً مقليا ، تاكل دائما خمس بيضات ؟

الرحالة لا يجيب . يتظاهر بالنوم . فى الخارج ، تزأر مساقط مياه ثيفونتس فى رتابة وسط السكون الرهيب .



مـن نهر التاجة الى جدول العزلة



١

يستيقظ الرحالة فى السادسة . الوقت فجر . استراح الرحالة جيدا بعد أن نام الليل دفعة واحدة . يغتسل ويرتدى ثيابه ويطوى بطانيته ويرفع جرابه على كتفه ويخرج ، كان مارتين قد صحا .. يحييه :

– عمت صباحاً

– عمت صباحاً ، هل نمت جيداً ؟

– نعم ، وأنت ؟

– لقد نمت جيدا أيضا ، ألا تنهض ؟

– لا ، لا ، أنهضي بعد ، فأنا أذهب علي دراجتى .

– أجل ، بالطبع ..

يقف كيكو عند الباب ومعه بغلة فى انتظار الرحالة . وكيكو فتى قوى البنية اغتسل جيدا ومشط شعره جيدا ويلبس قميصا نظيفا طاهراً ، وكانت أم كيكو قد استيقظت لتعد ابنها ولتعد الفطور للرحالة .

وتسمى بغلة كيكو « خار دينيرا » (بستانية) وهى بغلة شابة كستنائية ليست شديدة الضخامة كما يبدو أنها من أصل طيب . يعبر الرحالة ورفيقه نهر التاجه ويسلكان طريقا للنعاج يؤدى الى تل « لا

ديبيسا» (La Dehesa)ويشرح كيكو للرحالة أن دير « أوبيلا » (O´vila)نقله الأمريكان حجرا حجرا الى بلادهم قبل الحرب الأهلية .

والخضرة فى تل « لاديبيسا » خشنة وبلسمية وفيها نبق وزامور ولاوند أصلى ومريمية وريحان داوود ورتم وجولق وكرمدان ولاوند وبلاخ وزعتر ، وهى خضرة قد لاترى ، بيد أن استنشاقها ربما سبب دوارا . ليس الطقس حارا بعد وإن نبأ بشديد قيظ ، الهواء صاف . ويلوح نهر التاجة بعيدا بديعا فى غاية الأناقة وإن كان فى الحقيقة عكراً وقبيحاً ، ويرى مقبلا من بعيد راسما عدة انحناءات ومحاطا دائما بالشجر . ويبدو مصح الجذام على ضفته أقرب ما يكون إلى الطريق ، وهو مكون من عدة أجنحة وبعض البنايات الصغيرة المتفرقة .

يشرح كيكو للرحالة كل مايريانه فى الطريق : هذا كذا وهذا كذا .. بعد ذلك يبتسم ليقول بنظرة حزينة :

– يالشقاء هؤلاء الناس ، أليس كذلك ؟

– بلى

–حظهم فى الدنيا قليل هؤلاء . أليس كذلك ؟

– بلى .

تحت أقدام الرحالة ، على جانب النهر القريب منه ، يمتد الطريق المؤدى الى « أثانيون »(Azanon) « وبيرالبتش »(Peralveche) «وركوينكو » (Recuenco).

– من هناك أيضا يؤخذ طريق « بيانا » و« لا بويرتا »

وحمامات « مانتييل » (Mantiel) .

- ومن هنا..

- نعم ، ومن هنا أيضا . فمن هنا ثمة شعب يؤدى مباشرة إلى «بيانا» .

يريد الرحالة استغلال انتعاش الطقس وأن البغلة تحمل متاعة فيحث السير دون توقف أو متوقفا للحظات قصيرة وعلى أحايين متباعدة لتأمل الطبيعة .

مروراً «بإنتربنيا» (Entrepéna) يرى الرحالة ديكورا بديعاً ، ديكورا مسرحيا من الحجارة الضخمة الملساء الشديده الوعورة ومن الأشجار الميتة قصمتها صاعقة . يحلق طائر جارح حاملاً خرنقا فى مخالبه ويفر برص ضخم ذو لو أخضر وأصفر وأحمر هاربا عند قدمى الرحالة .

عند مغادرة الأرض المسماة بـ «عين لاغاليندا» (Fuente De LA Galinda) يظهر «ثديا بيانا» مدببين عنيفين . يحس الرحالة بأنه شاعر ويخط بقلمه:

عند ثديي بيانا
البغل والطبيعة وأنا
السادسة صباحا
يغرد طائر الحسون
على غصن العليق
وعلى الأرض المشمسة
كان يقف أرنب طائش
ليرى هذا المنظر الأسطوري
البغل والطبيعة وأنا
السادسة صباحا

فى ســـــــــــــاعتي .

وأهدى شعره هذا لفتاة ، لم تعد بعد فتاة ، مشّاءة وبرية ، كانت له معها حكاية غرام ليس ثمة مجال للحديث عنها هنا :

إلى البغـــــالة
الحســــــــناء
الغــــــــريبة
فى الحيـــــاة
المــــــــرأة
المســــــامحة
لزوجها الخصى

ونبع «لاغاليندا» هو جبل غير مرتفع ولكنه وعر ويكثر فيه الصيد . يرتفع سرب من اليمام قريباً من الأرض متثاقلا كأنه طائر أخرق غير مدرب ، على بعد خطوات من الجماعة . يتوقف كيكو والرحالة للمرة الأولى . يشربان جرعة نبيذ ويدخنان سيجارة ويتحدثان .

– قُتل هنا رجل مرة ..

يفكر الرحالة فى أن المكان اختير بعناية فهو فى الحقيقة مكان مناسب جداً لذلك .

– حقيقة ؟

– نعم يا سيدى .. رموه أولا برصاص الصيد ثم عاجلوه بعشرين ضربة سكين على الأقل .

– لابد أنهم تركوه منتهياً

– نعم يا سيدى ، تركوه جثة هامدة . كان من « سوتوكا » (Sotoca) .

– والذى قتله ؟

–غير معروف . . لا أحد يعرفه .

يطن عش زنابير فى تجويف فى إحْدى الأشجار .

– ونهبوا نقوده وقطعوا أذنيه .

– لا بأس!

– كانت هذه هى العادة حسبما يقال . . لا أعرف . . هذا متروك لكل شخص . . . .

– والآن ؟

– الآن لا . . . لاأعتقد أن هذه الأشياء تحدث الان بكثرة .

يمران بجبال « لاس أكاثيس » (Las Acacias) وراءعين «لاغاليندا» ، وهى تلال منخفضة تنتهى فى سهل «أوليبار أويكو» (Olivar Hueco)

فى سفح «لاس تيتس دى بيانا» ثمة مروج من عشب غض أخضر تحيط بها أشجار العليق والنبق .

– يمتد الشعب من هنا على اليسار دائما ، ولكى نصعد حتى لاس تيتس دى بيانا يجب أن نتركه ، وهناك سلم خشبى يصل حتى ذروة الجبل فقد كانت نقطة مراقبة أثناء الحرب . أتريد أن نصعد حتى هناك ؟

– كلا فنحن نسير على ما يرام من هنا .

كلا الثديين متساويان تقريباً إذا نظر إليهما من ناحية الشمال ، وربما كان الثدى الغربى أعلى قليلا ، ولهما شكل مخروط قطع قبل أن يصل إلى قمته وينتهى كل منهما بهضبة أطرافها صخرية قطعت بالمعول ولا بد أنهما وعرا التسلق .

عند بلوغ المنحدر يجد الرحالة نفسه أمام منظر خلاب أولا ثم مقفر قليلا بعد ذلك . تبدأ فى التفرع من الشعب مسالك طمست معالم بعضها

وتسير البغلة فى حذر وفى حرص شديدين ، وأحيانا إذا ما وطأت الأرض تناثرت الحجارة تحت أقدامها . في وسط السفح ، ناحية أسفل ، توجد عين «البيلون» (El Pilón) . ود الرحالة لو أمكنه أن ينتعش بمائها . يشتد الحر ويتفصد كيكو والرحالة عرقا غزيرا من رأسيهما .

– ألا تغتسل قليلا ؟

– انتظر ياسيدى ، فى أسفل السفح عين سان خوان وهى أفضل .

بعد ذلك بقليل ، تظهر عين سان خوان مختبئة بين الأشجار فى منعطف بالطريق . ينتعش الرحالة بمائها وقد تعرى نصفه الأعلى ثم يجلس فى الشمس بينما بلل كيكو ذراعيه وجبهته .

– الماء غادر شديد الغدر ، أحيانا يصيب الأنسان بما ليس فيه .

من ناحية الجنوب ، يبدو الثديان أكثر قبحا وأقل رشاقة ومشوهين كأنهما معوجين . تقضم البغلة سرخس العين بعد أن تخففت من حملها، وتعبر الفضاء على ارتفاع كبير بعض طيور الحبارى وهى جماعة من ستة أو سبعة ، وتنق الضفادع وتطل السحالى فى دهشة من بين الحجارة فتنتظر لحظة ثم تفر مسرعة بعدها .

يصل الرحالة ، بعد هبوط المنحدر ، إلى «بيانا دى مونديخر» (Viana De Mondejar) وهى ضيعة صفراء اللون تستند إلى جبل أنطس أسود تقريبا . لا يدخل الرحالة بيانا بل يبقى على أبوابها ويتناول طعامه مع كيكو فى ظل أيكة من أشجار الحور الضامرة على ضفة نهر «السولانا» وهو نهير بدون ماء تقريبا يحمل فقره على عاتقه منذ أن نبع من جبال «امبريا سكا» (Umbria Seca) .

بلاماء يمضى الجدول

ويلا أصل الثور

وبلا ظل ينمو الحور

بلون الذهب .

تحت الثديين

ترقد كل صباح

منازل بيانا

بلون الرصاص .

بعد الغداء وبعد أن عاد إلى الأرض المنبسطة ، يودع الرحالة كيكو وبغلته خاردينيرا ويستلقى فى الظل ويغطى عينيه بقبعته . وما أن يمر بعض الوقت حتى يغط غطيطا فى نوم هادىء ومنعش ومريح . وعندما يستيقظ ينهض ويتمطى قليلا ثم يحمل جرابه ويواصل طريقه . يبدو أن وقتا كافيا قد مر لأن كيكو وبغلته خاردينيرا على الجانب الآخر من الثديين ، فليس لهما أثر فى أى مكان .

تغسل امرأة فى صمت ورأسها عارتحت الشمس المحرقة . ينتصف النهار والسكون تام فلا يسمع إلا خرير نهر السولانا يصاحبه نقيق مستمر كخلفية موسيقية .

للوصول إلى لا بويرتا يمتد طريق على ضفاف الجدول طوال الوقت تقريبا ،فأحيانا ينفصل الطريق قليلا عن النهر، وحينئذ تظهر بينهما بساتين. ولدخول القرية لابد من المرور بجسر صغير من الحجارة مليح شكل . يمر نهر السولانا من تحته ثم يتسلل بين مجموعتين كبيرتين ن الصخور لها شكل منشار أو عرف ديك، وسبب تسمية القرية باسم لابويرتا» (البوابة) واضح جلى .

سمك التروتة فى الجدول

والديك على السطح.

وتشتعل فى الربيع

بلونها الزجاجي

قمينة الفحم القديمة

بفحمها النباتي

يدخل الرحالة القرية ويبحث عن نزل. ليس فى النزل شئ يؤكل، فيسأل فى بعض منازل القرية وكلها تجيبه نفس الإجابة . تخور قوى الرحالة بعد أن جال القرية صعوداً وهبوطاً لا سيما أنه كان قد دخلها متعباً . يقول له عمدة القرية إن بإمكانه أن يقدم له خبزاً فقط .

– نحن فقراء كما تلمس يا سيدى لكن أحداً لم يمر من هنا وذهب عنا دون كسرة خبز . أقالوا لك فى النزل إنه ليس ثمة أى شئ يؤكل ؟

– أجل يا سيدى .

– إنه لم يعد فندقا ، أتعلم هذا ؟ أحيانا يأتيهم أحد لكنه لم يعد فندقا.

يذهب العمدة والرحالة إلى مبنى البلدية ، وهو عبارة عن حظيرة مهجورة بها مكتب صغير فى أحد الأركان. يجتمع رجال القرية فى مبنى البلدية جلوساً على الأرض أو مستندين إلى الجدار المتشقق. عندما يحضر العمدة ينهضون ويكشفون رؤوسهم وعندما يجلس يجلسون أيضا ويغطون رؤوسهم ثانية . وإذا تحدث أحدهم فعل ذلك واقفا ورافعا يده ناحية قبعته .

والعمدة رجل له من العمر ما يقرب من أربعين عاما قوى البنية عريض المنكبين . ويحيا أهل لايوبرتا على عائد الفحم النباتى وزراعة البساتين وشئ من صيد الأسماك . يلاحظ الرحالة أن جميعهم لهم عيون

زرقاء . وأهل الإقليم يعيبون عليهم غلظة سيقانهم :

أهل لابويرتا

غليظة سيقانهم

سبعة أزواج من الجوارب

يرتدى بعضهم

يفكر الرحالة بينما يتحادث أهل القرية فى أمورهم فى أنه من الأفضل أن يستريح بضع سويعات ثم يذهب إلى مكان آخر . عندما ينتهون ، يتحدث العمدة :

- المشكلة هى أن بوديا بعيدة عن هنا .

- لايهم أنا مستعد لأن أستأجر عربة كارو إذا أراد أحد أن يحملنى حتى هناك .

يعود الرحالة إلى النزل ليجرب أن ينام فترة ، وكان العمدة قد اتفق معه على أن يرسل إليه عربة كارو فى السادسة أو فى السابعة ، موعد الإياب من الحقول .

يدخل الرحالة المطبخ وقد هزل جرابه فلم تعد به إلا بيضة مسلوقة وبرتقالتان . تقدم له امرأة النزل بعض لحم الماعز وكوبا من لبن الماعز أيضا. يفكر الرحالة فى حمى مالطة وفيما يقال من أن الجوع أكثر نطحاً (من الثور) فيأكل كل ما تقدم له المرأة .

اللحم صلب متيبس واللبن له طعم خشن زائف شديدة الحلاوة . تحيط بالرحالة أثناء أكله ثلاثة أو أربعة كلاب هزيلة بائسة وعدد مماثل من القطط الفظة ذات النظرة المتوحشة التى تنفخ دائما ويعض بعضها البعض من بعيد، فهى لاتقترب. فى أحد أركان المطبخ ثمة إناء طينى لعمل

ماء البوتاسا ، وتزين الحائط مغارف وحلل نحاسية غليظة . وفى ركن آخر إعلان عن القطيفة فوق العلم الإسبانى وعبارة «تحيا اسبانيا» . وتحتبى أمام الموقد سيد شابة بادية الحسن تحمل طفلتها على ذراعيها وتعد لها الطعام. تسمى الطفلة روسيتا. تجلس امرأة المنزل على مقعد خشبى منخفض وتتحدث مع الرحالة .

– أنت مندوب متجول ؟

– لا ياسيدتى .

– هل أنت ممن يسمون بالكوميديين ؟

يقوم الرحالة بحركات مجعدا وجهه فتغرق المرأتان فى الضحك. يستمر فى ذلك قليلا فيتحول ضحك الامرأتين قهقهة فهما تضربان على فخذيهما قائلتين : توقف .. توقف !

ينهض الرحالة ويقول بحركتين بهلوانيتين فوق حوض الغسيل مدعيا العرج فتحمر المرأتان وتختنقان غير متمالكتين نفسهما من الضحك. وضحك الرحالة نفسه عندما جلس القرفصاء يحك رأسه كالقرد. تبكى الطفلة روسيتا. فرت القطط فزعة وأخذت الكلاب تنبح فى الدهليز.

– لا يا سيدتى ، ولا أنا بالكوميدى .

– حسنا ، يمكنك أن تتكسب رزقك جيدا آتيا بهذه الحركات .

– أجل ، هذا ممكن .

ينتهى الرحالة من أكله وينام القيلولة فى حجرة رحبة غير مرتبة وفى فراش كبير كأنه حلبة مصارعة عليه خمس مراتب من القش. ثمة ستة أو سبعة صناديق من الصفيح الملون مرفوعة عن الأرض فوق قطع من الخشب ومغطاة بملاءات نقشت عليها أغصان باللونين البرتقالى والأزرق، وثمة أيضا مائدة مستديرة الشكل عادية ومرآتان فى إطارين مذهبين

والعديد من صور الإعلانات الملونة وصور ملازم ملتح من حرب كوبا.

والصور الملونة شديدة التنوع :•

سلطان بعمامة بيضاء فى وسطها زمردة يعلن عن ماركة بن ، وغجرية سمراء رائعة عيناها عميقتان وحالمتان تعلن عن بقالة فى العاصمة :

منتجات عالية الجودة من المملكة ومن وراء البحار .

وتكمل الديكور خريطة لأوروبا من أيام الامبراطورية النمسوية المجرية رسمت عليها رايات كل الأمم على حافتها ورايتا إسبانيا وفرنسا فى الوسط على شكل مقص فوق لوحة مزخرفة تقول :

حرية ومساواة وأخوة ، وشعار بالفرنسية يقول :

زوروا المغرب .

يخلع الرحالة نعليه مستنداً إلى مقعد راهب بدا كأنه كرسى عرش، بجانبه إبريق نحيف كأنه عنكبوت وإجانة امتلأت بشعر طويل وفواح وحريرى لامرأة . بعد شئ من التدقيق ، يكتشف الرحالة أن مقعد الراهب يستخدم ككرسى للحلاقة . يقرأ فى ورقة مسطرة ثبتت فى الحائط بأربعة دبابيس وكتب عليها بالحبر بخط أنيق : حلاق لابويرتا . سعر الخدمة . حلاقة الذقن ٠,٧٥ ، قص الشعر الأملس ٠,٧٥ ، قص الشعر إلى الوراء أو بالفارق ١,٠٠ ، قص الشعر الا باريزيين ١,٥٠ ، خدمة بريانتين ٠,٢٥ ، كولونيا ٠,٥٠ السيدات : قص الشعر ١,٠٠ ، لابويرتا ١ يناير ١٩٤٥ ، الحلاق بابلو بالكون . خدمة حلاقة دائمة من ١١ صباحا إلى١١ ليلا يوم العطلة : الخميس .

يعتلى الرحالة الفراش ويتغطى وسرعان ما ينعس . قبل ذلك كان قد تأمل أرضية الغرفة الحجرية وعروق السقف السميكة من خشب القسطل

والباب الخشبي المنيع المزين بالمسامير . ينهض الرحالة فى السادسة ويغتسل فى دلو عميق فى الدهليز ماؤه بارد أحضرته صاحبة النزل ثم يرتدى ملابسه ويخرج . ويقف العمدة أمام البوابة ، ورجل بعربة تجرها بغلة أحضرها العمدة . وعمدة لابوريرتا حاضر الذهن لاتفوت عليه فائتة فهو عمدة نموذجى ، وهو وعمدة باسترانا الذى سيعرفه الرحالة بعد أيام كلاهما خير عمد الإقليم .

قبل أن يضع الرحالة زاده على العربة يتفق على سعر النقل .

– يبدو لى السعر مرتفعا قليلاً ..

وكان صاحب عربة الكارو قد طلب مائة بزيتة .

– ضع فى اعتبارك أنى سأضطر للمبيت فى بوديا لأننى فى الساعة التى سنصل فيها إلى هناك لن أتمكن من الخروج إلى الطريق ثانية إلا إذا أردت أن أعود بحرجة .

– ومع ذلك ..

يتدخل العمدة ويخفض الرجل السعر إلى ستين بزيتة .

يخرج الرحاله من لابويرتا مارا بغوطة «الأكورباثيو» (El Acorbaíllo) ، ويمضى محنيا وشبه مستلق فى العربة محتميا من الشمس تحت بطانية تعمل عمل المظلة وتسبب له حراً خانقاً. يتحدث الرحالة مع سائق الكارو الجالس وقد تدلت قدماه خارج العربة .

والبغل الذى يجرها هو بغل حرث فيلاحظ عدم تعوده على العربة وعدم احتفاله بها وهو يخرج إلى حافة الطريق كلما غفل صاحبه عنه ويرفس الهواء رفساً عندما يستحث على السير بالسوط .

– فى «بوديا» ستجد كل شئ . أما هذه القرى فهى فقيرة فقراً مدقعاً

وليس لدينا إلا على قدر عددنا ، ولا تظن أن شيئاً يفيض ، فى حين أن «بوديا» واسعة الثراء ، فهناك الكبير والصغير كل لديه أمواله يتصرف فيها.

– «وثيريثيدا» (Cereceda) ؟

– مثلنا ، ثيريثيدا فقيرة جدا أيضا : وهى تقع وراء هذه الجبال . يمتد الطريق ، منذ الخروج من «لابويرتا» ، وإلى يساره جدول «السولانا» عند «ثيريثيدا» الواقعة خلف جبل «لابنيادل تورنيور» (La Pena del Tornero) يعبر جسر صغير ثم يستمر النهير موازيا للطريق حتى يصب فى نهر التاجة ، شمال «مانتيل» وعلى بعد فرسخ واحد من «ثيريثيدا» ومن تشيارون دل رى (Chillarén del Rey) وعلى بعد فرسخين من «أليكي» (Alique) ومن «أونتانيس» (Hontaillas) ، وكلها طرق لسير الدواب. ويسير الرحالة فى ممر بحوض نهر «السولانا» لذا فهو لا يرى أيا من هذه القرى. وبينما يدخن سيجارة مع سائق عربة الكارو يعلم أن أهل «ثيريثيدا» يسمون أيضا بغلاظ السيقان ، مثل سكان «لابويرتا» ، ويطلق على أهل «مانتيل» الأشقياء وبحاكّى جلودهم ويلقب أهل «تشيارون» بالبخلاء وأهل «اليكى» بالنصابين وأهل «أونتانيس» بالمعالف، لأنهم كى لا يلوثوا أطباقهم يأكلون فى معالف الخنازير.

يخطر ببال الرحالة أنه من التعقل عدم صعود الجبل لرؤية هذه القرى بجرابة الخاوى من الزاد

– وأهل «بوديا» ؟

– حسن .. هؤلاء ليس لهم لقب .

تنمو أشجار العليق والنبق وزهور التين البرى على حافة الطريق ،

يلوح الآن جبل «أليخا» (Aleja) ناحية الجنوب ، وأرض «لانابا» (LA Nava) في اتجاه الشمال . بعد ذلك بقليل ، يعبران نهر التاجه ويسيران على ضفافه مدة نصف ساعة حتى يصلا إلى طريق فرعي يؤدى إلى «دورون» (Dur'on) و «بوديا» ثم إلى «بريويغا» ثم إلى طريق السيارات الذاهب إلى «سرقسطة». وبمحاذاة ضفاف نهر التاجه يمتد طريق «ساثيدون» المفرع منه طريق إلى «باريخا» الواقعة على ضفة جدول «إمبولبيدا» (Empolveda) ترجل الرحالة كي يفرد ساقيه قليلاً . وعند المرور بدورون – إلى يسار الطريق مع الانحراف قليلاً عن الطريق – يبدأ حلول الظلام .

عند جبل تراسكا ستيو
يأتي رجل حتى دورون
سار طريقا طويلا
يحمله بين ضلوعه
يسير كالنفس
يجنه التعقل
يقول إن اسمه كاميلو
وإن قريته البادرون
على كتفه يحمل زاده
ويجر وراءه الأمل
عند جبل تراسكا ستيو
يأتي رجل حتى دورون

في الطريق ثمة حشد ضئيل من المنازل يستريح على أبوابها رجال

ونسـوة وكـوكـبـة من الأطفـال . وعند ممر «التـيـرادور» (El Tirador) وهـو شـعب ضـيق ووعـر إلـى يسـاره جبال «تراسكا سـتـيـو» وإلى يمـينه قلعـة «مارانيا» (Marana) – يباغت سيـر الرحالة أربعة أو خمـسـة من الشـرر الذى يضىء الجـبـال ويطرقع فـى الآذان كـالسـيـاط. ترعـد السـمـاء بينمـا تسـرى نفحة هواء ساخنة شديـدة تضطر الرحالة وسائق الكارو إلى الإمســـــاك بالعـربة حـتى لا تنـقلب . يفـزع البـغل المسـمى مـوريكو وينـهق ويرفس الهواء ويعود القهـقرى ، فيكبح الرجل جماحه بالضـرب المبرح وبالسباب. يسـقط مطر كا لسـيل ويحتـمي الرجـلان تحت العـربة بعـد أن انتـحيا بهـا جانب الطريق وتـدثرا ببطانيـتـيـهمـا . ومـا إن ينقـطع سـقـوط المطر حـتي يصبح الظلام حـالكا . السـماء صـافـية وبلا سـحـابة واحدة ، ويبـدو البـغل المبـتل لامـعاً في ضـوء القـمر كأنه مطلي بالـزيت ويبدو أيضـا وادعـا هـادئا وقد انتعش من توه .

لايصل الرحـالة إلى «بوديا» قبل منـتصف الليل . حـينئذ يدخل الميـدان فـينظر إليـه الناس كـأنه مـخلوق غـريب. وبوديا بلـدة لا يأوى أهـلهـا إلي فراشهم مـبكراً ،ويقعد فتيـانها في الحانات يلعبون الدومنيـو دون الالتفات إلى الساعة .

يدخل الرحـالة النزل وفي إثره صاحب البـغل ، فقـد دعا الرحـالة رفيـقه إلى تناول العشاء معه ، لكن رفيقه يرفض .

– لا تكلف نفسك ، لقد أحضرت طعاما .

يقـود الرجل البـغل إلي الحظيـرة ويقـدم له دلواً مـن الماء وحـزمـة علف ويخـرج طعـامه مـن خرج فـيأكل ويتـمدد فـي الدهليـز ملتفـاً في بطانيتـه المبتلة ينتظر حلول الفجر .

لا يحالف الحظ الرحالة في النزل .

– أيمكنني تناول طعام العشاء ؟

– ليس ثمة طعام .... إلا إذا اشتريت شيئاً تأكله .

يفكر الرحاله في أنه لن يجد إلا القليل في هذه الساعة

– حسن ... سأحاول العثور على بيض ولبن .

تنظر إليه امرأة النزل من أعلي إلي أسفل. يبدو أن الرحالة يترك فيها انطباعا بعدم الثقة لأنها تقول له :

– حسن .. لن أستطيع أن أعده لك ، لأن هذا لم يعد نزلا .

يذهب الرحالة مكتئباً وذيله بين ساقيه ، يفكر في عمدة كورك (Cork). عند الباب يصادف مارتين ، المندوب المتجول الذي تصادق معه في تريو.

– توقعت أنك ستهبط هنا ،ولكن بدا لي الوقت متأخراً .

– حسن .. هأنذا بين يديك. أتعرف أحداً هنا يعد لي عشاء أي عشاء ؟

– لا تهتم لذلك ، تعال معي .

ويصطحب مارتين – الرجل الذي يصلح لكل شئ – الرحالة إلى حانة، وهناك يتكلم مع امرأة الحانة ثم يعود مبتسماً ابتسامة المنتصر .

– كل شئ علي مايرام . سأجالسك ريثما تتناول عشاءك .

ويشرح مارتين – الذي علم أشياء عن الرحالة أكثر مما توقع – لسيد بربطة عنق ظهرت عليه أمارات الغباء .. من هو هذا الذي قدم لتوه ؟ يستمع هذا الشخص باهتمام ويومئ برأسه أن نعم. بعد ذلك يلتفت إلي الرحالة ويقول له :

– اعرف مقدماً ما أنت فاعل ... إنه ذلك النوع من الكتب المبطن باللون الأزرق والذي يحمل شعاراً ويظهر فيه جميع عمد وتجار المقاطعة ... ليس هذا بالشئ الهين ، أؤكد لك !

يشكر الرحالة هذه العبارات الرقيقة بابتسامة . بعد تناول العشاء يدعو الرحالة مارتين ليتناول معه كأساً. يطلب مارتين أنيسون والرحالة كونياك .

يعودان إلي الفندق ، وعند الباب يقول له مارتين :

– كل ما عليك هو أن تلزم الصمت ، هه ؟

– مفهوم .

يتحدث مارتين مع صاحبة الفندق ، وتنظر صاحبة الفندق إلي الرحالة . تخرج بعد ذلك ثم تعود لتقول :

– الآن يا سيدي لك سرير .

فى الفراش ، لا يستطع الرحالة أن يصدق كل هذه السعادة ، يدخن سيجارة ثم يطفئ الضوء ويتقلب في سريره مرة واحدة ويغلق عينيه لينام.

كان مارتين يقول ، من الفراش المجاور له :

– وإذا وصلت «كمبودى كريبتانا» (Campo de Criptana) اسأل عن «إيبرو» .. قل له إنك من طرفي ، من طرف مارتين ، من الإدارة العسكرية في مدريد، فهو يعرف ..

أغلقت الغرفة بإحكام فهي بلا تهوية ، بلا أية كوة ، كأنها صندوق .لا يستيقظ الرحالة حتي العاشرة صباحاً . مارتين ليس في فراشه ولكنه يعود بعد مضي وقت قصير .

– عدت إلى هنا أكثر من مرة لأرى ما إذا كنت قد استيقظت . لقد خرجت لإنجاز بعض العمليات التجارية البسيطة ، فالرزق يستلزم خفة الحركة . يأخذ مارتين نفساً لواصل حديثه.

– ماذا ؟ هل استرحت ؟

– حسنا يا رجل ، نعم . أنا كالحديد . ليلة أمس كان السأم قد انتابني قليلاً .

– حسنا ، لم التذكر ، لقد مضى إلى غير رجعة .

مارتين رجل صبور بدون أدني شك .

يخرج الرحالة ومارتين إلي الشارع ويتجولان بالبلدة . يبدو الميدان كأنه قرية عربية. فواجهة مبني البلدية مطلية بالجير وبها رواق بأقواس مليحة الهيئة . تدخل الميدان ثمانية أو عشرة بغال خببا دون أى سرج علي متونها، يقودها فتي ذو قميص أسود وبيده سوط طويل . تشرب فى بطء في حوض ماء ثم تتمرغ في التراب وقد رفعت سيقانها في الهواء . يجلس شيخ في الشمس تحت الأعمدة . وبوديا بلدة كبيرة منازلها عتيقة ، ويبدو أن لها ماضيا عريقا . فللشوارع أسماء نبيلة ورنانة – الشارع الملكي، وشارع صناع الزوارق ،وشارع السهل ، وشارع الجمالون، وشارع البرونز ،وشارع الخس ، وشارع المستشفى – ومازلت القصور القديمة المحتضرة تحتفظ في شئ من العزة بأحجار عليها شعارات الأسر وبأبوابها الضخمة وبنوافذها الواسعة الحزينة المغلقة .

يذهب الرحالة إلى بيت الطبيب ليزوره . يسكن الطبيب في الميدان ، في بيت من طابقين نظيف ومرتب وأثاثه جيد وبه صور فرنسية علي الحوائط . وطبيب بوديا هو والد صديق للرحالة . ثمة بيانو في بهو المنزل . تفتح له خادم تتشح بالسواد ، ماتزال شابه .

– سأخبر سيدي .. سيسر لأنك تحضر له أخبارا عن السنيوريتو

الفريدو.

لا يتأخر الطبيب . اسمه سيبرينو ، وهو شيخ خفيف الظل ومتحدث لطيف ، يقود الرحالة إلى الداخل ويقدم له بسكويت وشيرى . البسكويت في صندوق عميق من الصفيح ،والشيرى في زجاجة .

– إذا اتينا علي هذا أحضرنا المزيد.

يتحدث الطبيب والرحالة عن البلدة . كان الطبيب قد نشر كتابا عنوانه «بيانات لدراسة طبية طبوغرافية لبلدة بوديا» لدون سيبرينو دومينغث الونسو ، طبيبها الرسمى . طبع الكتاب في وادى الحجارة في ١٩٠٧ فى مصلحة انتيرو كونتشا الطبوغرافية ، ميدان سان استيبان (البريد) رقم «٢» .

يتصفح الرحالة الكتاب ومن خلاله نعرف أن بوديا قائمة علي مرتفع «كويستا كابيثا» (Cuesta Cabeza) وأن الجبلين المسميين «بروبيسوس» (Propies) يستخدمان للرعي واستخراج الحطب . وبوديا قرية بها ماء كثير وإن لم يكن في نفس كمية ماء ثيفونتس . ويستخدم ماء عين «لاتوبيا» (La Tobilla) في مكافحة آلام المعدة ، وماء «العين الجديدة» (La Nueva) للشرب وماء جدول العزلة (La Soledad) لطبخ البقول . أما عين القرن (ElCuerne) علي الرغم من انها أفضلها جميعا فتستخدم في رى الأرض لأنه يتعذر نقلها إلي المنازل ، فقد يكلف ذلك مالاً طائلاً .

يقدم دون سيبرينو سيجاراً من التبغ الجيد للرحالة .

– المعدة هي مقياس النظام .

– بالطبع .

– من قبل ، كان عمال التراحيل يخرجون مرة فى السنة ويعودون أصحاء ومع كل منهم مائة بزيتة – ويضيف دون سيبرينو بنبرة حنين

للماضى – حينئذ كانوا يأكلون كالإنجليز .

الرحالة مسرور . أنعشه الشيري والبسكويت والتبغ .

– هناك ، يتناول أهل القري العرق علي الريق ويقولون إنه مفيد في إبادة الديدان .

من نافذة حجرة الطعام المفتوحة ، يتسرب قط أسود ضخم شعره لامع .

– والقهوة يتناولونها علي أنها دواء .

ود الرحالة الجالس علي مائدة دون سيبرينو أن يظل هكذا ما بقي له من عمر .

– لدينا ما يزيد علي سبعمائة نوع من الأعشاب العطرية المختلفة . وقد يكون ذلك سبب جودة العسل .

– بالطبع ..

يغشى الرحالة نعاس خطر . علي كرسى طبيب بوديا الهزاز ، تزيد الراحة عن الحد . نحو الظهيرة يخرج مرة أخري إلي الشارع بنية الخروج إلى الحقول فى الحال . تسقط الشمس عمودية على الميدان ولا ترى إلا ظلال رقيقة تحت أجنحة الجمالون . تجلس عجوز علي كرسى منخفض منهمكة فى شغل الإبرة ، بينما يلعب طفل صغير فى التراب إلى جانبها .

يحـــــــــك شيخ

بطنه في الشـــمس

العمــــــدة والنبيـــذ

يســيران في الطريق

تأكل بغـــــــلة

الزهـــرة الغضـــة

يسمى رجل العمـدة

بالأمهـــــــــــق

يشـــم كلب جـــائع

الأريـــج العطــــــر

راهـــب تيـــــاتينى

ودون ســـــــيرينو

يصر الخبز فى الفرن

من اجـــل رب البيـت

يقـــع فـــرخ اليمـــام

من الشـــــــــرفة

يمر بالميدان شـحـاذ مـراهق وأبله فـقـد إحـدى عـينيـه . يسـيـر فى أناة مـتصلبـا مـتصنـعا الوقـار وتحيط به دستـان من الصـبية ينظرون إليـه في صمت . والأبله مـصاب بجـرح فى رأسه لا يزال ينزف. ثمة مسحـة حزن عميق ، مسحة حزن غير عادية فى كل هيئته . ويمشى جارا قـدميه متكئا علي عصا وقد تقوس ظهره وغاص صدره .

بصوت صارخ واه مرتعد ، يغنى الأبله :

مسيح حياتى

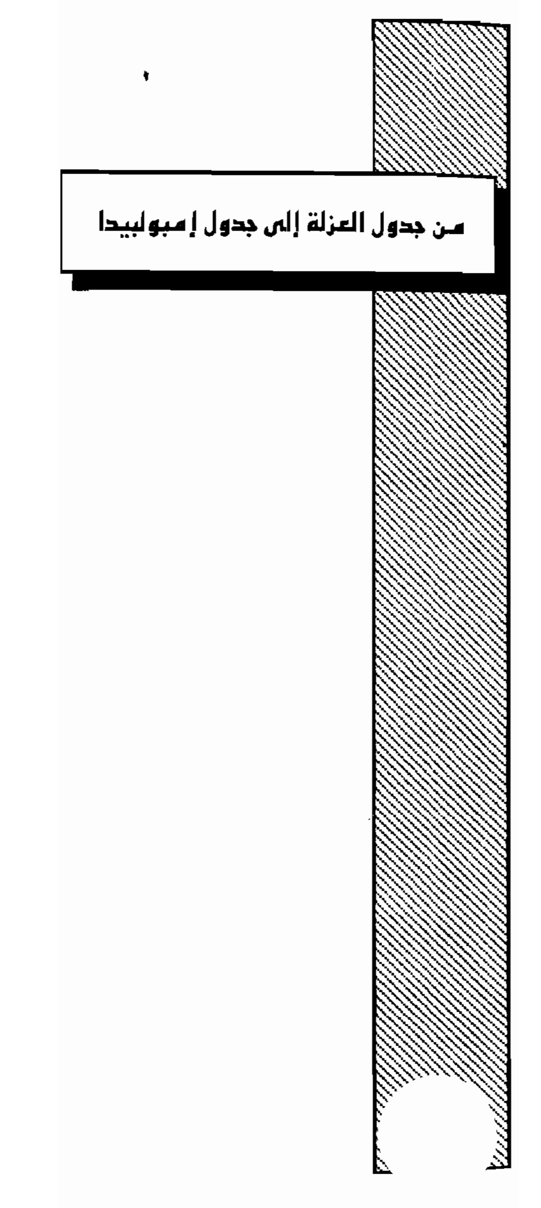
مسيح عشقى

افتـــــح لى

جـــرح قلبك

أطلب امرأة تحمل طفلها على كتفها من باب أحد المنازل .

– خسارة ألا تهلك أيها الكلب !



من جدول العزلة إلى جدول إمبوليبيدا

٥

يخرج الرحالة من بوديا ، قبل الغداء ، إلى ضفاف جدول «لابيلوس» (Lapelos) الذى يصب فى نهر التاجه . كان قد فكر فى أن يعود إلى دورون من نفس الطريق الذى صعد منه حتى بوديا ، ولكنه يغير رأيه ويأخذ طريق الجبل ويسلك شعباً انمحت معالمه تقريباً يوصله إلى «الأوليبار» . بعد ذلك سيهبط مرة أخرى إلى دورون ليأخذ طريق السيارات.

وتقع «الأوليبار» على بعد نصف فرسخ من بوديا صعوداً تجاه الجبل . وهى قرية بائسة مفقودة فى الجبال ، فى أرض تعج بالذئاب وتحيط بها الشعاب الجبلية .

يحتمى أحد الرعاة بقطيع من الغنم فى حوض جدول ،وهو رجل فى حوالى العقد الخامس من عمره ، فظ لوحته الشمس ، زاهد فى الكلام فى بادىء الأمر إلى أن يداخله الحماس . اسمه روكى وكان قد اصطاد دلقا بعصاه ، يريه للرحالة .

– كم تعطينى ؟

– أطلب أنت يا سيدى .

– لا .. أنا لا أطلب .

يطرح الرجل الدلق أرضا .

– لك أن تحسم أمرك إذا كنت تريده ...

تكفى عشرة بزينات ؟

تتسع حدقتا الرجل من فرط الدهشة .

– أين هى ؟

يخرج الرحالة عملتين من فئة الخمس بزيتات ويعطيهما للراعى ويلمس الدلق بقدمه .

– هو الآن لى .

– انتظر حتى انزع فروته وإلا تعفنت .

ينزع الراعى الفروة بمهارة فى غمضة عين . بعد ذلك يشرط لحم الصدر بالسكين ثلاث أو أربع مرات ثم يلقى به للكلاب التى تلتهمه فى نهم ، دون توقف ، وهى تزمجر .

والرحال الذى كان قد تزود للطريق فى بوديا يفتح جرابه ويستعد للأكل .

– هل يمكن شرب هذا الماء ؟

– أنا لم أهلك بعد شربه .

يفتح الرحالة إحدى معلبات السمك المحفوظ ويقدمها للراعى .

– لقد أكلت .

– لا يهم ..

– حسن .

يأتى راعى الغنم عليها ثم يشرب ما تبقى من الزيت . يفتح الرحالة

علبة اخرى وكان قد أخطأ عندما ظن أن علبة واحدة كانت ستكفيهما، فمكتوب على العلبة الوزن الصافي : ٧٥٠ جم. بعد ذلك ، يشرب قصعة لبن قدمها له الراعى .

– لا نفتقر أبداً إلى شاة فقدت رضيعها تعطينا لبناً .

ثمة شرفة طبيعية أعلى حوض الجدول يمكن أن يرى من عندها نهر التاجه .

يصعد الرحالة ومعه راعى الغنم بينما تبقى النعاج تحرسها الكلاب .

– لا يمكن أن تضيع أى منها ، لا تنشغل بذلك ، فأمر القيادة جميعه يعتمد على القائد .

بينما يصعد الرحالة والراعى يتقايضان قطعة لحم مقدد ببرتقالتين ثم يتناولان جرعة من نبيذ الرحالة .

– منظر رائع .

– أجل ، هذا ما يقولونه . اسمع ياسيدى ، هل أنت بالمصادفة من وادى الحجارة ؟

– لا ، لم ؟

– أبداً ، كل من يصعد إلى هنا من أهل وادى الحجارة يقول نفس الشئ.

يتصنع الرحالة أنه لا يسمعه ويشرع فى الحديث عن الجودة المؤكدة للأراضى التى على ضفاف النهر .

– أجل يا سيدى ، بكل تأكيد ، هذه الأراضى جيدة فعلا ، فهنا الأرض الفقيرة هى أرض الجبل ، وما إن تهبط السهل حتى تجد أرضاً بهيجة سخية.

– أويزرعونها جيداً ؟

– نعم يا سيدى ، نعم ، كما فى أى مكان آخر إن لم يكن أحسن . بينما يهبط الرحالة متحدثا ومدخنا سيجارة مع الراعى يرى عن بعد طفلا مظهره برى وقد استرسل شعره حتى قفاه وصدره عار . يقف الطفل على قديمه على مسافة مائة خطوة . يناديه الرحالة فلا يتحرك ولا يجيب . ينصحه الراعى بأن يحجم عنه .

– لا تلتفت إليه فأنا أعرفه جيدا . فهو من أهل الأوليبار ويدعى ساتور نينو. يجوب الأرض هنا وهناك عله صائد شيئا . وهو صبى مخاتل محتال شديد الخبث ، ففى العام الماضى أوشكت أن أسقطه بضربة حجر بعد أن فقدت حملين رضيعين وفى رأيى انه هو الذى سرقهما .

– وهل هو دائما رهين الجبل ؟

– نعم .. دائما .. كأنه دلق .. فله حتى شعر الدلق .

ولكننى أقول إنهم سوف يروضونه فى الجيش . حسنا ، هذا إذا كان مسجلاً ، فهذا من الممكن ألا يكون قد سجل نفسه .

عودة إلى القطيع ، يودع الرحالة صديقه روكى ويخرج قاصداً دورون . ولا ترى القرية حتى يصير على مقربة كبيرة منها . انحرف الرحالة قليلا عن الطريق ووصل القرية مارا بجبل تراسكا ستبو الذى يمتد أسفله ممر التيرادور الذى كان قد عبره فى اليوم السابق ليلا فى طريقه إلى بوديا . وسفح جبل تراسكا ستيو شديد الوعورة كأنه قطع بمعول.

تمر لحظة يعتقد فيها المرء أنه سيستطيع أن يقفز حتى جبل كاستيودى مارانيا. يجب الهبوط فى هدوء حتى لا تزل قدمه وتتحطم ضلوعه . يجلس فى منتصف الطريق ليستريح بعض الوقت . يجرى جدول العزلة عند ممر التيرادور يسير جنباً إلى جنب مع طريق السيارات، وعلى ضفتيه مروج صغيرة تحجبها الأشجار تقريباً وهو منظر جميل

كأنه قصيدة رعوية أو كأنه مستخرج من سجادة حائط.

دورون قرية تناثرت فى أجزاء ثلاثة ، جزءان منها فى سفح الجبل والجزء الثالث - وهو الجزء الأصغر - يقع على حافة الطريق الذى سيأخذه الرحالة بمحاذاة البساتين . على أبواب المنازل يرى الرحالة ، مثلما حدث بالأمس ، نفس الجماعة من الرجال والنساء ونفس الكوكبة الكدرة من الأطفال .

ودورن قرية مضيافة وخفيفة الظل وتحسن مقام عابر السبيل، وهى تبدو طريفة للرحالة ، بل لطيفة . ما أظرف ملاحظة شدة التباين بين أهل بوديا وأهل دورون رغم قصر المسافة بينهما . فى دورون يتكلم الناس ويضحكون ويبدون أكثر حفاوة .

- إذا جئت باريخا لا تهمل الصعود حتى كاساسانا (Casasana) قريتى.

من تتكلم هى امرأة شابة لطفل له عامان يصعد على عربة كارو تقف على حافة الطريق فيقع فيبكى قليلاً ثم يعاود الصعود والوقوع والبكاء وهو - طبقاً لما يستمع إليه الرحالة من شرح - يقضى طوال المساء على هذه الوتيرة . من حين إلى حين تضربه امه على مؤخرته ، حينئذ يبكى الطفل بصوت أعلى لعدة لحظات ويجول صارخاً بين الجمع ثم يصعد من جديد إلى عربة الكارو ، كما هو طبيعى .

- أمى تمتلك النزل هناك . قل لها ياسيدى إنك رأيتنى وإننى بخير وإننا جميعاً بخير . إن أخى عضو فى مجلس بلدية كاساسانا واسمه فابيان غبردا .

سجل أسمه لئلا تنساه (١).

تتمايل أربع أوست أشجار من الحور النحيفة كالصفير مع نسيم المساء.

يتحدث شيخ فقد نصف أسنانه ، بنظارته وطاقيته وعصاه وذقنه التى لم تحلق منذ ستة أيام وسترته من القطيفة يعلقها على كتفه كمصارعى الثيران ، إلى الرحالة :

– وانت أيها الفتى ، أتسكن مدريد ؟

– نعم ياسيدى .

– أتعرف راميرو ، الذى يعمل فى معهد الرمد ؟

– لا يا سيدى .

– ولا خوليان ؟

– لا ، ولا خوليان .

ينظر الشيخ الى الرحالة فى ارتياب كأنه يقول : لا ، هذا لا يأتى من مدريد .

الله وحده يعلم من أين جاء . إذا كان من مدريد كان سيعرف راميرو وخوليان فكل الناس يعرفونهما .

ينظر الشيخ إلى الأرض ويضرب الحصى بعصاه ثم يرفع رأسه ثانية .

---

(١) تكتب اخت عضو مجلس بلدية كاساسانا أحيانا للرحالة . وتنهي خطاب ٢٤ ديسمبر ١٩٥٩ على هذا النحو : « تحياتي إلى زوجتك وأولادك ، وتقبلها ايضا من زوجي ومن طفلى الذى رايته ه يضرب على مؤخرته ، ومن هنه التى تقدركم ... كارمن غبردا . » (إن الشيء المثير للدعابة فى خطاب السيدة كارمن غبردا هى أخطاؤها الإملائية الكثيرة والشائعة – كما سنرى هنا فى خطابات أخرى – بين اهل القرى من غير المثقفين – المترجم) .

– كنت فى مدريد فى العام الذى انتهت فيه الحرب وكنت قد ذهبت لإجراء عملية كتراكت – وصحبنى ابنى بكو ، فلم أكن أستطيع الذهاب وحدى .

هو الآن فى الحقل .. إذا انتظرت قليلاً يمكنك معرفته ، لاأعتقد أنه سيتأخر .. لم أعد أذهب إلى الحقل .. لا أستطيع .. لقد ظللت أذهب إليه طيلة أكثر من أربعين عاما دون أن أتخلف يوما واحداً حتى انتهيت .

يبتسم الشيخ .

– يأتى الزمن على كل شىء كما ترى . عندما رقدت عاجزا كان ابنى بكو فى حوالى الثانية عشرة من عمره ، لم يكن قد أتمها بعد . أعطيته أدوات الزراعة وقلت له : هاك العدة ، والحقل أنت تعلم أين هو . وولدى ولد صالح ، فمنذ ذلك الوقت وهو يقوم على كل شىء . أتعلم ياسيدى ؟ أنا وهو نعيش وحيدين فأمه ماتت مولده، وخير لبكيتو (تصغير بكو) أن يعمل فى أرضه .. حسن .. هذا رأيى .

يشرب الرحالة قصعة من لبن الماعز قدمتها له امرأة [1] ثم يودع

---

(١) فى جماعة الرجال والنساء والأطفال التى التقى بها الرحالة فى دورون، كانت هناك أيضا ابنة أخت فابيان غبردا وهى أخت الطفل الذى كان يصعد عربة الكارو ويضرب على مؤخرته . كانت صبية بين أخريات ولا أتذكرها بالضبط . تكتب لى من حين لآخر . فى رسالتها المؤرخه فى ٢٢ فبراير ١٩٦٣ كان من بين ما كتبت :-

« ... أما بخصوص ما تقول بأنك لاتعرفنى ، فإنه عندما مررت هنا كنت أنا حيث كنت تستريح على الأرض مستندا إلى حجر كبير كان هناك ، وكان بصحبتك سيد وسيدة كانا يأخذان صورا فوتوغرافية للجبال ، وبما إننى كنت فى الخامسة عشرة من عمرى ، أتذكر جيدا كل هذا وكنت تتحدث مع أمى ومع الرجل المريض بالكتراكت، ولذا فإنك بالتأكيد سوف تتذكره إذا ما رأيته . وبعد ، فإنى متزوجة ولى ثلاث بنات أكبرهن فى الثامنة من عمرها والثانية فى الرابعة والأخيرة عمرها عامان ، وهكذا فإنى متأهبة تماماً ، فزوجى من عمال التراحيل وهو يعمل الآن فى الكنيسة التى يقومون ببنائها ولكن العمل سينتهى فى يولية أو أغسطس حيث يرغبون فى افتتاحها فى هذا الشهر ، وحينئذ عليه أن يبحث عن عمل لأنك لو رأيت القرية الآن .. أقول لك إناً إن سبعين من أهلها اضطروا للرحيل عنها لعدم وجود عمل وشيئا فشيئا رحل الكثير . –

الناس ويرحل .

جعل الطريق للسير وللجلوس على حافته والحديث مع الناس ، وفى النهاية يستهوى الطريق من يمشيه . يحل الظلام بعد الخروج من دورون بقليل وقبل بلوغ نهر التاجة . ويهبط الليل فى سرعة ، وربما قبل الأوان عند المفترق ، يطلب زوج من الحرس المدنى أوراق الرحالة .

– إلى أين تذهب فى هذا الطريق وفى هذه الساعة ؟

– أود الوصول حتى باريخا .

– حتى باريخا ؟ قد تمضى الليل سائراً .. فثمة ثلاثة فراسخ أو ما يقرب من أربعة . أنت حر ... أوراقك سليمة .

يسير الرحالة ورجلا الحرس المدنى معا ساعة ، حتى الجسر .

– سنبقى نحن هنا ، كى تصل إلى باريخا : سر فى خط مستقيم ثم انحرف يمينا عند أول تقاطع ثم يسارا عند التقاطع الثانى .

– شكرا جزيلا .

– عفوا .

يجلس ثلاثتهم ليدخنوا سيجارة . ورجلا الحرس خفيفا الظل . أحدهما شيخ له شارب وله مظهر رجال الحرس المدنى القدامى ، وهو

= لأن الاكل والملبس لا يقبلان اعذاراً ، وكذلك المصروفات ، ولذا فإ زوجى يريد الذهاب للعمل فى الحصاد .. الخ » .

وتلك الفتاة تدعى ليبراتا دياث غبردا وزوجها ميريانو روميرو كريسبو . عرضت عليها العمل هنا فى مايوركا التى تعد دائما ملجأ أمينا لعمال اندلثيا وقشتالة ، ولكن الخطاب المؤرخ فى ٨ مارس كان اكثر تفاؤلا ، ففيه تقول : « ... حتى الآن يبدو أن ثمة فرصة عمل ، ولقد رفعوا أجر اليومية إلى ٩٠ بزيتة لأنهم باعوا الجبل فى البلدية – ارض بـ ٩ ملايين لعمل ٨٠٠ منزل – فالآن إذاً سيكون ثمة عمل .. واليوم ارسل الخرجة الملصوقة لزوجتك ... إلخ » (هنا أيضاً تكثر الأخطاء الإملائية – المترجم) .

يحكى نكاتا جنسية بوقاحة عفا عليها الزمن . والرجل الآخر شاب له مظهر المخنثين متعقل جاد صمُوت . قد تبدو هذه الجماعة غريبة وشبحية فى ضوء القمر .

– ايضايقك ياتورّ موتشا ؟ نعم يضايقك .. سأصمت .

تتأرجح نبرة سخرية هازئة مليحة فى كلمات رجل الحرس المدنى .

– لا ياسيد بيرث .. تفضل .. اكمل ..

ويجد السيد بيرث نفسه مضطرا لتفسير ماقال :.

– الحقيقة ان الصديق تورموتشا – أتعلم ياسيدى ؟ عاد إليه حماسه للحركة الوطنية المجيدة فاستبدل خدمة القديسين بخدمة السلاح ، فى رأيى كأنه لم يفعل .

يصمت رجل الحرس تورموتشا ، ولكن صمته لا ينم عن شىء من الموافقة .

– هل قرأت موتش غراثيش (جزيل الشكر) ؟

– أحيانا ...

– يالها من مجلة ويالهم من سفهاء ،وأية أشياء يخترعونها . «وكرونيكا » ؟

– من حين لآخر ايضا .

– كان مقرى حينئذ كرابا نتشل ، وكلما حانت فرصة – هوب ! – كنت أجرى إلى مدريد وأذهب مباشرة إلى تياترو إسلابا ،وتياترو مارتين، ولكننى الآن صوت شيخاً .

يمسح رجل الحرس بيرث على شاربه ويأخذ نفسا من سيجارته .

فرجل الحرس بيرث الذى يعلق بندقيته على كتفه ويطلب بطاقة الهوية من المارة هو رجل يعيش على الذكريات .

على مسافة كيلو متر أو اثنين إلى الأمام ، عند المفترق المؤدى الى تشيارون دل ري، يبسط الرحالة بطانيته ويتخذ له مكانا للنوم على حافة الطريق ، تحت شجرة نبق .ليس الجو بارداً على الإطلاق . الليل ساكن والسماء مرصعة بالنجوم .

تصفر هامة على زيتونة وتغنى صرّار الليل بين أشجار الحرشف ، ولا يلبث الرحالة المتعب أن يروح فى نوم هادىء عميق ومجدد للنشاط ..

يستيقظ ومازال الوقت ليلا ، فيشرب جرعة نبيذ ويأكل برتقالتين وكسرة خبز ثم يجدّ فى سيره ربما أقوى من أية لحظة مضت ، فهو لا يحس بثقل زاده ولا بساقيه ولا بالطريق . ويباغته أول خيوط الفجر على مرمى البصر من باريخا عند أرض وارفة الأشجار بديعة الزرع ، وفى حقل أحمر من الطين ملىء بالبساتين التى يرى من خلالها فى بعض الأحيان مصنع للآجر اجتهد فيه الناس فى أعمالهم .

وباريخا بلدة صناعية وكبيرة تقوم فيها المنازل الحديثة إلى جانب منازل تهدمت ،وبها خان صغير فى ميدانها الرئيسى . والميدان واسع ومربع الشكل فى وسطه عين ماء بها عدة أنابيب حولها حوض ودردارة عتيقة - دردارة يسمونها لأنها مستديرة - مترامية الأغصان رءوم ، دردارة عتيقة قد تبلغ فى قدمها مبلغ أقدم حجر فى القرية .

نافورة فى الباحة
ودردارة عتيقة .
ويمر لقلاق
فوق باريخا .

حول العين تجمعت النسوة ليملأن جرارهن وأبار يقهن الفخارية .

وهن يحملن الجرار على مؤخرتهن وأنبوب من « البوص » على أكتافهن ويستخدمن الأنبوب في توصيل الماء الساقط من عيون الماء على إرتفاع متر ونصف تقريباً من حافة الحوض إلى الجرة . ولنساء باريخا مهارة غريبة في اقتناص - أوصيد - الماء مباشرة دون أن يسكبن قطرة ماء واحدة .

يدخل الرحالة النزل فهو يريد أن يتناول فطورا ساخنا ، وأ ن يغتسل ثم يستريح بعض الوقت . وبالفندق كراسي هزازة تأسر ، وفتاتان متوردتان مليحتان بدينتان تضحكان بينما تعملان بجد، ومن مكان إلى آخر : فتحملان شيئا أو تنظفان مبولة أو تنفضان الغبار عن الأثاث أو ترتبان الأسرة أو تمسحان الأرضية . كل هذا في وقت واحد وفي غير نظام .. كل هذا في بهجة . تسمى إحداهن إلينا والأخرى ماريا . بينما يشاهد الرحالة إلينا وماريا تعملان يلاحظ أن خدرا متفائلا ينتابه . الفطور لذيذ جدا حقا . تشقشق العصافير على دردارة الميدان أمام الشرفة المفتوحة المليئة بأصص الغرنوق ، ويغنى عصفور كنارى أصفر في قفصه نافشا ريش رقبته ، وينام قط في الشمس داخل الحجرة في ركن به حصيرة من الحلفاء ويتبول طفل في عظمة وتحد من شرفة .

يرى من خلال الباب المفتوح صبى كسيح في الحجرة المجاورة يحرك يديه بكثرة ، وهو صبى مصاب بالصرع ، وربما كان شبه مجنون ويجلس على كرسي منخض ولا يتحكم في حركة ساقيه المغطاتين ببطانيه . يغمر الرحالة فجأة شعور بتأنيب الضمير .

تصل إلى الميدان ، وسط سحابة من الغبار وكوكبة من الصبية ، حافلة هزيلة صاخبة وثابة تقف دقائق كي يهبط الناس ثم تمضى في طريق

إسكاميا (Escamilla) محدثة جلبة وكأنها جنت . بعد لحظات ، وعندما تبتعد الحافلة تماما ، لاتزال حشرجتها تسمع لوهلة حين تصمت عصافير الدردارة .

كما يصل إلى الباحة شيخ يدق ناقوساصغيرا . يلتف حوله الناس فيقف الشيخ على بعض الحجارة . في يده اليسرى أوراق ويشير بيده اليمنى ويحركها كأنه محرض سياسى . ولا يرغب الرحالة الجالس على كرسيه الهزاز في النهوض ليسمعه ويكتفى بالتقاط شيء مما يقوله الشيخ من وقت لآخر . ولا يمكن للصبى الكسيح - الذى يبدو وقد سئم جلسته - أن يقف ليسمعه، ولكن بما أنه ليس بالأمر حيلة ، يرضى بوضعه وينظر إلى الباحة بايماءة حسد غبية متوحشة .

وينادى الشيخ - الذى يلبس قلنسوة من القطيفة الخضراء ويطلق لحية بيضاء - على بضاعته . له صوت قط أو صوت امرأة ، وهو يصرخ بأعلى صوته كى يسمعه الناس .

وهو ضئيل الجسم محنيه ويبدو يهوديا . يفهم الرحالة خطبة البائع المتجول عن نحو متقطع :

- صلاة عذراء الكارمن والقبر أو ما يستطيعه العشق ! وتانجو البريغادبير بياكاميا الرائع و أغنيات المطربتين لا بارالا ولا بلونا ، وأشعار كتبها متهم قبل إعدامه في مدينة أشبيلية اسمه بيثنتى بيرت ، بواق هافانا .. أحس أن حبك يولد فيّ عندما أعلم أنك ستعود .. أخرها مؤلفات ثليا غامث ، فظائع مرغريتا، من مواليد تماريتى .. بخمس .. اشتر أغنية الموضة الرائعة بخمس ...

يرسل الصبى الشاذ بإشارات إلى الرحالة حتى يلتفت إليه ، فيقول له : ماتريد ؟ لكنه لا يفهم ماذا يريد ، لأن الطفل لا يستطيع الكلام تقريباً .

عندما يصل إلى كرسيه يسأله الصبى فى تلعثم وفى صعوبة شديدة :

– اسمع يا سيدى ، هل هذا الرجل من هنا ؟

– لا يا بنى .. هو ليس من هنا بل من برييغو .

– هذا ما بدا لى ، فلم أكن قد رأيته من قبل .

يمر لقلاق طائرا على ارتفاع منخفض فوق الدردارة .

– اسمع يا سيدى ، هلا اعطيتنى سيجارة ؟

– خذها .

– اسمع يا سيدى ، إذا جاءت أختاى ورأيتا الدخان قل لهما إنه دخان سيجارتك هه ؟

– حسن ..

يحمل طائر اللقلاق ثعبان ماء فى مقاره ويختفى خلف المنازل .

وباريخا قرية يتحمس اهلها للأفكار الجديدة . فقد زرع ثرى منذ عامين أو ثلاثة أرضه فاصوليا بدلا من الشعير ونشر إعلاناً قال فيه : إن كل من يرغب فى العمل لديه فى زرع الفاصوليا سيدفع له عشرين سنتيما لكل ضربة فأس . وتعنى ضربة الفأس والحفرة نفس الشئ، وفى كل خط تضرب ست ضربات .

كما عرض أيضا سنتيما واحداً لكل ضربة تضرب لعزق الأرض وتخليصها من الأعشاب الضارة .. وعندما جاء موعد الحصاد وراجع حساباته اكتشف أنه صرف ثلاثين ألف بزيتة وأخرج فاصوليا بقيمة ألف.

عاد اللقلاق محلقا فوق شجرة الدردار فى الاتجاه المعاكس .

فى ساعة الغداء ، أكل الرحالة بشهية وأكل كثيراً . وإلينا وماريا ربّتا

بيت ممتازتان . وكان الرحالة قد أكل حساء الثوم وبيضتين محمرتين وسمكا مقليا تحرق قليلاً وفخذ خروف وسلطة طماطم وخس .

بعد ذلك ، يتحدث الرحالة بعض الوقت مع إلينا وماريا . إلينا وماريا فتاتان مجدتان وأمينتان وصحيحتا البدن والروح ورقيقتا الحاشية وطلقتا المحيا وباديتا الحسن . وإلينا وماريا بلا أدنى شك مكسب طيب لأى رجل . إلينا تحب المطبخ وماريا تحب الأطفال . إلينا تفضل الرجال السمر وماريا تفضل الشقر . وإلينا تحب الرقص فى الباحة وماريا تفضل التنزه فى الغوطة . إلينا تفضل الكلاب ، وماريا القطط. وإلينا تحب الخروف المشوى، وماريا تحب عجة البيض الفرنسية . وإلينا تحب القهوة ،وماريا لا تحبها. وإلينا تحب قراءة الجرائد لكن ماريا لا . وماريا تحب قراءة الروايات التى تحكى قصة الفتاة الريفية الجميلة التى تتزوج من الدوق الشاب الوسيم وينجبان البنين والبنات ويعيشان سعيدين فيوقدان المدفأة فى الشتاء ويفتحان الشرفات على مصاريعها فى الصيف .

بينما يستمع الرحالة إلى إلينا وماريا يفكر فى تلذذ ، فى مسألة تعدد الزوجات . الجو معتدل ومعدته متخمة بأطعمة نبيلة وعريقة ، بطعام تاريخى وعتيق كساحات المعارك . ولولا انه كان قد عقد العزم على الا يبيت ليلتين متتاليتين فى قرية واحدة – وليس ثمة أو لا يجب أن يكون ثمة ما يثنيه عن عزمه – لكان استقر فى باريخا ولما تحرك من هناك ما تبقى من أيام عمره .

ثمة احيانا إحساس خطير برغد العيش قادر على أن يهد جبالا وتجب مكافحة هذا الإحساس بشجاعة كما لو كان الإنسان يكافح عدوا . بعد ذلك، بمرور الوقت ، نشعر بهذه الأحاسيس كقطرة من عصارة الصبار فى القلب .

ينتهي الأمر بالرحالة إلى أن ينام فى كرسيه الهزاز فى سعادة غامرة . تركته إليا وماريا الحصيفتان لكن الرحاله يحس بهما فى نعاسه وهما تتحادثان - إلينا بصوت كصوت الصبى ، وماريا بصوت طفلة - عن هواياتهما وهمومها الرقيقة وعن الغلاء الذى أصبح عليه كل شئ.

عندما يصحو تكون الشمس قد آلت إلى المغيب وسقطت الظلال الأولى على دردارة الباحة. يبدو أن الرحالة نام ساعات طوالاً . يشعر بارتعاد فرائصه قليلاً فينهض ويغلق الشرفة .

بعد ذلك يجلس من جديد ويدخن سيجارة . لا أحد يمر والحجرة معتمة تماما تقريباً . يخرج إلى الممر ويصفق بيديه مرتين فيفتح باب المطبخ ويضيء بسطة السلم تماما ويسمع صوتا يقول : حاضر. أطلقت الصوت إلينا بينما تذهب إليه ماريا .

- أكنت تنادى ياسيدى ؟

- نعم يا ابنتى ، أين الضوء ؟

- هناك ، لكن انتظر يا سيدى ، ففى هذه الحجرة ليس ثمة مصباح .

يصمت الرحالة وتصمت ماريا . وكانت ماريا قد قالت «فى هذه الحجرة ليس ثمة مصباح» بحزن عميق بل إن صوتها كان يرتعش قليلا. يبتسم الرحالة وتعود ماريا إلى المطبخ يحتار الرحاله فى أمره للحظات ، وعندما يبلغ المطبخ يجد ماريا غارقة فى دموعها جالسة على مقعد واطئ إلى جانب الموقد. وإلينا تقشر الآن بصلة وتنظر إلى الرحالة نظرة شرسة لامراء فيها . فتلمع عيناها كان بهما حمى وينتفض صدرها بعنف.

- ماذا قلت لأختى ؟

وصوتها الذى كان من قبل حزيناً جميلاً يدوّى الآن برنين معدنى

كريه .

– أنا ..

تقاطعه إلينا ولا تدعه يتكلم .

– خذ يا سيدى جرابك وارحل فى الحال . الحساب أربع عشرة بزيتة

★★★

توجه الرحالة مغموما إلى مصنع قرميد لينام هناك ، على ضفاف جدول إمبولبيدا، ووجد ثمة رجلا يعيش وحيداً ، رجلا لا يعرف المراوغة

– أآت أنت بنية طيبة ؟

– بأطيب نية فى العالم ، أقسم لك .

– أمعك سلاح ؟

– لا ياسيدى ، فقط سكين الرحلات هذه . وأحملها معى دائما لوعد قطعته على نفسى .

– خلها معك ، فهذه السكين لا تقطع شيئاً .

– شكراً .

– لا تشكرنى على هذا ، أسنصبح صديقين ؟

– هذا ما أبحث عنه .

– انتظر إذاً لحظة لنشرب جرعة خمر .

أنزل الرجل قربة النبيذ الصغيرة المعلقة على الحائط .

– تفضل ..

– أنت أولا فأنا رب البيت .

شرب الرحالة جرعة من نبيذ خشن مفرط فى الحلاوة ثم أعطى

القرية للرجل .

- اسمع يا سيدى ، أنا لا احب ان إسأل اكثر من اللازم لكن لِمَ لم تمكث فى القرية ؟

لا يعرف الرحالة بم يجيبه ويداريه الحقيقة .

- حسن .. كما ترى .. مجرد نزوة .. لقد سئمت قليلا القرى والفنادق.

- حسن ، لدينا هنا فندق ممتاز .

- فى باريخا ؟

- طبعا يا رجل هنا وليس فى مدريد بالطبع . النزل الكائن فى الباحة يشتهر بانه مكان طيب جداً ...

الرحالة ينظر إليه .

- اجل ، هذا ما قيل لى .

عاود الرجل الضحك ثم رشف جرعة من النبيذ ثم تنهد .

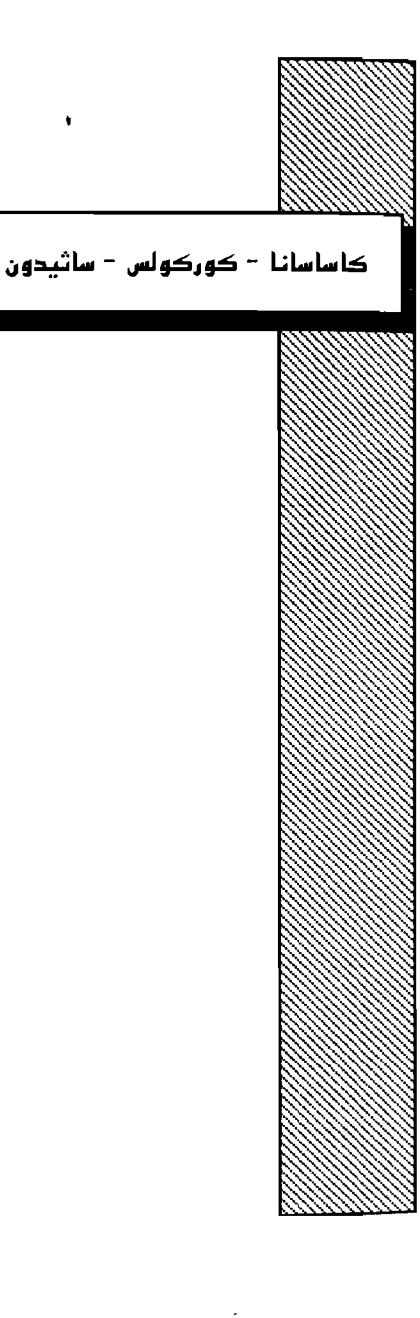
- حسن .. ما بوسعى أن أقول ؟ .. يقولون إن كل شئ جميل فى الحب . إن إحدى فتاتى النزل ، ماريا - من المؤسف ألا تعرفها - ،ستقترن بى فى الربيع إن شاء الله . وأنا أترقب الموعد ، فلك أن تتخيل نومى هنا، بينما يمكننى النوم فى النزل .

فى ضوء القنديل ، بدا محياه محيا رجل سعيد الطالع . وبدا ساكن مصنع القرميد ، وقد عمر خياله بالمشروعات الذهبية ، ملاكا ضخما فظاً يحتسى نبيذاً أحمر : ملاكا صغيراً حبته القدرة نورا داخلياً .

- حسن ، فلتكونا فى اتم سعادة .

- شكراً ، هذا ما أتمناه .




كاساسانا - كوركولس - ساثيدون



من باريخا إلى ساثيدون يؤخذ نفس طريق السيارات الذى جاء منه الرحالة فى اليوم السابق ولكن فى عكس الاتجاه . وعند بلوغ المفترق ، وقبل أن يصب جدول إمبوليدا فى نهر التاجه بقليل، يجب الانحراف يساراً ، نحو الجنوب لبلوغ طريق وادى الحجارة – كوينكا فسا ثيدون تقع بعد السير فى اتجاه كوينكا بقليل .

كما يمكن أيضا الذهاب من الناحية الأخرى ، أى معطيا ظهره لنهر التاجه ، ومروراً بإسكاميا وميانا (Millana) بمرتفعات اليانو (El Llano)، حتى بلوغ طريق السيارات عند الكوثير [1] حينئذ يمكن المرور على

---

(١) بعد الكوثير ، بعد الانحراف مرة أخرى بعيداً عن طريق السيارات ، تقع قرية بالداوليبس (Valdeolivas) أهدانى صديقى المثال أنخل فيرانت مرة رسالة تاريخية – رسالة كتبها رجل ابتلعه التاريخ وإن كان ذلك لا يمنعها أن تكون تاريخية – يحكى فيها صاحبها وقعة وقعت له فى فندق الكوثير مع فتاة من بالداوليبس نزاعة إلى المتعة الجسدية. وأنا أنسخها هنا كتحفة أدبياً صغيرة لها دلالتها «الإسبانية» وكإرشاد للجميع ومتعة لهواة الصبايا والأدب : بايبكس فى ٣٠ ديسمبر ١٨٩٧ .

صديقى دون خوسيه: أعلم يا سيدى أنى عدت سالما من رحلتى حمداً لله .

كنت فى تنديا (Tendilla) مع المدعو روخس ، وقال لى إنه ينتظر فتى من بياردى لاسرون وإنه لن يلتزم بأى شئ حتى يرى ما كان من شأن هذا الفتى . وأعلم يا سيدى انه فى اليوم الذى وصلت فيه الكوثير توقفت فى الفندق الذى تقف عنه السيارة فما لبثت أن جاءت فتاة من بالد أو ليبس عادت لتوها من مدريد وجلست تحت الضوء عند قدمى . فشرعت فى تناول عشائى فأخرجت هى طعاماً وبدأت فى تناول عشائها أيضا . انتهينا من العشاء

كوركولسي (Córcoles) .

وسألت صاحبة النزل عن سرير انام عليه . فتثب هي قائلة «وآخر لي» ، فتجيب امرأة النزل بأن عليكما أن تناما في غرفة واحدة لأنه لا توجد إلا هذه الحجرة في الطابق العلوي التي ننام فيها نحن عادة ، واقول هذا حتى لا تتهمني الفتاة بأني لم انبهها. فتثب الفتاة خالعة العذار وتقول : أعتقد ان هذا الرجل لي يصيبني بمكروه. قالت هذا ضاحكة ، فقلت لنفسي : الا تكون هذه من بنات الهوى ؟ صعدنا إلى الطابق الأعلى فرقدت في فراشها وأنا في فراشي وكان السريران في مواجهة بعضهما البعض ، ولم يمنعها الحياء او اي شيء من هذا القبيل من التعري أمامي . اطفأت الضوء بينما كنت في فراشي أكاد أجن متحيرا في امري أهي من بنات الهوى أم هي شريفة ؟ قمت من سريري وذهبت إلى حيث كانت والحقيقة أنني تلمست طريقي في الظلام واصطدمت جبهتي بالسرير. بلغت فراشها وعثرت بوجهها وهي ساكنة ثم دسست يدي وتحسست ركبتيها وهي ساكنة ، وعليه فقد قلت : لتذهب إلى الجحيم ورفعت ملابسي ورقدت معها وقضينا طوال الليل كالزوجين. وهكذا قضيت ليلة سعيدة معها ولكنها قضت على سعادتي بأن سُرقت ثلاث قطع نقود من فئة خمس بزيتات من جيب صدارتي، فقد كنت قد غيرت ورقة نقدية فكة لشراء تبغ ووضعت النقود في الصدارة فجردتني القحبة من ثلاث قطع كانت بها. ربما تعرفها بالصادفة فهي من بالد أو لسبيس وليس لها اب وقالت إنها ذاهبة إلى القرية لرؤية أمها المريضة .

وبعد ، يا سيدي ، فأنت تعرف اين اقيم ، فأنا اقيم في باييكس وأتقاضى خمسا وعشرين بزيته في الشهر إلى جانب حق المسكن والأكل وغسيل الملابس ، وبعد فتجدني رهن إشارتك في أي وقت وإذا كنت في حاجة إلى فما عليك إلا ان تكتب لي. إذا كنت تعرف بالمصادفة قرية معينة فتذكرني ، هذا كل ما أود أن أقوله لك . فيما عدا هذا ، سلامي إلى المعلمة وبقية العائلة من صديقك الذي في خدمتك .

مانويل مارتين

ملحوظة :

العنوان كي تكتب لي إن شئت : السيد الاستاذ مانويل مارتين ، مقاطعة مدريد ، شارع ريال دي أرغندا رقم «٩» «في باييكس» (هذه الرسالة ايضا مثيرة للدعابة من حيث طريقة كتابتها ، في غياب الترقيم بها وكثرة الأغلاط الإملائية وبعض الخطأ في تركيب الجمل مما يجعلها صعبة القراءة . عند الترجمة حاولت نقل كل ما بها من معان والمحافظة على

إما إذا أريد الذهاب إلى ساثيدون – التى تتأخر قليلا فى الظهور فيتحتم

اسلوب يكتب به شخص بسيط . ولكنى لم التفت إلى نقل الخطأ سواء الإملائى او الأسلوبى لاستحالة ذلك منطقيا – المترجم)

وفى هذه البقعة من إسبانيا ايضا ، وإن لم اذكر القرية وغيرت أسماء أشخاص الحكاية ، كان ثمة كاهن – دون سالو ستيانوبردوغو ، قس – كتب رسالة تعد نموذجا للنثر المشعث . بعث بها إلى محام من مدريد قارئ لى (ليس صديقا شخصياً) ومكلف بالدفاع عن أحد اللصوص يشار إليه فى الرسالة ، برجاء وحيد بأن اغير الأسماء والأماكن ، وارد على كرمه بالطاعة طبعاً كما هو منطقى . تقول الرسالة :

« ن .... ، فى ٧ اغسطس ١٩٦٠.

السيد قس وخورى كنيسة السيدة عذراء كوبادونغا – مدريد .

اخى فى الكهنوت : ردا على رسالتك بشأن موضوع كيتانو الشهير . قل لابنة ابرشيتك إن سلفى دون مارثيلينو قد مات وكذلك أمه وإنى اخلفه فى الأبرشية منذ عامين. (والفرد) المسمى كيتانو كنت قد عرفته بالمصادفة قبل أن أكون قسا فى سجن وادى الحجارة إلى حيث كنت اذهب لأشرح تعاليم الكاثوليكية ، وعندما قال لى إنه من قرية .. (قرية قريبة من قريتى) وضعت ذلك فى اعتبارى وهو بائس وكما تقول انت (سكير ومقامر وزير نساء فضلا عن انه لص) مصيبة .. وعندما جئت القرية أوقفته عند حدوده حيث كان يكلمنى بصفة الند لأنه كان قد عرفنى أيام كنت ادرس الكهنوت وكنا نسمح للمساجين بأن ينادونا بأسمائنا حتى نتخلص من الحواجز بيننا. ومنذ أيام وهو على اتصال غير شرعى «بشخصة» تدعى ليثيا او ليتيثيا (قله لزوجته البائسة) وسط سخط القرية والأبناء والزوج الذى كان يعمل فى الحصاد فى مدينة ثيوداد ريال وهما الآن يعبثان بغيابه وهى لا تقل إثما عن كيتانو .

وكما ترى فإنه يحيا لتعاسة زوجته فيقولون إنه نسيها وإنه يفكر فى المطالبة بابنه (الذى يعيش فى مدريد) للاستفادة منه (أعتقد) ، وإخوته ما يزالون على قيد الحياة ، أكبرهم متزوج فى فرنسا والبقية هنا ، يسمونهم «الإخوة» ويسمون كيتانو هذا «الخطاف» وهو شخص يقض مضاجع اهل القرية ، وغير مرغوب فيه ولص يعيش رسميا وحده فى منزل حقير واحيانا مع اصدقاء غير متزوجين ويعيش على صيد الأرانب غير المشروع ويبيعها او يأكلها أو يتسول .. إلخ .. فهو مصيبة، ولك أن تتخيل حال هذه

لزوجة البائيسة التعسة . وأعتقد أن الحل الوحيد الممكن هو الشروع فى إجراءات الانفصال قضائيا وألا يأتى ابنه أملاً أنه سيجد عطفا من أبيه ، إلا إذا جاء وأراد أن يواجه أباه بالحقائق فى حزم وأعتقد أنه سيسمعه لأنه شقى وليس لديه ما يقوله على سبيل الا عتراض ، ولكن ليس من وراء هذا كله أية فائدة .

أحيانا أراه يحوم حول القرية ومن بين آلاف الحالات أقول لك إنه كان من الخسة إلى حد لم يتورع معه عن سرقة الخنازير ونبحها وتمليحها وحفظها فى مستودع بالمقابر التى تستخدم فى حالة قرية كهذه – قليلة السكان – مرة كل مائة عام ، وفى أحد الأيام دفع الفضول أطفالا أبرياء إلى هناك فرأوا ذبائح كيبتانو التى يقولون إنه يقدمها رشوة لسلطات .. (الدائرة القضائية) . وفى أحد الأعوام كان قد تحالف مع رهط من الأشرار ، وفى إحد الأيام أقنع أحدهم بدخول حظيرة خنازير فى أحد الحقول على ألا يخرج منها حتى يعود بالطعام من قرية مجاورة ثم أبلغ الحرس المدنى ، وعندما جاءوا وأعطوا الأمر بإطلاق النار على من بداخل الحظيرة قام هو بتنفيذ الأمر خشية أن يأخذوا اللص حيا فيعترف ضده .

كافأك الله اهتمامك الذى أرى أنك تقوم به تجاه تعساء هذا العالم والذين لا يجدون ملجأ أرخص من بر رعاة الكنيسة . ولقد مات والد كيبتانو منذ فترة لذا فصدق يا سيدى كل ما تقوله لك دولوريس لأنهم يقولون هناك إنها امرأة صالحة لو ما يفهم من العامة بأنها صالحة ، ولا أعتقد أنها تبالغ عندما تحكى ظروفها التعيسة .

أخوك فى الكهنوت

«سالوستيانو بردوغو»

ولم يكن السيد سالوستيا نو على علم بالأحداث ولم يكن يقف إلا على مغامرات طرف واحد من الطرفين المتعاقدين . فأكمل النقص بخطاب المحامى :

«مايجهله الموقع على الرسالة هو أن دولوريس عاشرت رجلا آخر (توفى) معاشرة الأزواج وأنجبت منه ولدا (هو الآن حديث السن) وأن الابن الأول الذى حاولت الرسالة منع وصوله إلى أبيه هو الآن فى السجن بعد محاكمته فى ثلاث قضايا مختلفة بجرائم ضد الممتلكات .

أما القرية التى لا يوصل إليها أى طريق فهى كاساسانا . فمن باريخا إلى كاساسانا ليس هناك لا طريق لسيارات ولا طريق دواب فيجب صعود هضبة وعرة من خلال شعب للماعز اختفت معالمه .

ولا داعى إلى أن نقول أن الرحالة بالطبع سار فى طريق كاساسانا. كان لابد أن يحيى فابيان غبودا ، أخا المرأة التى التقى بها فى دورون . وكاساسانا قرية ارتقت جبلا ، مرتفع لا بيليتا (La Veleta) ، ولكن من الناحية الأخرى ، الناحية التى ينبسط فيها الجبل شيئا . ولا ترى كاساسانا حتى يصل إليها . وهى قرية صغيرة قليلة الزراعة وفيرة الماشية فيها مايربو على ثمانين بقرة . وكاساسانا هى الضيعة الوحيدة فى إقليم القرية التى وجد فيها الرحالة أبقاراً هولندية بيضاء وسوداء تدر الحليب كأبقار سانتدير (على الساحل الشمالى الإسبانى – المترجم) .

وكانت الأبقار نحيفة عامة ، ولكن يلاحظ من الوهلة الأولى أنها من سلالة جيدة .

==

ويبدو لى شخصيا أن دون سالوستيا نو بربوغو ، القس ، متخلف عقليا وقاس ومتعجرف، فكيبيتانو ، الخطاف ، لم يكن إلا بائسا وفريسة يتيمة ومضطهدة وقادرة – كذئب الجبل – ملائكياً على ارتكاب أكبر الفظائع التى ترتكب دائماً بطبيعية . وتطبيق عقلانية، أو منطق العقول التى نصطلح على أنها عادية على من يولدون ويعيشون ويموتون فى ظروف غير إنسانية ، هو خطأ اعتاد أن يقع فيه بكثرة القضاة والمؤرخون . ضد المبدأ الباطل – أو الخيالى – القائل بأن كل الناس متساوون أمام القانون ، أجهر بأن هذا الإعلان لا يمكن أن يأخذ على أنه إعلان بديهى حتى تتساوى أيضا لكل الناس إمكانيات ظروف حياتهم ، وهو وضع أعتقد أنه مازال بعيداً . لو أن الدول لديها المرونة التى تفتقر إليها الآن لعد القضاة فى عداد أطباء الأمراض النفسية (لأن اكتساب حرفيات العمل القضائى هو أمر فى متناول الجميع) .

والشعب الـذى يرتقى حتى كاسـاسانا – شـعب روبليخـيلا (Roblegila) هـو شـعب ملعون وملـئ بالحجـارة وصخـرى وشـديد الانحدار . الشـمس حارقة ويثـقل حمل الرحالة فى غير ضـرورة أو مناسبة . يتعبـه الصـعود ، وفى منتـصف الطريـق يفكر الـرحـالة الذى يتـصـبب عـرقـا فـى أنه من الأفضـل التـوقف وتجديد النشاط . يجـلس راع تقدم به العمـر فى الشمس وقد تدثر جيدا ببطانية حتى قمة رأسه . يقترب منه الرحالة :

– صباح سعيد ..

– وبارد بفضل الله .

– بارد ؟

– دع السير وسترى .

من هذا الارتفـاع ، ومن حيث لا تُرى بعـد كاسـاسانا ، يرى منظـر عام رحب وبهى . وهـو متنوع مـابين الأحجار الضـخـمة العارية والخضـرة غير الكثيفـة القريبة وأراضى باريخا الحمـراء والبيضـاء فى السـفح وضـفاف نهر التاجه الخضـراء إلى اليسـار بعيدة جداً .

هناك بالفعل يهب نسـيم عليل يقشـعر له البدن يحسـه الرحالة الذى لا يلبث أن يواصل طـريقه . سرعـان مـا تلوح كـاسـاسـانا بعـد صـعـود آخـر ربوة.

مــــــــــــرج
وحقـــــل زيتون
قــــــــرمزى
لــــــون الزعتر
ولا تتحـــــرك
كأنهـا أمام المذبح

– آه يا كاساسانا

الجبـــــــلية

والصبيـةالغضة –

الجيـــــــاد

التى تـــــرعى

ولون كاساسانا رائع بين الأخضر الداكن والرمادى المائل للزرقة . تجلس صبيتان فى الشمس ترعيان بقرة على أعتاب قصر عربى عتيق تستخدم إحدى واجهاته فى لعبة الكرة الباسكية (١) عندما يمر الرحالة تنهضان وتمعنان النظر إليه بعيون شاخصة شاردة . ترتديان ملابس فقيرة ولهما عيون سوداء عميقة تنضح سحراً ونبلاً . يسأل الرحالة عن أشياء يعرفها :

– اسمعا أيتها الصبيتان ، هل هذه قرية كاساسانا ؟

– نعم ياسيدى . وأية قرية ستكون ؟

تمر امرأة .

– اسمعى يا سيدتى ، أين النزل ؟

– فى كاساسانا ليس لدينا نزل ياسيدى .

وللمرأة أيضا عينان وشعر بلون الفحم وجمال بدائى على النسق القديم ، شأنها فى ذلك شأن كل نساء القرية .

---

(١) لعبة شبيهة بالاسكواش وإن كان لاعبو الكرة الباسكية لا يستخدمون مضارب ، كما أن كل فريق يتكون من لاعبين . وحائط اللعب فيها أعرض وأعلى من حائط الاسكواش .
تشيع اللعبة فى إسبانيا وبعض الدول الأخرى . فى حالة استخدام مضارب يكون شكلها على هيئة ثمرة الموز – المترجم .

– فى دورون التقيت بواحدة من كاساسانا، متزوجة هناك ، قالت لى أن أسأل عن أمها . أخوها عضو فى مجلس البلدية .

– كارمن غبردا ؟

– نعم .

– حسنا . سأريك الطريق . فأمها صاحبة النزل .

والرحالة الذى كان قد اكتشف أن كلمة (Mesón) غير معروفة فى الإقليم ، يعرف الآن كيف يفرق بين الفندق (Parador) وبين النزل (Posada) فالفندق به حظيرة دواب . فى كاساسانا نزل وليس بها فندق . ترحب والدة كارمن غبردا بالرحالة بشئ من التحفظ . ففى القرى اعتاد الناس الاحتفاء بعابرى السبيل ولكن بشئ من البرود . لقد أخذوا عبرة ولا غبار على ذلك . فمنهم من جاءهم يطلب طعاماً وشفقة – وكيس لوبيا لزوجته المريضة ، لوجه الله – ثم كشف عن هويته كمأمور ضرائب وحرر محضراً .

فابيان غير موجود بالمنزل ، فقد خرج إلى الحقل . وتنبت حقول كاساسانا – إلى جانب أشياء أخرى مثل الحنطة والشعير والسلت والشوفان والفاصوليا والحمص وجميع المحاصيل الأخرى وإن كانت بكميات ضئيلة – زيتونا صغيراً لذيذ الطعم يشتهيه الناس . يبحثون عن فابيان غبردا فيحضر فى الحال . هو رجل شاب قصير القامة ونحيف ومفتول العضلات وخشن ، ويداه «ككماشتين» وهو لطيف وبشوش ولا يدخن ولا يشرب الخمر. فى كاساسانا ثمة العديد من الفتيان لا يدخنون ولا يشربون الخمر . يفكر الرحالة فى أن هذا ليس شائعا فى إسبانيا (١) يغتسل الرحالة عند باب النزل ريثما يعدون له الطعام . من

---

(١) فى السادس من يولية ١٩٥٨ ، كتب لى فابيان غبردا : «أتواجد الآن فى وادى الحجارة فى

خلال جدار داخلى ، يسمع غناء البنات فى المدرسة .

ومدرسة كاساسانا مدرسة رهيبة شديدة البؤس . فالمقاعد العتيقة مليئة بالرقع والأجزاء المرممة ، ويمتلئ السقف والحوائط ببقع الرطوبة وبلاط الأرضية يتحرك فى مكانه ، فقد ثبت على نحو سيئ . وعلق على الحائط صليب وخريطة لإسبانيا بالألوان وهى إحدى تلك الخرائط التى يوجد فى جزئها الأسفل مربعات صغيرة بها جزر الكنارى ومحمية المغرب ومستعمرتا نهر الذهب وخليج غينيا . ولإضافة كل هذا إلى خريطة لم تكن ثمة ضرورة فى الحقيقة إلا لركن واحد صغير . فى أحد الأركان ثمة علم إسبانيا .

بيت صديق حميم ، عريف أول فى الحرس المدنى ، كان يعمل فى باريخا التى تنتمى كاساسانا إلى دائرتها. سأدخل المستشفى مساء اليوم لأجرى غداً إن شاء الله عملية جراحية فى كليتى اليمنى وأعتقد انه ليس امراً خطيراً رغم العملية .. إلخ «والخطاب مكتوب على الآلة الكاتبة وليست به اخطاء إملائية ، ربما كتبه صديقه العريف. كتب لى فى يوم ٩ ، د. و. ن. براوليو أتيينثا غارثيا ، عريف أول فى الحرس للدنى ، الذى كنت قد طلبت منه اخبارا عن صحة فابيان : «تلقيت خطابك الرقيق فى هذه اللحظة وأرد عليه لأخبرك بحالة صديقنا العزيز فابيان. انتهت العملية الجراحية فى الثانية والنصف من بعد ظهر يوم ٧ . استأصلوا كليته التى كانت كبيرة الحجم جداً ومليئة بالصديد تماما .. إلخ»

وفى يوم ١٨ ، كتب لى فابيان من قريته : «اعلم أنى وصلت بيتى يوم ١٦ وانا بفضل الله بصحة جيدة جدا مقارنة بما مررت به» وفى الثالث من مارس من العام التالى ، أبلغنى العريف أتيينثا بوفاة فابيان : «بلغنى اليوم النبأ الحزين بوفاة صديقنا فابيان غبردا غونثالث (ليرقد فى سلام) وهو وإن سبب لى مفاجأة الآن إلا إنى كنت أعرف مسبقا أن حياته ستكون قصيرة ، لأنه منذ شهرين كان قد جاء لعرض نفسه على الأطباء وأقام فى بيتى ثم ارسله الطبيب إلى كاساسانا ، بكل تأكيد ، كى يلقى ربه هناك عندما تحين ساعته ...» .

يالفبيان غبردا البائس : ذلك الشاب المخلص الوطنى الذى كان قد ودع الرحالة دون أن يدرى أى منهما انه كان آخر وداع بينهما ، عند غوطة بالدلوسو (Valdeloso) على مشارف قريته .

على مائدة المعلمة كتب وكراسات وكوبان من زجاج أخضر غليظ بهما زهور برية صغيرة صفراء وحمراء وبلون الليلك . والمعلمة التى ترافق الرحالة فى زيارته للمدرسة فتاة مليحة لها هيئة أهل المدن وتلونت شفتاها بلون أحمر الشفاه وترتدى نستانا منقوشا أنيقا . تتحدث عن التربوية وتقول للرحالة إن أطفال كاساسانا طيبون ومجتهدون وأذكياء . فى الخارج ، تنظر جماعة من الصبية إلى داخل المدرسة فى صمت وقد علت عيونهم الدهشة . تنادى المعلمة طفلا وطفلة :

– انتبها .. كى يراكما هذا السيد .. من هو مكتشف أمريكا ؟

يتلجلج الطفل .

– كريستوفر كولومبوس .

تبتسم المعلمة .

– والآن ، أنت .. من هى خير ملكات إسبانيا ؟

– إيسابل الكاثوليكية .

– لم ؟

– لأنها كافحت ضد الإقطاع والإسلام ، وحققت وحدة بلادنا ونشرت ديننا وثقافتنا فيما وراء البحار .

وتشرح المعلمة للرحالة فى سعادة:

– هذه أفضل تلميذاتى .

وتقف الصبية فى جدية شديدة وقد تقمصت تماما دورها كطالبة متفوقة . يعطيها الرحالة قرص قهوة بالحليب وينتحى بها جانبا ويسألها:

– ما اسمك ؟

– روساريو غونثالث فى خدمة الرب وخدمتك .

– حسن .. فلنريا روساريو ، أتعرفين ما هو الإقطاع ؟

– لا يا سيدى .

– والإسلام ؟

– لا يا سيدى ، هذا لا ندرسه .

تتحرج الطفلة وينهى الرحالة المساءلة .

يتناول الرحالة غذاءه مبكراً ، فى حدود الحادية عشرة ، ثم يذهب إلى حانة ، إلى واحدة من الحانات النادرة فى كاساسانا، ليتحدث مع بعض الرجال الذين توقفوا لحظة عن العمل .. وأهل كاساسانا مجدون فى اعمالهم لدرجة أنهم يلقبون بالمقرفصين لأنهم كى يتمكنوا من الاستيقاظ مبكراً والذهاب إلى العمل دون تأخير تقول الشائعات إنهم ينامون جالسين القرفصاء .

يبحث الرحالة عن رجل لديه دابة ليحمل له متاعه حتى سانيدون وبعد حسابات كثيرة وبعد ذهاب وإياب يصل إلى اتفاق مع شاب يدعى فيليبى الخياط . وفيليبى ليس خياطاً ولا أبوه ولا جده ولكن الحقيقة هى أنه فى القرية – والله وحده يعلم لأية أسباب خفية – لا يعرفه أحد إلا باسم فيليبى الخياط . نحو منتصف النهار يخرج الرحالة ومعه فيليبى الخياط والحمار لوثيرو محملا بالأمتعة من كاساسانا ليأخذ طريق تشيناروس (Chinarres) الذى سيوصله إلى كوركولس (Córcoles) يرافقه فابيان غبردا وثلاثة أو أربعة أصدقاء آخرين حتى غوطة بالدلوسو ، على مشارف القرية .

الطقس رائع ، تنتابه بعض الغيوم وليس شديد الحر . وينطلق الرحالة في سرور بعد أن تخلص من حمل متاعه .

ويمضى طريق تشيناروس راسما انحناءات تنحدر كلها إلى أسفل حتى كوركولس ، وفي الطريق يتحدث الرحالة مع فيليبى عن بهاء الريف وما ينبئ به الموسم من خير .

– نحتاج إليه .

– حقيقة .

ويعشق فيليبى الريف والزراعة وله أفكار قديمة صحيحة ومعرفة حكيمة بكل ما يدور حوله .

– ألا يشابه هذا المكان جليقية ؟

عند كوركولس ، يمر الركب بين جدران دير مغطاة بالنباتات المتسلقة ، والدير متهدم ومحاط بأشجار الدردار والجوز . ترعى دزينتان من النعاج السوداء في الرواق المهجور وترتقي أربع أو ست من الماعز السوداء الجدران المتهدمة التي ماتزال قائمة بأعجوبة وتلتهم سحابة من غربان سوداء أيضا بالطبع ، تلتهم ناعبة جيفة حمار اتسعت عيناه وانتفخت جثته في الشمس .

إخْضَرّ حقل الأنيسون
ويحلق عقاب رمادى
فوق المقابر
فوق زهرة الأقنثوس
تتبول عجوز
أزرق حقل الأنيسون

لا يدخل الرحالة كوركولس . تقع الضيعة فى المواجهة ، إلى اليسار ، بعيدة قليلا عن الطريق . ينحرف الرحالة يمينا فى اتجاه ساثيدون . وكلما أخذ فى الهبوط نحو السهل .. اشتدت حرارة الشمس . ويبحث الرحالة عن أى مكان ظليل ليستريح بعض الوقت ويحتسى قليلاً ومن النبيذ يأكل شطيرة ويدخن سيجارة .

تلوح حقول الأنيسون مخضرة زاهية وحقول الزيتون يافعة معتنى بها بلونها الأخضر المائل للرمادى . والزراعة فى كوركولس منتعشة مزدهرة فتعيش القرية فى رخاء منذ أن اشتروا الأرض بأقل كثيراً مما كانت تساويه من كونت أرثينتالسى . وجميع أهل كوركولس الآن أصحاب أرض وكل يعيش مما يملك . ويتحدث الناس عن كونت أرثينتالسى بحب واحترام وهم سعداء بما اشتروه .

– عقد هذا السيد صفقة خاسرة عندما باع الأرض حينئذ .

– لا ياسيدى ، لا خاسرة ولا رابحة . ولم يرد السيد الكونت عقد أية صفقة ، كل ما هنالك أنه أراد أن يفيد القرية . والآن ما نفقدناه هو وجوده بيننا فهو لا يحضر تقريباً إلى هنا . من قبل كان يحضر كل عام ويأمر بعجن الخبز ونحر الذبائح لكل الناس .

يأسف فيليبى على أن أرض كاساسانا أردأ من هذه الأرض .

– هذا شئ آخر ، أكثر بهجة وعطاء . أما هناك فإننا نفقد كليتينا فى الحقل ومع ذلك لا نخرج أبداً عن حدود الفاقة . ولكن إذا لم نعمل سيكون الأمر أسوأ بالطبع ، ألا يبدو لك ذلك ؟

– بلى .

يطرق فيليبى حزينا متفكراً .

– يالحسن طالع هؤلاء !

– أجل ، ليس هذا بالشئ القليل !

يرفع فيليبى نظره .

– حسن .. أتدرى ما أقوله ؟ هذا خيرلهم وليدمه الله عليهم ، فأنا لست كالآخرين .. لست حاسداً .

ثمة بساتين بديعة بين الطريق العام والقرية . ينحنى بعض الرجال على الزرع ويأخذ البعض الآخر قسطا من الراحة فى ظل شجرة ، إلى جانبهم بغال نزع عنها نيرها .

– لو أن هذه الأرض ملكى لما استرحت أبداً ولا حتى للنوم .

وفيليبى رجل مفعم بالحماس ، من المؤكد أنه كان يصلح مهاجراً جيداً أو معمراً جيداً للأراضى الجديدة .

– هل أنت من أرض غنية أم من أرض فقيرة ؟

– من أرض غنية على الأرجح .

– من ناحية بيادوليد (Vallado lid) أم من ناحية سلمنقة (Salamanca) ؟

– كلا .. من ناحية أعلى .. من ناحية جليقية .

يطرقع فيليبى بأصابعه .

– إن هذا لجيد !

– أتعرف جليقية ؟

– لا ، ولكنى سمعت عنها الكثير ، فلقد خدمت فى الحرب مع جليقيين . أتعرف شخصا يسمى ببيتو فريرو ؟

– لا ، لا أعرف هذا الشخص .

– حسن ، لقد كنا صديقين حميمين وكنا دائماً معا ،وفى اليوم الذى أصبت فيه بعيار نارى أصيب هو أيضا ، كان ذلك فى جبال الكوبييرى فى سرقسطة .

– عجبا ! ونحن الجليقيين كيف نبدو لك ؟

– أناس طيبون ومجدون فى أعمالكم ومخلصون ، ومع ذلك – كما ترى – لكم هنا فى قشتالة سمعة غير طيبة .

– ما عسانا أن نفعل !

– ليس هذا من قبيل الإطراء ولكن أعتقد أن هذه السمعة سببها الجهل.

– من يدرى ؟

كلما اقترب الرحالة من سائيدون .. رأى مزارع الكروم تلوح فى الأفق والثيران تجر المحراث . تمر عربات الكارو تجرها البغال غادية رائحة، ومن آن لآخر تمر سيارة نقل محملة حتى أعلاها ويوقف الحرس المدنى أحيانا بعضها ، فالحمولة المهربة دائما ما تكون أسفل الحمولة القانونية .

يعمر الناس الطريق وعلى بعد فرسخ ونصف فرسخ من سائيدون يلتقى الرحالة بالقافلين من حقولهم يسيرون على حافة الطريق فى جماعات من ثلاثة أو أربعة وفؤوسهم على أكتافهم وكلابهم وراءهم ، ويحمل بعضهم رأس قرع ذهبية تدلت من كتفه أو علقت فى خاصرته .

إنه وقت حلول المساء ، ويبدو المرور فى الطريق شأنه شأن المرور فى شوارع المدن وإن اختلف عنه هنا فى أن جميع الناس يسيرون فى نفس الاتجاه . على مشارف القرية ثمة طريق بديع محفوف بأشجار الدردار

الذكور والإناث . فالدردار الذكر ينتهى أعلاه على نحو مدبب بينما للدردارة الأنثى اغصان مترامية الأطراف وهى مستديرة رؤوم.

فى سائدون ، يسلك الرحالة طريقا مختصراً يمر بالمقابر لن يلبث أن يختفى تحت مياه قناة بدأ العمل بها. إلى اليسار ، فى اتجاه الضيعة ، ثمة مصنع يقال له «المعصرة» يتصاعد الدخان من مدخنته العالية كأنها ماكينة قطار .

تبدو سائيدون – المحاطة بحقول القمح الخضراء النضرة – قرية هامة وصناعية . تملأ المنازل الأفق ويبرز برج الكنيسة متشامخا فوقها .

فى ملعب الكرة الباسكية ، يمارس الشباب لعبتهم بدون مضرب . ثمة جمع كبير يشاهدهم ولكن أحداً – اللهم إلا اثنين أو ثلاثة من الشباب الصغير – لا يشجع زوجى اللاعبين بالصياح . ويقتصر المتفرجون على الشاهدة الصامتة فى اهتمام شديد وعلى تدخين التبغ . هناك لاعب أعسر كالعادة – يسمونه «الأعسر» بالطبع هو أفضل اللاعبين جميعاً . ويفكر الرحالة غير الخبير فى هذه اللعبة فى أنه لابد أن يكون اللعب بالعكس مضللا جداً .

يضرب الكرة
الشباب فى الملعب
يجلس قس وكاتب
فى شمس الغروب
ويتناقش بعض الغجر
صائحين بلا هوادة
يحل الظلام عند وصول الرحالة ميدان القرية .
عند انتربنيا ، ترحل

- يلون دم العقرب - الشمس
والآن لا يلعب الكــــــرة ،
فتيـــــان ســـــــاثيدون
يدخــــل الرحــــالة القرية
ســـــــاريا تقـــــريبا
وهــــو جــــائع وما يـريده
ســــيجده فى الحــــانة
زجــــــاجة نبيذ
وفخـذ خنـزير لبانى

يحرس بعض تجار الأسواق - كل فى يده سوط طويل وعلى رأسه طاقية بحافة لونها بنفسجى أو وردى باهت - قطيعاً من الخنازير الصغيرة يربو عددها على العشرين ، وهى خنازير سوداء بلون الفحم تصرخ كالأطفال . وعمر الخنازير حوالى شهرين ، نطمت حديثاً ووزن كل ثلاث أو أربعة منها لا يزيد عن الربع (مقياس إسبانى للكيل مقداره ١١,٥ كجم) ويطلبون فيها بين سبعمائة بزيتة للأنثى وثمانمائة وخمسين بزيتة للذكر . والانثى تساوى أقل من الذكر وإن بدا هذا غريبا،ولكن الخنازير تشترى لذبحها لأن الخنزير هو زهرة العجائب : ففى سبعة أشهر - وبقليل من الحظ - يصل وزنه أحد عشر أو اثنى عشر ربعاً ويبلغ ثمنه أنذاك أربعة آلاف بزيتة .

تاجر معه ســـوط وعصـــا
وله شـــــارب متـــــوحش،
يبيع خنازير بخمســـمائة بزيتة
لرجــــــل ثــــــرى

وينظـــــر إليه تاجــر آخــر

ويــــــداه فى قميصـــــــه

وفى نظــــــــــرته تلاحظ

نيـــة غيـــر طيبـــة أبــــدا

يتحدث رجلان من الحرس المدنى

ربمــــــا عن التــــــــرقية

وينــــــاقش مصــــور متجول

امــــر تكبيــــر صـــورة

ويلــوث اطفــال فى الثانية عشرة

أنفســــــــــــهم فى ركن

وتنظـــــر إليهم فتـــاة لم تتزوج

من الشـــــــــــــرفة

وتتعـــــلق فـــــوق نافـذة

يمامتــــــــان وفـــــرخ

يجلس الرحالة على مصطبة بالميدان معطيا ظهره للمنزل الذى سيبيت الليل فيه فيما بعد ليستريح قليلاً فى الهواء وليتحدث إلى فيليبى الخياط .

– هنا فعلا يكون الثراء !

– يبدو هذا .

– وأى ثراء ! ساثيدون ليست كأية قرية أخرى ، فهنا الغنى والفقير يأوى جميعهم إلى فراشهم وبطونهم ملآنة .

بعد قليل ، تصل الحافلة . لا يمر القطار بأى من القرى التى عرفها

الرحالة فيما عدا وادى الحجارة . تفتح الحافلة أبوابها فيندفع الناس إلى خارجها بسرعة شديدة بعد رحلة يبدو أنها كانت مرهقة ، ويحيط سرب من الصبايا والأطفال بالركاب فى ضجة صاخبة . وركاب الحافلة شديدو التنوع ، بين أسرة لا تنتهى من الغجر وأطفال شاحبين واهنى البنية جاءوا ليقضوا أياما عند الأعمام فى الريف وفلاحات ثريات مهندمات وتاجر ماشية بقميصه الأسود وبمنديله الحريرى حول رقبته .

يفكر الرحالة فى انه من الأفضل أن يتوجه الآن إلى النزل ليتناول عشاءه ولينتهى من أمر المبيت . والنزل بيت كبير وفسيح وتقرأ كلمة «فندق» على قوس مدخله . ثمة لافتة صغيرة من الخزف ، على جانب من جوانبه ، كتب عليها :

شارع الدكتور رامون إى كاخال . وفوق الشرفات ، بعرض الواجهة ، كتب : نزل فرانثيسكو بيرث . توفى فرانثيسكو بيرث منذ فترة وآل أمر النزل لابنه : أنطونيو بيرث . يأسف الرحالة لأن صاحب النزل الحالى لم يضع اسمه على الواجهة ، فقبل يوم من الوصول إلى باسترانا (Pastrana) كان سيشعر بالسعادة لو نام فى نزل يسمى نزل انطونيو بيرث.

فى الدهليز ، يلتقى الرحالة بمارتين المندوب المتنقل الذى عرفه فى تريو وعاد فرآه فى بوديا .

– ظننت أنك لن تأتى .

– ها نذا بين يديك .

– أنا هنا منذ البارحة .

– أجل ... لكنك جئت على دراجة . هل ثمة سريرلى .؟

– نعم تعال لترى ربة النزل ، لقد أخبرتها بأنك آت .

وربة النزل امـرأة شـابة بدينة صـحـيحـة البـدن كـأنهـا الصـحـة نفسـهـا ومتوردة كالتفاحة .

– قيل لى إنك قادم .

ابتسـم الرحالة للمندوب المتنقل . أردفت ربة الدار :

– مـاقد لا تجـده هنا ربما كـانت بعض الـكماليـات ، فـيما عـدا ذلك تجـد نظافة ومعاملة طيبة .

– عظيم !

– ماذا تـريد للـعشـاء ؟ عندى القـليل ولكنك واجد كل شـىء : لدينا بيض ولـحم ضأن طيب وسمك التروتة وبعض لـحم الـخنزير وبطاطس ...

وللـحلو يمكنـك أن تتناول أناناس مـحفـوظا وكـريزا بالـعـرق ، واذا أردت فاكـهة لدينا فاكهـة أيضـا ، أما إذا فضـلت الجبن فلابد أنى واجدة شيـئاً منه هنا . ليس عندى من النبـيذ الكثيـر ، قد يتبـقى شـىء من نبيـذ لاريوخا فى زجاجة .

تتكلم المرأة مـعتذرة والرحـالة مفـزع ذاهل : يبد وأنها اعـتقـدت أن دوقا دخل بيتـهـا . ممـا لا شك فـيه أن المندوب المتـجـول أسـرف فـى تفـخـيمـه . وأسـوأ مـا فى أن يؤخـذ الإنسـان على انه ثرى يأتى عند دفـع الحسـاب . يذهب الرحـالة وصـديقـه مـارتين إلى مـقـهى لتناول الفـيـرمـوت (فـاتح للشـهية) ريثـما يعـد العشـاء . يكتظ المقهى بالناس والـهواء بالداخل كـثيف ويمكن قطـعـه بسكين . على الموائد ، يلعب الدومـيـنو بعـضـهم والـبـعض الآخـر يلعب الورق ، ويلعب شـخـصـان منعـزلان مـباراة فى الشـطرنج فى أحد الأركان . مظهـرهـما وقور جليل وجافٍ . إلى جانبـهما يجلس ثلاثة أو أربعة مـشاهدين لـهم وجوه تكعـيبية . عندما يخرج أحد لاعبى الشـطرنج

سيجارة يشعلها له المتفرج الأقرب إليه . وعندما ينبه النادل بإيماء غامضة ينبهه المتفرج الذى يلتفت إلى ذلك أولا بقوة وبحنق . وعندما يقع بيدق اوفيل أوحصان تحت المائدة يسرع أقرب المتفرجين إليه بالتقاطه . أَحْبِب بلعب الشطرنج على هذا النحو .

لا يشعر الرحالة بالراحة فى المقهى .

– نخرج من هنا بمجرد الانتهاء من تناول الفيرموت ، مارأيك ؟

– لك ماتشاء .

فى الشارع تغنى حفنة من الصبايا جماعةً على ضوء واجهة بازار : أنا أرمله الكونت لاوريل .. أريد الزواج ولا أعرف ممن ؟

يتحدث فيليبى الخياط مع بعض البغالين عند مدخل الفندق . كان ترك الحمار فى الحظيرة بعد أن نفحه حزمة من العلف . ماإن يدخل الرحالة حتى يقترب منه فيليبى الخياط .

– حسن ... أستطيع العوده الآن ...

– لا يارجل ، الآن لا . استرح قليلا ثم ارحل فجرا . ادعوك للعشاء .

– لا تكلف نفسك ، لقد أحضرت شيئا من الطعام .

– لابأس بذلك ... احتفظ به للطريق .. والآن تناول عشاءك مع هذا الصديق ومعى .

– حسن .. إذا كانت هذه رغبتك .

تناول فيليبى الخياط ومارتين المندوب المتنقل والرحالة عشاءهم فى حجرة طعام صغيرة جيدة الإضاءة ومؤثثة تأثيثا بديعا يبدو أنها لا تفتح إلا فى مناسبات محددة . أثناء العشاء ، دخل تاجر أحمر الشعر ملتحى

العارضين وقصير النظر في حوالي الخمسين من عمره ، فواجه الرحالة وفاجأه في شدة :

– اسمع يا سيدي ، ألا تبيع غطاءات زجاجات النبيذ .. ؟

– نعم ، لا أبيعها .

– ألم تبعها قط ؟

– نعم يا سيدي ، لم أبع قط غطاءات زجاجات النبيذ ..

أومأ الرجل في استسلام ثم غادر المكان .

شرحت ربه الدار للرحالة فيما بعد أنه منذ عامين أو ثلاثة باع أحدهم لهذا الرجل الملتحي العارضين القصير النظر والذي كان يملك مصنعاً صغيراً لتعبئة النبيذ .. في بريبيغودي كونيكا صفقة من خمسة آلاف غطاء تأكسدت جميعها .

– وكان للرجل الذي باعه الغطاءات نفس هيئتك ، فكان طويلاً كستنائي الشعر .

بعد هذا العشاء الفاخر ، يشعل الرحالة سيجاراً به ثقب فيلصقه بورقة ، لكن السيجار مازال لا يسحب النفس، لذا يتركه كاملا في منفضة سجائر معدنية منقوش عليها منظر من «دون كيخوته» ملئت بأعقاب السجائر . يظل ثلاثتهم جلوساً إلى المائدة يتجاذبون أطراف الحديث . ويساعد الرحالة صديقه المندوب المتجول في تحديد خط سيره القادم على خريطة دليل طرق «ميشلان» والمندوب سعيد سعادة غامرة بذلك .

– بحماري الفولاذي أصل حتى سيبريا . ولقد فكرت في كل شئ . إما أن أصبح ثريا أو أهلك دون ذلك .

يودعهما فيلبي الخياط قبل أن يذهب لينام شيئاً ، بينما يخرج

الصديقان للتجول فى القرية .

– الا نحتسى قهوة ؟

– حسن ، لك ما تشاء .

احتسيا قهوتهما واقفين أمام طاولة المقهى .

– والآن إن شئت نذهب لنحيى صديقاً وهو فتى طيب جداً ولم أره منذ وقت طويل .

– عظيم .. لنذهب !

صديق مارتين له محل تأجير دراجات. قام مارتين بمهمة تقديم كل منهما للآخر :

– هذا السيد من مدريد ، وهذا بكو .. نسميه الصخرة الحرة . هذا الولد لو درب جيداً لأصبح مثل دليو رود ريغث (بطل سباقات الدراجات الشهير فى إسبانيا فى ذلك الوقت) .

وكان بكو – الصخرة الحرة – محاطا بأصدقائه داخل الحانوت . وهو بطل له شعبية، وهو بلا شك واحد من أفضل متسابقى الدراجات فى المقاطعة . كانت الندوة تدور حول دورة إسبانيا للدراجات .

– لم يعد كاريتيرو على نفس مستواه القديم . هذا واضح . ودليو .. حسن ! .. يفرض نفسه معتمداً على شجاعته .. يعاونه فريق جيد ، هذا كل ما فى الأمر . أما من يجرى وحده فهو شقى أحمق .. ومن الأفضل الا يخرج من بيته .

يومئ الرحالة براسه موافقاً على كل شئ .

ساثيدون قرية يقضى أهلها الليل فى السهر ، فى هذا الوقت من السنة على الأقل. تدق الساعة منتصف الليل عندما يعود الصديقان إلى

النزل . على مصاطب الميدان وأمام أبواب المنازل ترى جماعات من الناس تجلس فى الهواء الطلق فى صمت .

فى دهليز النزل يرقد عشرة أو اثنا عشر رجلا بين بغال وتاجر وقد التفوا فى بطاطينهم . فى أحد الأركان يغط صاحب مصنع تعبئة النبيذ فى نومه وأمامه بقليل ، يرقد فيليبى الخياط وقد تكور فى نومه .

ما تزال ثمة حركة فى المطبخ . تذرعه ربة الدار ومعها خادمتان جيئة وذهابا . ينشفن الأوانى ويعدن الأشياء مكانها الأول . ينعس رجل ويرقد قط إلى جانب موقد واطئ خمدت ناره . تلمع المغارف النحاسية على الحائط نظيفة نظافة صحفة القربان المقدس، ويصطف طاقم الألومنيوم مرتباً حسب الحجم على الرف .

يحيى الرحالة ربة الدار ويصعد إلى غرفته . أما رتين فيتسلل ويذهب من حيث أتى ، فله شئ من الحظ مع النساء ، هذا ما فهمه الرحالة وبدا له فى محل تأجير الدراجات . ولقد فاتحه الرحالة فى هذا فى شئ من الهزل فنفش مارتين ريشه كأنه ذكر حمام ولم يكن لجلده أن يسعه .

كانت غرفة الرحالة خارجية ، بشرفة تطل على الميدان - أو على شارع الدكتور رامون إى كاخال على الأصح - وبها سريران وحوض اغتسال على الأرض وإلى جانب السرير وجد الرحالة حاجاته مرتبة ترتيباً جيداً . على «الكومودينو» كان ثمة دورق ماء رسمت عليه زهور زرقاء وغصن بنى اللون وأوراق شجر خضراء . وأطلت من تحت الفراش مبولة ضخمة من الخزف الأثرى . نظر الرحالة تحت الفراش الآخر فوجد مبولة صغيرة متآكلة الحواف هزيلة حقيرة بلا بريق .

دخن الرحالة سيجارة فى فراشه ثم أطفأ الضوء . كان متعباً ومالبث أن

غلبه النعاس . كان الفراش نظيفاً والمرتبة رائعة فنام فى دعة وبلا اضطراب أو كوابيس تسع ساعات متواصلة .

وظل الفراش الآخر على حالته . يبدو أن مارتين لم يخطئ الهدف .

عندما هبط الرحالة لتناول الفطور وجد مارتين وقد حلق ذقنه جيداً ومشط شعره جيداً وارتدى قميصا نظيفاً وحذاء براقاً يجلس فى حجرة الطعام ويقرأ الصحيفة .

– أقرأ دائما هذه الجريدة ، فهى تنشر أخباراً كثيرة من الإقليم . كانت جريدة «الكثر» المدريدية ، طبعة وادى الحجارة .

ذهب مارتين فى نشاط إلى المطبخ ليقول لهم أن يعدوا الفطور . كانت منفضة السجائر المعدنية على المائدة وبدت الآن وقد نظفت لتوها وقبع فى قاعها وحيداً متشامخاً كالملك عقب السيجارة الذى كان الرحالة قد تركه ليلة أمس ، بدا عقباً رائعاً حقيقة .

على مائدة الفطور – بيض مقلى وشحم الخنزير وقهوة بالحليب وزبد وفاكهة – يتحدث الرحالة إلى مارتين .

– كيف كان الحال ليلاً ؟

يبتسم مارتين ابتسامة تلميذ تعلم الصعلكة ولا يرد . يبلغ الرحالة المطبخ ليرى ربة البيت قبل خروجه .

– اسمعى يا سيدتى ، سأخرج لأتنزه فى الطريق وسأرحل بعد ذلك عن سائيدون ، هلا أعددت الحساب ؟

– بلى يا سيدى . لقد سجلته ههنا : خمس وخمسون بزيتة .

– كلا ، سجلى كل شئ : عشاء الصديقين ليلة أمس وإفطار السيد

مارتين اليوم ، فكما قلت لك سأدفع أنا كل الحساب .

– نعم يا سيدى ... كل شئ مسجل : ثلاثون بزيتة للعشاء وخمس بزيتات للسريرين واثنتى عشرة بزيتة للإفطار وأضفت بزيتتين للخدمة حتى يصبح الرقم صحيحا .

راجع الرحالة القائمة دون اهتمام ثم دفع . وأراد ان يترك خمس بزيتات إكرامية ولكنهم لم يأخذوها منه .

– هل أستطيع أن أترك جرابى هنا حتى أعود ؟

– نعم يا سيدى .. سأحفظه فى المطبخ .

خرج الرحالة للتنزه فى القرية . ساثيدون بلدة رائعة شوارعها عريضة رحبة وبها منازل من ثلاثة طوابق ومحال كثيرة تكتظ بالبضائع . ويشرح له مارتين أى هذه المحال عملاء له وأيها لا . فى مُحل لبيع ملابس الرعاة علق دلق محنط حشى بالتبن وهو معروض كعينة .

والبائع ثعلب عجوز حاذق شديد الخبث . وهو بشوش مبتسم ولكنه لا يكشف أسراره :

– ليست الأمور الآن على ما كانت عليه فى الماضى . فالآن لابد من الشقاء والعرق كى نكسب لقمة عيش لا تغنى ولا تسمن .

اسمه بيو ولقبه التحقيرى «العم قط» وهو قصير القامة ذو لحية خشنة وبناظره حول . يلبس مئزراً من جلد النعال وطاقية متسخة . وحانوته ضيق أيضا وكريه الرائحة متهالك . قلب رأساً على عقب . يرقد المكشط معلقاً على الحائط وعلى إحدى المناضد يستقر سكين جرد الجلود النحاسى فى انتظار زهرة فرو الماعز ليأكلها ويطل مكشط بأذنيه من حواف خص ثور وتقبع الشفرة والمدبغ وأوانى خروب الدباغة وحامض

التنّيك فى أحد الأركان .

– لديك عمل كثير ؟

– لا شئ منه . لا تلق بالا إلى ذلك ، فنحن نعيش بالكاد تقريباً .

يشرح مارتين للرحالة فيما بعد أن العم قط مشهور فى البلدة بأنه من الأثرياء بل إنه مليونير .

يجلس أبله فى الشمس يأكل مشمشاً .

– أنظر يا سيدى إلى هذا . هذا دون غيره هو الذى يفهم معنى الحياة .

– هون عليك يا رجل ، ما هذا إلا شئ معتاد .

عند بلوغ الباحة ، يرى الرحالة الحافلة تستعد للقيام فتداخله فكرة آثمة .. يأخذ حقيبته ويودع ربة الدار .

– أترحل يا سيدى مسروراً .

– أجل يا سيدتى ، مسروراً جداً .

– هل قمنا على خدمتك على ما يرام ؟

– أجل .... على الوجه الأكمل .

– حسن ... أنت تعلم أين مكاننا .

– لا تهتمى لذلك ...لن أنسى .

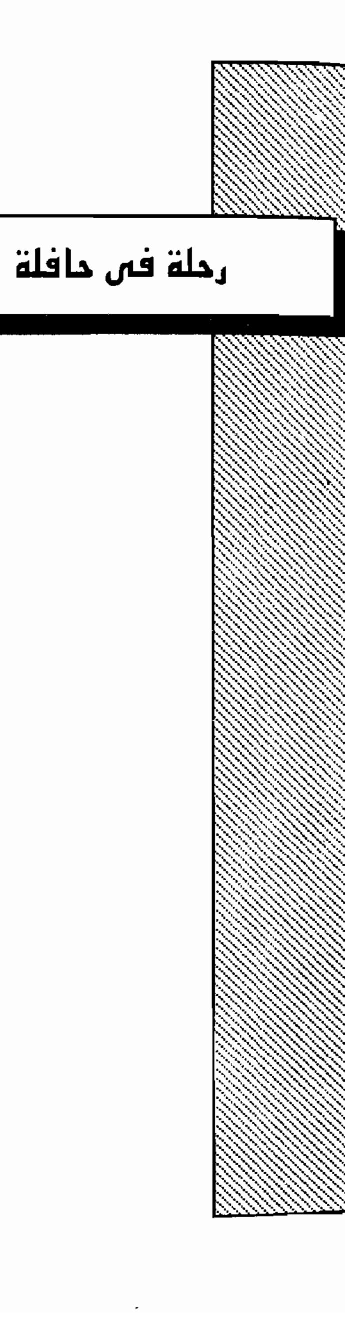
– أذاهب فى السيارة العامة .

يحمر وجه الرحالة خجلا .

– أجل ولكن لمسافة قصيرة ليس أكثر .

– حتى محطة تنديا .

– نعم حتى هناك .



رحلة فى حافلة



مسافرا فى الحافلة

يصبح الطيران دجاجياً.

(خوسيه بلا) (١)

تسير القافلة مكتظة بالركاب حتى أعلاها . يفسحون للرحالة مكاناً فى اخر صف بين أثنين من الغجر. فى إقليم القرية التقى الرحالة بغجر فى كل مكان ، غجر يعيشون فى سلام وتمام اتفاق مع غيرهم ، غجر مجتهدون وعمال مهرة - يجيدون تركيب نعال الأحذية ويغنون أغانى الغجر فى ورشة الحدادة ويصنعون اشد المراجل بريقاً وسلالاً رقيقة متينة - وهم غجر حضريون مقيدون فى السجل المدنى ويؤدون الخدمة العسكرية ويسافرون فى الحافلات العامة . غجر ... الشيء الوحيد الذى لا يفعلونه هو الزواج من غير أبناء أو بنات جنسهم .

يطأ الرحالة عندما يحاول أن يعدل من وضعه غجرية شابه بادية الحسن دون قصد .

---

(١) Josep Pla (١٨٩٧ - ١٩٨١) أحد عمالقه الأدب القطلونى ومؤرخ قطالونيا .

تصرخ المرأة.

- ليلكمك إنجليزى سكير لكمة شريرة ، ياعديم الذوق .

عندما تتحرك الحافلة يلتصق الناس إلتصاقاً مؤلماً أحياناً .

- سوف تسحق الطفل أيها السيد .

يجيبها الرجل دون أن ينظر إليها محاولاً الحفاظ على توازنه ، وحتى إذا أراد أن ينظر إليها لن يستطيع أن يدير رأسه .

- أرفعيه على شبكة الحقائب أيتها السيدة واصمتى .

- علينا أن ننتظر شهر أغسطس لأننى حتى الآن أحمله فى بطنى .

ما أن تخرج الحافلة من القرية حتى تشرع بعض الخادمات فى إحداث جلبة سوف تستمر طوال الطريق . قبل الوصول إلى نهر التاجه تستأذن سيدة بدينة وتتقيأ على أحد رجال الحرس المدنى وعلى سيدة وعلى طفل تحمله على ذراعيها . كان الطفل نائماً بيد أنه يصحو بالطبع ويأخذ فى الصراخ . ويصرخ الطفل كما لو أنهم يقتلونه ، والأمر لا يستأهل كل هذا كما يقول محقاً شاب يلبس ربطة عنق وقبعة خضراء زاهية . تغنى الخادمات بلا توقف ولكنهن يغيرن الأغنية دائماً . كن قد بدأن بأغنية زهرة الخشخاش ثم تبعنها بأغانى أين هم شبابنا ، ووردة مدريد و زهرة تشامبرى ومارش أديس أبابا بتوزيع خاص جداً و القرعاء بلا شعر .

يجلس مساعد فى الحرس المدنى ورقيب فى الخيالة وسيد جاد يلبس السواد له ملامح قس ، بجانب السائق .

يتحدث الناس عن الخزانات التى مازالت تشيد على نهرى التاجة وغواديلا (Guadiela) وهم يؤكدون أنهما مشروعان عظيما الأهمية.

خروجاً من ساثيدون ترى جبال سان كريستوبال بلونها الأخضر الداكن وغير شديدة الارتفاع . يحرس راعي غنم الماعز في ارض سوف تبتلعها مياه الخزان . أقيمت في سفح الجبل مصانع للأسمنت لتزود مشروع الخزان باحتياجاته منه .

لو أن الرحالة مشى هذا الطريق على قدميه لاستطاع أن يعبر شعب إنتربنيا الذي سيختفي أيضاً تحت الماء .

يشرح الشاب ذو الشريط والقبعة للرحالة - باذلاً مجهوداً شاقاً حتى يستطيع أن ينظر إليه - أن خزاني إنتربنيا وغواد بيلا - ياللعجب - سوف يتصلان بنفق تحتهما حتى يتساوى منسوب المياه في كليهما . يوافقه الرحالة غير مقتنع ، ففي الحقيقة أن يتساوى منسوب المياه فيهما هو شيء يتلقاه معرضاً .

تعبر الحافلة نهر التاجة وترى منازل حديثة البناء ، المخازن ومساكن المهندسين لها هيئة إحصائية حزينة ، هيئة مبتذلة لمنازل صنعت بالجملة. ليس الطريق الآن سوى منحنى متصل ، والسيدة المصابة بالدوار لها الآن اثنتان من المقلدات تخرجان نصف جسديهما من النافذة . حتى تصل السيدتان إلى هناك اضطرتا للمرور على أجسام الركاب .

يتسلى الرحالة معزياً نفسه ، بعد كل هذا التقيؤ ومازال نهر التاجه على مرمى البصر وفكره عالقاً بالخراما والإينارس والتاخونيا - الأنهار التي مر بها - ، بنظم أبيات روحية ما تزال عالقة بذاكرته :

عند الخراما

يمضي ثور اسود

سيدة

وفارس

فى الصباح الباكر

النهر ذهبى .

يسير الفجر

فى شعب .

نهر إينارس .

مليء بالماء .

فارس

وسيدة.

هموم سوداء

وتنورة بيضاء.

نلتطر القبعة

ولتغن القبرة .

يمر نهر التاخونيا

على ضفاف البساتين .

سيدة

وفارس .

قطة لصة

وأرض بور .

تخط موعداً

على السنابل

ونهر التاجة

مثل كلب صيد

فارس

وسيدة .

لا طويل ولا قصير

رصاص وحبل

على الجدول

تمشى أمازون

عند المرور باونيون (Aunon) ، تغنى الخادمات أغنية وردة مدريد تصرخ إحداهن وهى بدينة خفيفة الظل سليطة اللسان : يحيا خطيبى ! ولكن الأخريات اللائى يبدون أكثر رصانة لم يصرخن إلا بعبارة تحيا قريتى أو لأحيا أنا وهو دعاء لا ينسى أبداً .

تبدو الطبيعة خضراء ويكثر الشجر وتستمر على هذا النحو حتى بعد الونديغا(Alhondiga) ، ناحية بيت عمال الطريق عند المفترق المؤدى إلى فونتيلا إنثينا (Fuentela Encina) حيث تبدأ الهضبة من جديد .

والو نديفا قرية من الآجر علقت فوق نهر أرلس (Arles) الذى يهبط من مرتفع برنينتيش (Berninches) فى سلسلة الجبال الواقعة وراء الأوليبار .

يسأل الرحالة المحصل عن كيفية الذهاب إلى باسترانا .

– حسنا ، يمكنك النزول فى تنديا وانتظار الحافلة الأخرى هناك ، الحافلة الآتية من مدريد .

– وفى أية ساعة تمر ؟

– فى السابعة أو السابعة والنصف مساء .

ولما كانت الساعة ماتزال الحادية عشرة صباحاً والمسافة من تنديا إلى المحطة لن تزيد عن فرسخ كثيراً حسب الخريطة ، يقرر الرحالة النزول فى تنديا حتى يرى القرية ويتناول غداءه ثم يذهب بعد ذلك إلى المفترق فى نزهه على قدميه .

قبل الوصول إلى تنديا بكيلو مترين أو ثلاثة ، وعلى يسار الطريق ثمه أطلال شائعة المظهر ، ولا يدرى الرحالة ما إذا كانت تاريخية ولكن ما يعرفه حقيقة هو أنها بدت له قليلة الأهمية . على ضفاف الجدول الذى يحمل نفس اسم القرية يمتد طريق بديع محفوف بالأشجار الوارفة يؤدى إلى تنديا .

ينعس الفجر فى الحافلة وعندما يريد الرحالة النزول يضطر إلى إيقاظهم حتى يتمكن من المرور .

– وداعاً ياسادة ورحلة طيبة !

– وداعاً يارجل ، حظاً سعيداً .

عندما تطأ قدماه الأرض يلاحظ أنهما خدرتان وأنه لا يستطيع السير تقريباً . تؤلمه كليتاه وتفتلت كلُ ملابسه وخرجت من مكانها . يدخل الرحالة الحانة التى توقفت أمامها الحافلة ليحتسى شيئاً وليصلح ما بوسعه من شأن هندامه .

وتنديا قرية أروقة مفلطحة ومستطيلة كأنها السجق تمتد بطول الطريق . فى هذه القرية يملك الكاتب الإسبانى دون بيو باروخا [١] حقل زيتون يوفر له الزيت طوال العام .

يتحدث الرحالة إلى فتيات الحانة .

– أتعرفن بيوباروخا ؟

– لا سيدى .

ـ أولاً تعرفن من هو ؟

– نعم ياسيدى ، ولا نعرف من هو .

تتدخل الأم التى خرجت من المطبخ لتوها .

– بلى يابنات ، بل هو السيد أوفراسيا الذى اشترى أرض طريق موراتيبا المواجهة لأرض العم بييرد يكاروس (العم مضيح عربات الكارو) .

– آه ، نعم ، ولكن هذا السيد لا يأتى إلى هنا أبداً . لابد أنه تقدم فى السن . يقول السكرتير إنه رجل مهم جداً ، من أهم الناس !

يخرج الرحالة بعد أن قضى بعض الوقت فى الحديث ليبحث عن مكان يترك فيه أمتعته وليشاهد القرية . يمر أمام فندق به لافتة خشبية علقت

(١) أعظم الروائيين الإسبان فى القرن العشرين ينتمى إلى جيل ١٨٩٨ الإسبانى .

فى إحدى الشرفات . تقول اللافتة : فندق خوان الجديد القديم . يدخل الرحالة ، بيد أنه لا تستقبله سوى كلبة هزيلة حقيرة تنبح لقدومه فى غير احترام وتكثر عن أنيابها . ينتظر الرحالة ريثما يأتى أحد أو تكف الكلبة عن النباح ، لكن لا كفت هى ولا خرجت ربة الدار للقائه . فيتقدم قليلاً نحو الباب ويصفق بيديه مرتين . فيجن جنون الكلبة وتلقى بنفسها عليه تريد عضه فى ساقيه . فيخطو خطوة إلى الخلف ويعاجلها بركلة طارت بها إلى الجدار وكادت تقضى عليها . ياللحيوان الشقى ! وما أعنف الركلة ! أخذت الكلبة فى العواء وخرجت تعرج وقد تقوس ظهرها . تخرج امرأة على العواء .

– ماذا فعلت أيها السيد ببرليتا ؟

– اصمتى ياسيدة ودعينى وشأنى ، هل أستطيع تناول الغذاء ؟

– ليس لدينا ما تأكله . اغرب عن وجهى وإلا ناديتُ زوجى خوان وسترى كيف يطردك ضرباً بالعصا !

– لا تصرخى ياسيدة فلا يستحق الأمر كل هذا ، ولا تستدعى زوجك خوان فإنى ذاهب .

ينبح كلب .

السيد خوان الجديد

صاحب الفندق القديم

حيث تجد «لا ياسيدى»

يردون بها على من يطلب منهم خبزاً .

عاد الرحالة إلى الطريق ثانية وقاده طفل إلى نزل أنيق فى الطرف الآخر من القرية أرضيته من البلاط الصغير وعلى حوائطه صور أشخاص

فى أطر مذهبه وصاحبه المنزل سيدة لينه الجانب . اتفقا على أن تعد للرحالة يمامه للغذاء . خرج الرحالة إلى الحظيرة وأخرج دلو ماء من الجب وأخذ يغتسل . كانت فى الحظيرة طيور كثيرة متنوعة . حمام وأكثر من عشرين دجاجة وعدد مماثل من البط وستة أو سبعة ديكة رومية وأوزتان كبيرتان . وعندما كان الرحالة منحنياً إلى الإمام يبلل قفاه بالماء نقرته أوزة فى مؤخرته نقرة كادت تقتلع قطعة غضة من لحمه لولا أن الأوزة أخطأت فى قياس المسافة وارتطمت بالعظم . ألم بالرحالة فزع عظيم – لأن أحداً لا يتوقع أن يتلقى عضة كهذه بينما يغتسل – فأطلق صرخة بعدت عن الاتزان بعض الشيء، فهاجت الحظيرة وضرب الحمام الهواء بجناحيه وأخذ الدجاج والبط فى الفرار مذعوراً من مكان لآخر وزبطت الأوزتان فى جنون ، فأسرعت ربة البيت لترى ماذا حدث بينما وقف الرحالة وفى إحدى يديه عصا ويده الأخرى على مكان الألم لا يعرف أيفر أم يكر كرة ضد العدو .

– ماذا حدث ؟

ـ أبداً .. كما ترين ياسيدتى .. لوكنت غفلت ما استطعت الجلوس ثانية فى حياتى .

– إنها الأوزة أليس كذلك .

– بلى ، الأوزة .

– بالطبع ، لأنها لا تعرفك . هل سال دمك ؟

تحسس الرحالة مؤخرته .

– لا ، لايبدو هذا .

كانت الديكة الرومية هى وحدها التى ظلت هادئة . خرج الرحالة من هناك وطفق يفكر فى أن حيوانات هذه البلدة ربما كانت مفرطة فى

ضراوتها . ربما كانت الأغنية التى مطلعها : لا تشتر بغلا من تنديا إنما اخترعت لتحذر البغالين من الموت رفسا ..

من يدرى ؟على الأقل يحذر مؤلفها المجهول الذى يحتاط للأمر من أن البغل قد يكون زائفاً .

ذهب الرحالة للنزهة حتى تحين الواحدة بعد الظهر ،وعثر فى طريق المقابر على جدران رائعة غطتها النباتات المتسلقة فى بعض الجوانب ، وهى أطلال دير قديم . إلى جانبها ، فى ساحة صغيرة ، كان ثمة صليب حجرى غير مرتفع على شيء من الجلال . من هناك تمكن رؤية كل غوطة تنديا : حقول الزيتون فى سفوح الجبال والبساتين فى السهل بمحاذاة طريق السيارات وجدول الماء .

بعد الغداء ، غادر الرحالة البلدة سيراً على الأقدام فى أناة تجاه المحطة . ولم يلتق بأى شخص خلال الفرسخ الذى ساره ولم يرُ شيئاً خارجاً عن المألوف يسترعى انتباهه . والطبيعة فى ذلك المكان بنية اللون رتيبة مملة ويبدو الناس كأنما اتفقوا على عدم الخروج إلى الطريق .

عند محطة تنديا ثمة مطعم صغير أرضية ترابية وله سقيفة غطيت جميعها بلبلاب مزدهر ومنعش وفواح . لديهم زجاجات جعة باردة وسجق طيب وخبز طيب أيضاً لتناول وجبة خفيفة . وهم يبردون الجعة بوضعها فى البئر داخل دلو لعدة ساعات . وبدت تلك الحانة الصغيرة وسط الحقول كأنها جنة الله على أرضه. أخرجوا للرحالة كرسيا صغيراً من القماش فجلس فى الهواء الطلق يأكل خبزاً وسجقاً ويشرب الجعة ثم نعس قليلا وانتظر الحافلة التى ستقله إلى باسترانا .

وصاحبة الحانة رقيقة الحاشية تجيد عملها ، فشعر الرحالة المستلقى على الـ (Chaise - Longue) بسعادة غامرة فى يوم لم يتعب فيه ، وأحس بأن غمامة من الخواطر الذهبية تجتاح خياله وانتهى به الأمر إلى أن غلبه

النعاس ومن يدرى ؟ لعل ابتسامة ارتسمت على شفتيه .

أيقظته الحافلة من حلمه اللذيذ[1]، فقد وصلت مبكرة أكثر من نصف ساعة عن موعدها وهبط منها الركاب الذين سينتظرون الحافلة الأخرى الذاهبة إلى سائيدون، وصارت نصف المقاعد شاغرة .

سلكت الحافلة طريق فونتلبييخو (Fuentelvieje) لأن الطريق المعتاد – وهو طريق آخر إلى اليمين – كان معطلا بل مقطوعا فى بعض أجزائه بسبب الفيضانات . وفونتلبييخو ضيعة صغيرة وتقليدية الهيئة وجميلة . يهبط هناك زوجان شابان حديثا الزواج قضيا شهر العسل فى وادى الحجارة .

على جانبى الطريق ترى كهوفا أمام كل منها مصطبة صنعت من نفس طينها وسقيفة جفت أغصانها. والأرض مموجة وخضراء . عند بلوغ الطريق الفرعى المؤدى إلى موراتيا دى لوس ميليروس (Moratilla de los Meleros) تتوقف الحافلة لينزل ثلاثة أو أربعة أشخاص سيضطرون لقطع مسافة كيلو متر مشياً على الأقدام وهى المسافة التى تفصلهم عن القرية . يقول لهم السائق :

– من حسن حظكم أن أتينا من هنا .

– حسن يا رجل ، لن يجر علينا الفيضان مصائب فقط .

يمتد الطريق من أويبا (Hueva) بين بساتين صغيرة حرثت على نحو طريف . وبرج كنسية أويبا مائل كبرج بيزا. تسير الحافلة شبه خاوية ويبدأ الرجال فى إعداد أغراضهم وحقائبهم وأكياسهم وقففهم .

– هل أنت من باسترانا ؟

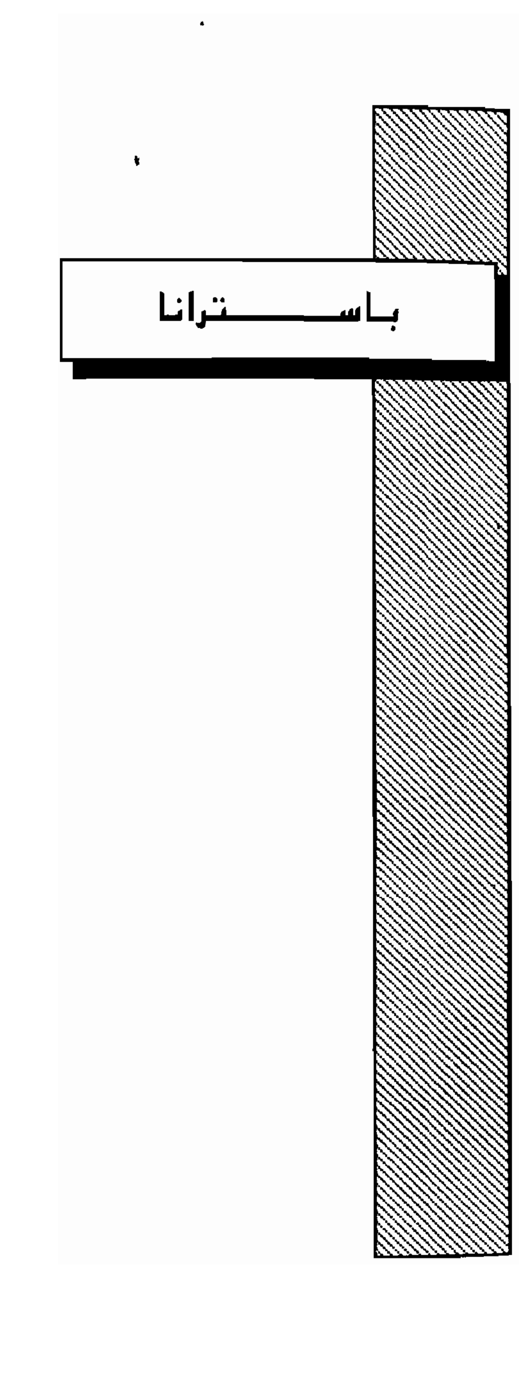
– لا يا سيدى .

– ربما كنت مندوبا متجولا ؟

– ولا هذا .

– آه ! ، أذاهب انت إذاً لزيارة سجين ؟




باستـــــــــرانا



يصل الرحالة إلى باسترانا مع آخر ضوء فى النهار . تنزله الحافلة عند مدخل البلدة ، فى أعلى منخفض طويل وشديد الانحدار . لا تريد الحافلة هبوطه ربما لأن السائق لا يريد أن يجد نفسه مضطراً إلى صعودها صباح اليوم التالى محملاً بالرجال والنساء والعسكريين والمدنيين والصناديق والسلال والطرود والخرجة والقبعات.

ليست الساعة مناسبة لدخول القرية ، فيقرر الرحالة أن يبحث عن مأوى ليتناول عشاءه ويأوى إلى فراشه ويؤجل كل شئ لليوم التالى . فضوء النهار هو أفضل وأنسب لطبيعة الضرب فى الأرض بين القرى والحديث مع الناس ومشاهدة الأشياء وتسجيل بعض الانطباعات فى دفتر من حين إلى حين .

والواضح الجلى أيضا أن الناس ينظرون إلى الغريب نظرة أفضل فى ضوء النهار ويرتابون فى أمره ارتياباً أقل ويثقون فيه على نحو أسرع، كما يبدون أكثر استعداداً لإعطائه أية معلومات يبحث عنها أو كوب ماء يطلبه أو ورق تبغ يحتاجه . أما فى الليل فالناس متعبون فضلاً عن أن الظلام يجعل الناس أكثر ارتياباً وحذراً وأقل وثوقاً . نهاراً ، وخاصة إذا ما اقترب الصيف وطال النهار وصار الضوء أكثر نقاء والحرارة أكثر اعتدالا ،

يبدو الناس أكثر طيبة وترحابا وتتخذ القرى مظهراً أكثر بهجة وتفاؤلاً وبشراً .

ويبدو أن الليل خلق للسرقة فى تكتم وبخطوة ذئب ، سرقة صرة الذهب التى تخبئها الأسرة فى قاع الصندوق بين الملاءات الكتانية الرقيقة والشالات ، أما الصباح فهو على العكس من ذلك ، جعل لطلب حسنة ودياً وبلا حياء وبابتسامة على الشفاه واليدان فى جيبى السراويل .

– أتعطينى شيئاً يا سيدى ؟

– أعطاك الله يا أخى .

– لا يهم ، شخص آخر سيعطينى .

لا يستحب أن تدخل القرية أو يدخل البيت لأول مرة ليلاً . وللرحالة تجربته فى هذا الشأن وهو يعى أنه وجد حظاً أوفر دائماً فى القرى التى دخلها فى ضوء النهار .

يهبط حتى ميدان البلدة مفكراً فى هذا الأمر ودون أن ينظر حوله كثيراً . يبحث عن فندق ومن المؤكد أنهم سيرشدونه فى الميدان . وما يريده ليس بالشئ الكثير فهو لا يحتاج إلى كماليات . وباسترانا بلدة كبيرة ومن المحتمل أن يكون بها خمسة أو ستة أماكن للإقامة بين خان ونزل وفندق .

فى الميدان ثمة جماعات من الرجال يتحدثون وفتيات يتنزهن وقد أحطن بأفراد من الحرس المدنى الشباب يغازلونهن يخطبون ودهن فباسترانا بلدة تستضيف ثكنة كبيرة من ثكنات الحرس المدنى .

يلعب صبية الكرة فى أحد أركان الميدان ،وفى الركن المقابل تلعب الصبايا لعبة «نط الحبل» كما يرى بعض سادة القرية بحللهم وربط

عنقهم وفتيات بأحذيتهن العالية . تضاء المصابيح الكهربائية تباعاً ومن إحدى الشرفات تخرج حشرجة جهورية لمذياع .

يقترب الرحالة من جماعة .

– مساء الخير .

– مساء الخير .

من سئل هو عمدة البلدة . بعد مرور شئ من الوقت فى الحديث ، يدرك الرحالة والعمدة أنهما صارا صديقين ولو لم يقدمهما أحد ، ولكن لا يهم . لا يعرف أى منهما اسم الآخر ولكنهما يريان أن هذه المسألة سهلة الحل . يذكر الرحالة اسمه وكذلك العمدة . يسمى دون مونيكو فرناندث طوليدانو محام ومدير أملاك الكونت . الكونت بالطبع هو كونت رومانونس .

دون مونيكو رجل ذكى ودود يميل إلى البدانة وقصر القامة وهو قارئ واسع الاطلاع ومتحدث شائق ، وهو طبقا لاعترافه الشخصى ليس من هواة كتابة الرسائل . ودون مونيكو عمدة قديم يحكم القرية كرب أسرة لديه مفهوم تقليدى وعملى لكرم الضيافة والسلطة . ويفكر الرحالة فى أن قضاة القرى فى الأزمان الغابرة لابد أنهم كانوا على نفس شاكلة دون مونيكو الآن ، والرحالة لا يعرف ما إذا كانوا خيرين أم أشراراً ولكنه يتخيلهم جميعاً مستقيمين وعشاقاً وآباء لأبناء قراهم.

يريد دون مونيكو أن يرى الرحالة شيئا من معالم القرية لكن الرحالة الذى يعتريه إحساس غامض بعيد لا يرحب بهذه الفكرة .

– لنره غداً فأنا الآن أشعر بشئ من التعب .

– لك ما شئت . لنذهب إذاً لتناول فاتح للشهية .

يجلس العمدة والرحالة على مائدة أحدهما قبالة الآخر فى الكازينو الكائن فى نفس الميدان . يترك الرحالة جرابه على الأرض وينادى العمدة الساعى ويطلب منه قدحين من الفيرموت وز يتونا ويأمره أن يحمل متاع الرحالة إلى الخان وأن يقول لهم هناك بأن يعدوا فراشا لشخص واحد وعشاء لثلاثة وأن يرسل أحدا فى طلب دون بكو .

تحيى جماعة تلعب الورق العمدة بإيماءة وتلقى بنظرة عابرة إلى الرحالة . لا يتأخر الفيرموت ولا الزيتون ويحضر دون بكو فى سرعة . ودون بكو رجل شاب وأنيق وعليه علائم الصحة وإيماءاته أنيقة وينزع إلى الفكر وابتسامته حيية وخفيفة وبها مسحة حزن بعيدة .

– أناديتنى ؟

– نعم ، أريد أن أقدمك . هذا صديق يقوم برحلة على قدميه فى هذه الأنحاء . هذا دون فرانثيسكو كورتيخو أيوسو ، نائبى.

ودون بكو طبيب، حديثه رصين ، ونظرته مفعمة بالعمق وآراؤه هادئة صائبة .

– وكيف بدا لك المكان ؟

– لم أره بعد . أفضل أن أفعل ذلك فى الصباح ، فى ضوء النهار .

– أجل ، أنا أيضا أعتقد أن ذلك أفضل .

يتحدث دون مونيكو ودون بكو والرحالة طويلاً عن أشياء عدة ، عن كل ما عنّ لهم ، واحتسوا معاً عدة أقداح من الفيرموت وأكلوا زيتونا كثيراً محشوا بالقلفل . وعندما نهضوا لم يكن ثمة أحد فى الكازينو ثم عندما جلسوا إلى ما ئده العشاء فى الخان لم تكن لديهم تقريباً أية رغبة فى الأكل .



فى صباح اليوم التالى وعندما أطل الرحالة على ميدان الساعة ودخل دخولاً حقيقياً وعلى عادته فى باهسترانا كان أول إحساس أحسه أنه فى مدينة من العصور الوسطى ، مدينة كبيرة من مدن العصور الوسطى . وميدان الساعة ميدان مربع الشكل ومتسع ورحيب يعيث فيه الهواء . وهو أيضا ميدان طريف له ثلاث واجهات فقط ومفتوح من أحد جوانبه .

من خلال شرفة طويلة تطل على الغوطة ، على إحدى غوطتى نهر أرلس . وفى ميدان الساعة قصر الدوق الذى سجنت فيه وقضت نحبها أميرة إبولس[1] . ومنظر القصر يبعث على الحسرة فمازالت واجهته قائمة تقريباً ولكنه متهدم من الداخل . وفى الحجرة التى قضيت فيها إبولى – هى زنزانة رسمت قضبانها رسماً فنياً بديعاً وتقع فى الطابق الرئيسى ، فى الجناح الأيمن للقصر – اتخذت المصلحة الوطنية للحنطة مقراً لها ، فعلى الأرض ثمة أكوام من الغلال وميزان قبان لوزن الأجولة . وبالحجرة إفريز من الفسيفساء الرائعة ، فسيفساء تاريخية شهدت وفاة الأميرة . على أن قطعاً كثرة منها قد اختفت وسوف تختفى كل يوم قطع أخرى ما دام البغالون والفلاحون ، فى أوقات انتظارهم الطويلة لتقديم إقراراتهم المختلفة ، يقتلون الوقت بنزعها من مكانها بالسكين . فى الحجرة المجاورة، وهى حجرة متسعة تحتل الجزء الأوسط من الواجهة ، ترى بقايا سقف خشبى عريق يهدد بالتصدع بين عشية وضحاها .

فى البهو يحمّلون عربة كارو تجرها البغال وينقر دجاج الأرض ويفتش عدد آخر منه فى كومة روث ، ويلعب طفلان ببعض العصى فى حين استلقى كلب فى الشمس عليه علامات السأم .

---

(١) أميرة إبولى (أنامندوثا) من نساء بلاط فيليبى الثانى ، تزوجت فى الثانية عشرة من عمرها من زوج يكبرها بأربعة وعشرين عاماً . فقدت إحدى عينيها فى ظروف غامضة، حكم عليها بالسجن فى عام ١٥٧٩ لدسها الدسائس فى بلاط الملك .

ولا يعرف الرحالة إلى من آل أمر القصر اليوم .. فيقول البعض إنه ملك لأسرة الدوق ، ويقول البعض الآخر إنه آل للدولة ، ويقول ثالث إنه ملك للرهبان اليسوعيين ، ولكنه يفكر فى إنه - كائنا من كان - لا يحمل كثير ودٍّ لباسترانا أو للقصر أو للأميرة أو لأى منهم .

وفى هذا القصر أراد قس البلدة دون إوستوكيو غارثيا مرتشانتى أن يقيم متحفاً لباسترانا . وكانت ثمة مواد كافية له فضلا عن أنه كان سيبحث عن غيرها وكان أساس المتحف يقوم على مجموعة سجاد ألفونسو الخامس ملك البرتغال الشهيرة .

ولم تلق فكرة دون إوستوكيو الترحيب الذى كانت تستحقه ولم ينجح المشروع وبقيت باسترانا بلا متحف وهى فى طريقها الآن إلى أن تبقى بلا قصر . وشهدت كيف طارت منها السجاجيد الموجودة الآن فى مدريد. ولقد سجل دون إوستوكيو محاولته تلك فى كتاب عنوانه : «سجاد ألفونسو الخامس ملك البرتغال المحفوظة فى كنيسة باسترانا القديمة» مصلحة طبوغرافيا دار النشر الكاثوليكية بطليطلة ، شارع خوان لابرادور رقم ٦ ، ١٩٢٩.

وكما قلت فالسجاد الآن ليس موجوداً فى كنيسة باسترانا القديمة ويطلب أهل باسترانا كل يوم بعودته ولكن أصواتهم تذهب أدراج الرياح . وحجتهم فى ذلك قاطعة - أعيدو لنا ما هو لنا - ولكن يرد عليهم بأن باسترانا ليس بها مكان مناسب لاقتنائه ، وأنه كان فى طريقه إلى الضياع داخل المتحف الذى كانت تعرض فيه .

ويفكر الرحالة فى أن هذه قضية لم يدعه أحد للتخاصم فيها ، بيد أنه يفكر أيضا فى أن إيداع أى شئ ذى قيمة متاحف مدريد من شأنه أن يقتل المقاطعة التى هى فى نهاية الأمر إسبانيا أيضا ، وأن الأشياء تكون دائما

على نحو أفضل إذا ما كانت على شئ من الفوضى أو على غيرما نظام ، لأن نظام المتاحف الإدارى البارد شأنه شأن نظام القوائم والإحصاءات والمقابر إنما هو نظام غير إنسانى وغير طبيعى ، وهو فى النهاية ليس نظاما.. أما النظام الحقيقى فهو نظام الطبيعة الذى لم يخرج شجرتين أو جبلين أو جوادين متماثلين أبداً. ونقل السجاد من باسترانا كان خاطئا من ناحية أخرى أيضا .. فإن يعثر الإنسان على الأشياء مصادفة لهو أشد بهجة من أن يذهب إليها قاصدا ودون أدنى احتمال للخطأ . ما علينا ...

الخروج من ميدان الساعة من خلال بوابتين . تؤدى البوابة اليسرى – فى عكس اتجاه القصر – إلى حى البايسين (Albaicin) العربى الأصل ، والبوابة اليمنى إلى حى سان فرانثيسكو المسيحى . يخرج الرحالة ليستطلع المدينة ويسلك شوارع لها أسماء قديمة وفرشت بالحصى ، ويسير أمام المنازل ذات الأبواب المزينة بالحديد الغليظ والشرفات المتوجة بأصص الغرنوق والقرنفل والهليون والحبق .

وأسماء شوارع باسترانا جميلة ومحملة بالإيحاءات : شارع السيدات وشارع الثور وشارع المداخن وشارع سانت ماريا وشارع التل وشارع الجدول وشارع التين وشارع البطل الصغير وشارع موراتين .

وكان موراتين [١] قد كتب مسرحيته «إذا البنات قلن نعم» (ترجمة حرة للأصل : El sí de las ni´nas – المترجم) فى باسترانا وعقد فيها قرانه الثانى . وكان يمكن الاحتفاظ بشئ من منزله هناك .

يعثر الرحالة فى باحة «القصبات الأربع» على نافورة رشيقة على شكل قدح غطيت بخزف تشقق بفعل السنين ، وتنتهى على شكل بيدق شطرنج ولا يخرج ماء من النافورة ونبتت الحشائش الضارة فى شقوق

---

(١) لياندرو فرناندث دى موراتين (١٧٦٠ – ١٨٢٨) : كاتب مسرحى إسبانى شهير .

الخزف . يأمر العمدة بفتح صنابير مياه النافورة حتى يتسنى استخراج صورة فوتوغرافية لها فيبحث خفير عن قضيب من الحديد ينظف به أنابيب المياه المسدودة .

وتتحين بعض النسوة الفرصة ليملأن جرارهن وأباريقهن.

يزين رواق كنيسة عذراء الانتقال إكليل من زهور الشاى . يتم العثور على سادن الكنيسة بعد كثير بحث وتقص . ويطوف السادن والرحالة بالكنيسة التى لابد أن كان لها شأن فى يوم ما . وسادن الكنيسة مثقف ويشرح للرحالة أشياء عدة ينساها فى الحال . دفن فى الكنيسة الزاهد خوان دى بويناييدا إى بورين كوتشيو (يوحنا الحياة الطيبة والسكين الطيب) الذى لابد أن كان شخصية طريفة ، والذى يقال إن الكنيسة ستعترف به قديساً رسمياً . ويفكر الرحالة فى أن الزاهد كان يستخدم لنفسه اسماً مرعباً كأسماء الحكايات الشعبية التى يرويها الشعراء المكفوفون ،وأن هذا الاسم هو أحرى بقاطع طريق أو بشخص حكم عليه بالإعدام منه برجل قد يصبح قديساً .

وتنضح الكنيسة بالتاريخ وتكتظ بذكرى أمجاد تليدة ، بيد أن الرحالة يرى أن أجمل ما فيها هو الرواق وإكليل زهور الشاى . فى وقت ما كان بها كورال قوامه ما يربو على أربعين قساً واليوم أصبح خاوياً بلا رجل واحد .. لعل أحداً منهم لم يستطع أن يداوم على حياة العبادة ، من يدرى ؟

وتذكره باسترانا بطليطلة وأحياناً بسانتياغو دى كومبو ستيلا. فبينها وبين طليطلة نقاط التقاط حقيقية وجلية : الشوارع الضيقة ومداخل المنازل ونواصى الشوارع ولون الواجهات وبعض السحب . أما مابينها وبين سانتياغو فهو تشابه غامض فى الإحساس . ولا يعرف الرحالة كيف يشرح ذلك على نحو آخر .

وباستـرانا المدينة التى كـانت لهـا تقـاليـد عـريقـة خـلت الآن من رجـال الدين. ويقال إن مـجمعـها الكنسى لم يكن له نظيـر إلا فى طليطلة وأن دير رهبـان الكرمل هناك أنشأته سـانتـا تيريسـا وكان من بين من نزلوه سـان خوان دى لاكروث .

والآن اندثر المجمع ولم تعد للدير أهمية .

ويرى الدير من مـيدان السـاعـة ، على مـرتفـع عند ملتـقى غوطتى نهـر ارلس . يهـبط الرحـالة وصـديقـاه ناحـية طريق السـيـارات ثـم يسلكون من هناك شـعبـا يوصلـهم إلى الجانـب الآخر من الدير . لابد من ارتقـاء هـضبـة وعـرة ، فـيـجلس ثـلاثـتـهم لالتـقـاط انفـاسـهم عند باب منزل كـان قـديمـاً مصنعاً للورق وتحت ظل شـجرة جوز عتيقة .

على بعد خطوات جلس متسـول غريب الهيـئة يتفلى فى الشـمس وما إن يرى الرجال الثـلاثة حتى يهرع إليهم طالبـاً حسنة . يلبس طاقيـة حولها الدهـر إلى طاقيـة بحافـة وسترة وسـراويل على اللـحم الخشـن الذى لوحـته الشـمس . ويبـدو الـعم رمـوليـنوس بسـتـرته المفـتـوحـة وصـدره العـارى كمـحارب قديم أدارت له الأيام ظـهرهـا ، كقبطان مهزوم لم يعـد يعتـقد فى شئ ولا ينتظر شيـئاً ولا يأبه بأى شـئ حتى بالبرد . ويمضى متسـخاً وقد طالت لحـيـتـه ، بـيـد أن مـظهـره يـنم عن سـخـرية نبيـلة وشكّـيـة . والعم رمـوليـنوس مـتـسـول عـلى النسق القـديم فـهـو مـتـحل بالوقـار والصـبـر الجميل، وهـو شحـاذ يعرف دوره جيداً : فلم يغتم ولم يعمل فى حياته ولم يعبس لها قط .

للوصـول إلى دير الكرمل يجب صـعـود منحدر مـودٍ إلى كنيسة سـان بدور دى الكانـتـرا . أسـفـلهـا يقـبع كـهف سـان خـوان دى لاكـروث وعلى اليمين ، عـلى شكل مـقـدمـة سـفين كنيـسـة سـانتـاتيـريـسـا . وكل هذه

الأماكن تشكل جوا أدبياً معيناً وهى مزينة يرفات الموتى وبعقارب ساعة الزمن وبنقوش تشير إلى قصر العمر وإلى الحياة الآخرة التى تنتظرنا . والحقيقة إن زيارة هذه الأماكن قد لا يكون لها ما اصطلح على تسميته بالأثر العلاجى فى أشخاص عصبيين أو موسوسين .

ويبدو كهف سان خوان شبه متصدع وقد غطت الحشائش الضارة مدخله . وإعادته سيرته الأولى أيام كان القديس يتردد عليه هى مهمة تنجز بعرقين من الخشب ، كما أن الحشائش الضارة من الممكن أن تأتى عليها النار فى نصف ساعة .

يبتعد الدير عن الكنيستين مسافة مائة خطوة أو أقل من ذلك وهو الآن ينتمى إلى الرهبان الفرانثيسكان . ويرافق الرحالة وصديقيه راهب صحيح البدن تبدو عليه إمارات العافية ويدخن سيجارة طويلة .

يتحدث إليه الرحالة الذى له تاريخ عائلى متواضع متصل بهذه الرهبانية .

– لى جد أو والد جد كان راهبا فرانثيسكانيا عذبه الكفار فى دمشق وهو قديس رسمى منذ أعوام طويلة .

– ما اسمه ؟

– فراى خوان خاكوبو فرناندث .

– لا أعرفه .

لا يبدو أن الراهب اهتم كثيراً بجد الرحالة القديس .

– والآن يتحتم علينا أن نضع قرميداً جديداً . خلال عام إن شاء الله سنقوم بترميم بهو الأعمدة فى حدود إمكانياتنا .

يطوف الراهب والرحالة وصديقاه بالدير إلى أن يصلوا المكتبة .

– لدينا هنا أربعة أو خمسة كتب طبعت قبل ١٥٠٠م ، وللحيلولة دون فسادها قمنا بتجليدها .

ويريها الراهب للرحالة وقد اقتصت مقصلة من الجلد مقدار عرض إصبع من كل ناحية .

– ولدينا أيضا متحف للتاريخ الطبيعي ستراه فيما بعد وهو الآن غير مرتب فعندما دخل «الحمر» البلدة قلبوا كل شئ رأساً على عقب .

كانت قد مضت سبع سنوات منذ أن انتهت الحرب الأهلية .

ويدخل الركب أحد الفصول في طريقه إلى متحف التاريخ الطبيعي فيقف الطلبة الذين وجد الرحالة في ملاحظتهم ضرباً من الطرافة فقد تباينت أعمارهم وأشكالهم وألوان شعرهم.

– هنا ، أكثر الحيوانات لدينا من الجزر الفليبينية .

كل شئ في المتحف تسوده الفوضى ويغطيه التراب وهو شئ محزن ولكن ربما أمكن علاجه بتعيين خبير يعيد الأشياء موضعها الأول وبتعيين خادمة في يدها مقشة .

ويتحدث الراهب عن أحزان الدير في شئ من عدم الاهتمام ، وبدا كأنه لا يدرك حقيقة أن تلك الأحزان هي أحزان فعلية ، والأسوأ من ذلك هو أنها أحزان يمكن أن تنتهي بقليل من التدبير .

والدير بديع ومشبع بالتقاليد ويفكر الرحالة في أنه من المؤسف ألا يستطيع الدير – شأنه في ذلك شأن باسترانا – أن يرفع هامته ثانية .

في كتاب دون إوستوكيو المنثور نثرا نحوياً رائعاً ثمة نبرة أسى على

الأمجاد التليدة وإعظام للأزمان الغـــــابرة ، تلك الأزمــــان التى يرى دون إوستوكيو أنها كانت أفضل من الحاضر رغم كل شئ.

«باســترانا فى الوقت الحـاضـر مدينة خبت جذوة مـجدها. أجل ، فلم يعد يسمع صرير بوابات قلعتها التى كان يحرسها فى الأزمان التليدة برج المراقــبة فى ممرات القـصـر العليا ولم تعد رؤية الجنود فى زيهم العسكرى البديع تلهب الروح القتالية وتحولها أناشيد عسكرية كما كان يحدث فى العصور الوسطى».

يعتقد الرحالة أن دون إو ستوكيو قد أسرف فباسترانا بدون برج مراقبة وبدون أناشيد عسكرية وبدون روح قتالية ، وبدون عصور وسطى هى مدينة ككل المدن وجميلة كالقليل منها وأنها تعلو وتنخفض وتنمو وتتقلص حسبما تضحك لها أو تعبس فى وجهها المقادير .

ربما وجد فى باسترانا تفسير لظاهرة تتكرر فى إسبانيا كلها فى غير ضـرورة : إن التـراث المجـيـد يشق على الأنفس ويذبل الإرادة ولكن بدون إرادة وبالاقتصار على تأمل أمجاد الماضى لا يمكن أن نتفهم مشاكل الحاضر . إذا ما خوت البطون وعششت فى الرؤوس الذكريات الذهبية ابتعدت هذه الذكريات شيئاً فشيئاً ، وفى النهاية ودون أن يعترف بذلك أحد يسود الشك فى حقيقة هذا الماضى ويتحول إلى قيم ممجوجة مهملة داعية الشفقة .

ثمة من يقول إن لوحة فيلاثكث «الغازلات» تمثل منوالا من باسترانا – ربما كان هذا صحيحا ، ولكن الرحالة يفكر فى أنه لو أن باسترانا احتفظت بهذا المنوال لكان ذلك أفضل من أن يحتفظ به فى لوحة عظيمة ليست هى الأخرى موجودة فى باسترانا .

فى مواجهة الدير ، فى مرتفع لاكويستاذى بالديانغيكس (Cuesta de

(Valdeanguix ، توجد كهوف المورو (El Moro) طويلة وعميقة يبلغ عمق بعضها ستين مترا . والرحالة لا يصعد المرتفع ولا يهبط الكهوف فباسترانا مدينة كبيرة ومن الصعب زيارتها على الأقدام فى يوم واحد ، كما أن الرحالة لا يجد فى نفسه أية رغبة فى أن يخطو خطوة أخرى واحدة .

وعندما يعود إلى النزل ينشر الخريطة على مائدة حجرة الطعام الكبيرة كأنها مائدة اجتماعات ممعناً فى الفكر . ناحية الجنوب ، وعند منعطف لنهر التاجه تقع ثوريتا دى لوس كانس (Zorita de los Canes) التى حكمها البار فانيث (١) .

كان دون مونيكو قد خرج ، ودون بكو يطل من الشرفة ينظر إلى الغوطة . ينهض الرحالة ويشرب جرعة كونياك ويشعل سيجارة ثم يطل من الشرفة هو أيضا على الميدان الذى يتأرجح فيه هواء شفاف ومكدود قليلاً . ينظر ناحية اليمين إلى واجهة القصر القائم بمحاذاة النزل ويرى فى متناول اليد تقريباً القضبان التى حرست أميرة إبولس . ويقشعر بدن الرحالة – فهو أيضا إسبانى كأى باسترانى – عندما يفكر فى أن على الجانب الآخر من الحائط عاشت ساعاتها البائسة وقضت نحبها تلك السيدة الغامضة الحسناء والحولاء والشبقة فيما يبدو، التى بلغ نفوذها شأوا بعيداً وحيرت العظماء . والناس فى باسترانا يسمونها فى وقاحة : القحبة . فشعب قشتالة شعب نظامى وعرفى ، وثمة شيئان لا يتسامح فيهما ولو على سبيل الخطأ : أن يعبث الأغنياء بقانون الله ومتعة تسمية الأشياء دائماً بأسمائها .

– هل اعجبتك المدينة ؟

---

(١) من شخصيات ملحمة «السيد» .

– جدا . باسترانا مدينة عظيمة وإن كانت نائمة قليلاً .

يبتسم دون بكو غارقا فى التفكير ويصمت برهة ثم يلتفت إلى الرحالة.

– مازالت لدينا ثلاث ساعات من النهار . هل تريد أن أخرج السيارة ونذهب إلى ثورثيا ؟

– أجل أريد بالطبع .

الرحلة إلى ثوريتا قصيرة وممتعة .

يبدو السفر المريح والسريع الآن للرحالة شيئاً غير مألوف ، فقد اعتاد أن يقيس المسافات على الخريطة بعدد ساعات السير ، والطريق حتى ثورثيا طبقاً لهذا القياس كان سيكلفه يوماً بأكمله سيراً على ضفاف نهر أرلس حتى مصبه فى نهر التاجه ودون أن يعثر بأية قرية .

يمر التاجه بثوريتا
كالسلطان
والريف أنسة
تقدم الخبز
وترتدى السماء سترة
أو معطفاً
وليس ثمة قانون
جاذبية فلكى
وقلعة ثوريتا
لم تدق أجراسها
يسكنها عفريت ..
انتهى البيت السادس .

تقع ثوريتا دى لوس كانس فى أحد منحنيات نهر التاجه ، إلى جانب أعمدة لجسر لم يشيد قط ، وتحيط بها حقول القنب وتستلقى فى ظل اطلال قصر ينتمى إلى رهبانية كالاترابا . لم يعد قائما من القلعة إلا بعض الأسوار وقوسان أوثلاثة وزوج من القباب وهو يمثل موقعا استراتيجيا على ربوة صخرية وعرة . على الجانب الخلفى من سفح الربوة يحرس راعيان قطيعاً من الماعز ويحفر أحدهما عصا من المران بحافة سكينه بينما يجلس الآخر على العشب الأخضر محاولاً أن يخرج صفيراً من ناى من البوص .

ويبدو أن القصر كان قلعة حصينة ، بيد أن الأقواس والقباب تبدو الآن وقد تصدعت وتهدد بالسقوط فى أحد هذه الأيام .

وأهل ثوريتا لطاف وأذكياء وحسب ما يقوله دون بكو للرحالة فإن التطعيم فى هذه القرية لا يعتبر مشكلة : فيقال لهم إنهم سوف يطعمون وتشرح لهم فوائد التطعيم واخطار إهماله ويحدد موعد لإجرائه وعندما يأتى هذا اليوم يقبل الناس عليه ، وفى وجود الطبيب وممارس صحى واحد يتم تطعيم القرية كلها بين صباح ومساء يوم واحد.

وأهل ثوريتا دى لوس كانس من سلالة شقراء كالألمان أو الإنجليز . شعورهم شقراء وعيونهم زرقاء وهم طويلو القامة معتدلوها . والفتيات يفرقن شعورهن ويضفرنه فى ضفيرتين وهن يمضين نظيفات مشرقات وقد تورد لون خدودهن على البشرة البيضاء .

وثوريتا قرية تحيا حياة عائلية وتعيش فى سلام وفى نعمة ربانية . فى مواجهة ثوريتا – على الجانب الآخر من النهر – ترى أطلال مدينة ركوبوليس القوطية (Récepolis) وفى عكس الاتجاه ، فوق طريق السيارات المؤدى إلى البلاتى (Albalate) ، تلوح من بعيد الموناثيد دى ثورثيا

(Almonauid de zurita) ، القرية التى كان يعمل صيدلياً بها الشاعر ليون فيليبس منذ أكثر من ربع قرن .

يخرج دون بكو والرحالة من ثوريتا وقت حلول الظلام تقريبا وكانا قد تناولا شيئا من طعام فى حانة لم يرد أصحابها أن يأخذوا إلا ثمن النبيذ – لأن الطعام لم يكلفهم شيئاً – وتسليا بالحديث إلى الناس .

فى طريق العودة يفكر الرحالة الجالس إلى جوار دون بكو فى أن رحلته فى «القرية» قد انتهت . تسبب له هذه الفكرة سعادة من ناحية وحزناً من نايحة أخرى . لقد تعلم أشياءً كثيرة ، ولا شك فى أن ثمة اشياء أخرى كثيرة لم يتعلمها . ولقد سار حيث أراد ورجع عن السير حين لم يرد ..

تسبب أرجحة السيارة النعاس ، فينعس مرتين ويميل رأسه على كتف دون بكو الطبيب والرجل الذى يبتسم دائما ابتسامة حيية وخفيفة وبها مسحة حزن بعيدة .

يستيقظ الرحالة عند الوصول إلى ميدان الساعة .

– هل نمت قليلاً ؟

– أجل يا سيدى واعذرنى إذا كنت قد توسدت كتفك .

فى الميدان يتحدث الرجال مجتمعين وتتنزه الفتيات وقد أحطن بأفراد من الحرس المدنى يلبسون بيريهات الثكنات وهم أفراد من الشباب يغازلونهن ويخطبون ودهن . يمارس صبية اللعب فى احد الأركان وفى الركن المقابل تلعب صبيات «الحجلة» يعبر الميدان رجل من الأثرياء يرتدى بذلة وتضحك فتاة هيفاء بادية الحسن تنتعل حذاء صغيراً رقيقاً كعبه عال .

ويرخى الليل سدوله من فوق جبل الكالبا ريو على باسترانا .

فى ميدان الساعة

تغيب الشمس

وتتعبد امرأة تتشح

بالسواد إلى الرب

ويدق ناقوس دقاً حزيناً

بحب واهن

وفى فضاء باسترانا

يلحق طائر الباشق

تضاء الأنوار الكهربائية شيئا فشيئاً ويطلق مكبر صوت فى أحد البارات إيقاع «البوغى بوغى» ضد الحجارة العتيقة .

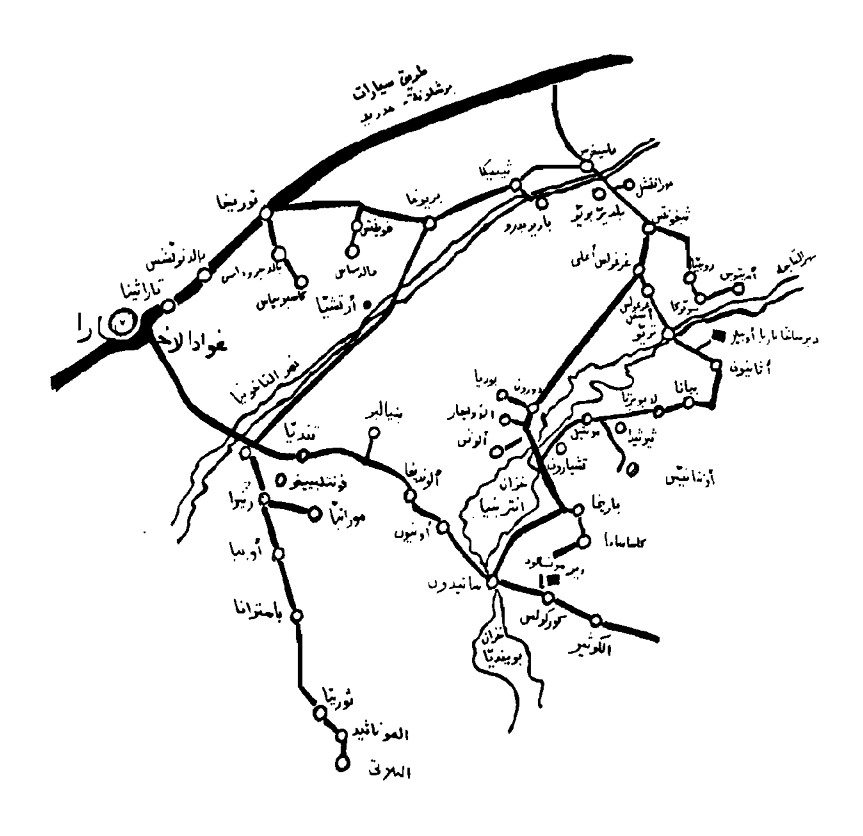
يدخل دون مونيكو ودون بكو والرحالة الكازينو لتناول الفيرموت والزيتون المحشو بالأنشوجة ...

فى الطريق : من ٦ إلى ١٥ يونية ١٩٤٦

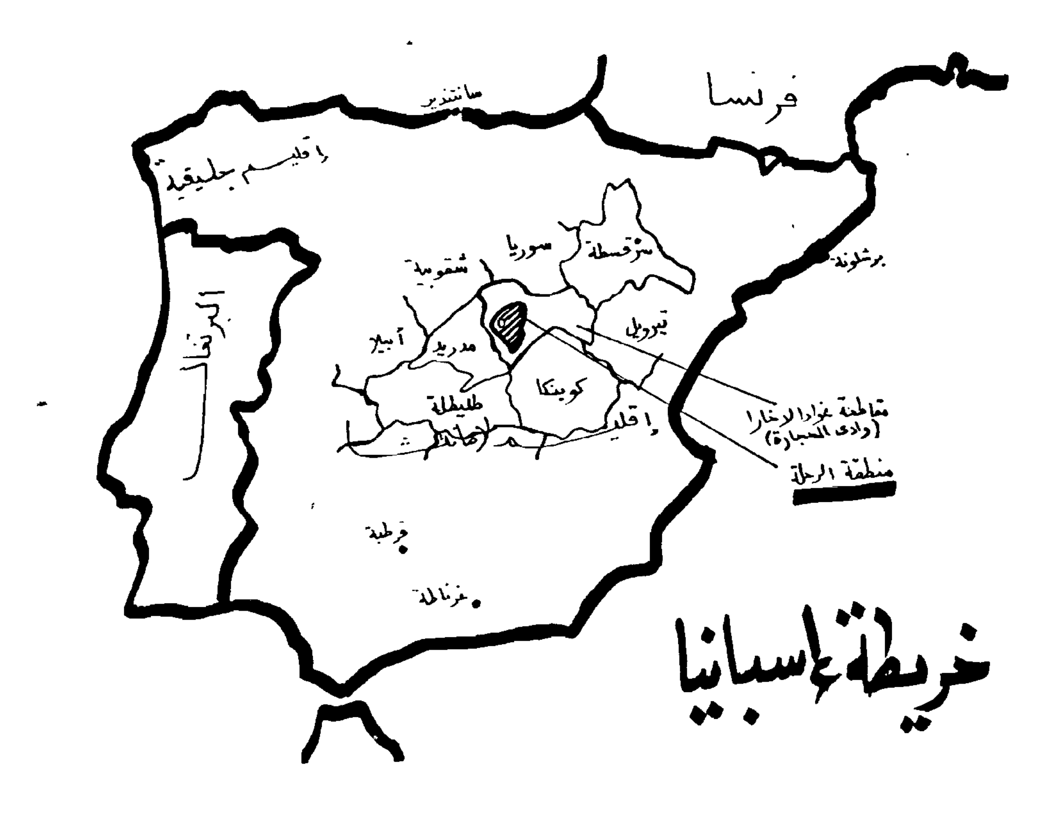
فى مدريد : ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ يونية ١٩٤٦ .

ومن ٢٥ إلى ٣١ ديسمبر ١٩٤٧.

★★★



منطقة الرحلة



خريطة إسبانيا

الفهرس